دراسات في الآداب الأجنبية



عشر روايات خالدة

سومرست موم

ترجمة

سيد جاد سعيد عبد المحسن



دار المعارف بمصر

W. Somerset Moughai

Selects

The World's Ten Grea

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م

المحتويات

عشر روايات خالدة

أحب أن أذكر للقارئ كيف كتبت المقالات التي يحتويها هذا الكتاب . في أحد الأيام وكنت لاأزال مقيما بالولايات المتحدة ، طلب مني محرر « رد بوك » قائمة بما يعد في نظري أحسن عشر روايات في العالم . فكتبت القائمة . وطرحت الأمر بعد ذلك عن ذهني .

وذكرت في تعليق موجز أرفقته بهذه القائمة : « سيجد القارئ العاقل أكبر قسط من المتعة في قراءة هذه الروايات لو تعلم فن قفز الصفحات » . وفيما بعد اقترح على أحد الناشرين الأمريكيين إعادة نشر هذه الروايات العشر بعد حذف الأجزاء التي يحسن تركها دون قراءة ، من النص الأصلي لكل رواية، على أن أكتب مقدمة لكل واحدة منها . ورافقني الاقتراح فشرعت في العمل فوراً . وقد نشرت معظم هذه المقدمات موجزة بعض الشيء في مجلة « اتلانتيك » الشهرية ، ونظراً لأنها — فيما يبدو — أعجبت القراء ، اتفق الرأي على أنه قد يكون من الأنسب جمعها في مجلد واحد .

غير أنني اضطررت إلى إدخال تعديل واحد على قائمتي الأصلية . ذلك أني كنت قد ختمتها برواية مارسيل پروست « البحث عن الزمن الضائع Remembrance of Things Past ولكني لم أدرجها ضمن السلسلة المقترحة لأسباب عدة . ولم أندم على ذلك . فرواية پروست ، وهي أعظم رواية في هذا القرن ، بلغت من الطول حدًّا بالغاً ، وقد يكون من المستحيل اختصارها إلى حجم معقول حتى لو لجأنا إلى الحذف المتعسف .

لقد حققت هذه الرواية نجاحًا ساحقاً ، ولكن الوقت لم يحن بعد لتقييم حظها من الخلود . ويستطيع المعجبون المتعصبون پروست — وأنا من بينهم — أن يقرأوا كل كلمة من كلمات الرواية في شغف ، وقد كتبت ذات مرة ، في

لحظة تحمس ، أنني أفضل أن يصيبني السأم من پروست على أن أتسلى بأى كاتب آخر ، ولكني على استعداد الآن للاعتراف بأن أجزاء الرواية تتباين فى قيمتها . ويبدو لى أن الغد سيكف عن الشعور بالمتعة وهو يقرأ هذه الفصول الطويلة من كتاب پروست التى كتبها متأثراً بالأفكار السيكلوجية والفلسفية الشائعة فى عصره وقد اكتشف الناس أن بعض هذه الآراء خاطئة . وأعتقد أنه سيتضح فى المستقبل – أكثر مما هو واضح الآن – أن پروست من أكبر كتاب الفكاهة ، وأن قدرته على خلق الشخصيات الأصيلة النابضة بالحياة تضعه على قدم المساواة مع بلزاك وديكنز وتولستوى . وحينئذ قد تظهر طبعة مختصرة لمؤلفه الضخم بعد حذف تلك الأجزاء التى يذهب الزمن بقيمتها ، والإبقاء على الأجزاء ذات المتعة الدائمة لأنها من صميم الرواية . ومع ذلك ستظل رواية « البحث عن الزمن الضائع » فى صورتها المختصرة رواية طويلة جداً ، ولكنها ستكون رواية رائعة ، وإلى القارئ قائمتى النهائية لأحسن عشر روايات فى العالم :

توم چونز .	Tom Jones
الكبرياء والهوى .	Pride and Prejudice
الأحمر والأسود .	The Red And The Black
الأب جوريو .	Old Man Goriot
ديڤيد كوپرفيلد .	David Copperfield
ويذرنج هايتس (أو مرتفعات ويذرنج) .	Wuthering Heights
مدام بوڤارى .	Madame Bovary
موبى ديك .	Moby Dick
الحرب والسلام	War and Peace
الإخوة كرامازوف .	The Brothers Karamazov

ومع ذلك اسمحوا لى بأن أصرح منذ البداية بأن الكلام عن أحسن عشر روايات فى العالم هو محض هراء ؛ فليس هناك ما نسميه أحسن عشر روايات فى العالم . قد يكون هناك مائة رواية رائعة ، رغم أنى لست متأكداً من أن هناك مائة فقط. ولو قام خمسون شخصًا من القراء الممتازين ، المثقفين ثقافة مناسبة ، بإعداد قائمة بأحسن

مائة رواية فى العالم ، لتكرر فيما أظن ذكر مائتين أو ثلاثمائة رواية على الأقل . ولكنى أعتقد أن العشر روايات التى اخترتها ستجد مكانها فى الخمسين قائمة على فرض أن الذين أعدوها يتكلمون الإنجليزية . وأنا أقول الأشخاص الذين يتكلمون الإنجليزية لأن واحدة على الأقل من الروايات المذكورة فى قائمتى ، وهى « موبى ديك » ، غير معروفة نسبياً إلا للطلاب المتخصصين فى الأدب الإنجليزى ومما يجدر ذكره أن الأدب الإنجليزى لاقى رواجاً كبيراً فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولكن الفرنسيين — منذ هذه الفترة حتى وقت قريب — لم يهتموا اهتماماً كبيراً بأى شىء يكتب خارج بلادهم . ومن المؤكد أن قائمة فرنسية بأحسن مائة رواية نجدها تتضمن أعمالا قلما تقرأ فى البلاد التى تنطق بالإنجليزية ، إن لم تكن لاتقرأ على الإطلاق .

وقد أصبح من السهل الآن ، إلى حد ما ، تفسير هذا الاختلاف الكبير فى الرأى . فهناك أسباب مختلفة تجعل شخصاً ما ينجذب إلى إحدى الروايات انجذاباً كبيراً إلى حد أنه يثنى عليها ثناء عاطراً رغم أنه قد يكون سديد الرأى . قد يحدث ذلك لأنه قرأها فى لحظة أو ظرف كان فيه أكثر عرضة للتأثر بها ، أو لأن موضوعها أو مسرحها ليست له مجرد دلالة عادية بالنسبة له نتيجة لميوله الخاصة أو ارتباطاته الشخصية . فأنا لا أستبعد مثلا أن يسارع عاشق متحمس للموسيقى بادراج رواية (موريس جيست)[1] لهنرى هاندل ريتشاردسون ضمن الأحسن عشر روايات ، كما لا أستبعد أن مواطناً من « الفايف تاونز » يسره صدق آرنولدبنيت Arnold Bennett فى تصويره لطابع المكان وسكانه فيضع فى قائمته حكاية الزوجات العجائز The Old Wives Tale وكلا الروايتين جيدتان لكنى أعتقدأن الحكم الموضوعى لن يفرد لأى منهما مكاناً بين الأحسن عشر روايات. فقومية القارئ تضفى على بعض الكتب أهمية ، وتجعله يضعها فى مصاف الروايات الممتازة ، بالرغم من أن الآخرين قد لايشاركونه هذا الرأى . فأنا أعتقد ، على سبيل المثال أن أى فرنسى مثقف يعد قائمة كالتى أعددتها سيضمنها رواية « أميرة كليف » La Princesse De Cleves لمدام

---

(١) Maurice Guest

دى لافاييت ، وله الحق فى ذلك ، فلهذه الرواية ميزات عظيمة ، فهى أول رواية سيكلوجية تكتب على الإطلاق ، والقصة مؤثرة ومقنعة ، والشخصيات مرسومة بدقة ومهارة ، وقد كتبت الرواية بأستاذية ، كما أن حجمها مستحب . وهى تعالج صورة لمجتمع يعرفه كل تلميذ فرنسى جيداً ، وجوها الأخلاقى مألوف لديه من قراءاته لكورنى وراسين ، وتتميز بروعة الارتباط مع أكثر فترات التاريخ الفرنسى رواءً . وهى تساهم بنصيب كبير فى العصر الذهبى للأدب الفرنسى . غير أن شخصياتها قد تبدو جامدة جدًّا للقارئ الإنجليزى أو الأمريكى ، وقد يجد أن سلوكها غير طبيعى ، وربما يسخر قليلا من تبجيلها للشرف والاهتمام بالكرامة الشخصية . ولست أزعم أنهم على حق فى ذلك ، ولكنهم إذ يفكرون على هذا النحو لن يضعوا هذا الكتاب بين الأحسن عشر روايات فى العالم .

وأعتقد أن السبب الرئيسى فى الاختلاف الكبير فى الرأى حول المزايا المذكورة للروايات ترجع إلى أن الرواية من الأشكال التى تفتقر فى جوهرها إلى الكمال . فليست هناك رواية كاملة . ولاتخلو رواية من الروايات العشر التى اخترتها من عيب ما فى موضع من المواضع . وهذا ما أنوى توضيحه عند تقديم كل واحدة منها . فليس أكثر جحوداً للقارئ من الثناء الأعمى الذى يكال أحياناً لبعض الكتب التى تواضع الناس على اعتبارها من الروائع . فهو يقرأ وإذا به يجد أن هذه الحادثة أو تلك غير محتملة الوقوع على الإطلاق ، وأن هذه الشخصية أو تلك غير واقعية ، وأن هذا الوصف أو ذلك ممل . فإذا كان ضيق الصدر فسيتهم النقاد الذين ذكروا له أن هذه الرواية رائعة بأنهم مجموعة من الحمق . أما إذا كان متواضعاً فسيلوم نفسه ويعتقد أنها فوق مستواه ولم تكتب لأمثاله . لكنه إذا كان عنيداً مثابراً فسيمضى فى قراءته بإخلاص ولكن بغير متعة ، بينما ينبغى أن يصاحب القراءة إحساس بالمتعة ، وإذا لم تمنحنا الرواية هذه المتعة فلا قيمة لها . وعلى ذلك فالقارىء هو خير من يحكم لنفسه ، هو وحده الذى يعرف ما يمتعه ومالا يمتعه ، فلا إلزام فى قراءة الفن القصصى . ويستطيع الناقد أن يساهم فى هذا المجال بأن يوضح ، من وجهة نظره — وهذا شرط هام — المزايا التى تعد رائعة إلى جانب توضيح العيوب ، غير أنى أبادر فأحذر القارى مرة أخرى بأن عليه ألا ينشد الكمال فى الرواية .

على أنى أود ، قبل التوسع فى هذه النقطة ، أن أتحدث قليلا عن قراء الرواية . فمن حق الروائى أن يطالبهم بشيء . من حقه أن يشترط ذلك النزر اليسير من الاستعداد اللازم لقراءة كتاب من ثلثمائة أو أربعمائة صفحة . ومن حقه أن يطلب منهم سعة الخيال الذى يساعدهم على تصور الأحداث التى يسعى الكاتب إلى إمتاعهم بها وإلى أن يجسموا فى مخيلتهم الصور التى رسمها . وأخيراً ، من حق الروائى أن يطلب من قرائه شيئاً من القدرة على التعاطف التى بدونها لن يتسنى لهم الاندماج مع أشخاص الرواية بما يعتمل فى نفوسهم من مشاعر الحب والأحزان والعذاب والمخاطر والمغامرات . وما لم يكن القارئ قادراً على أن يمنح شيئاً من ذات نفسه فلن يستطيع أن يأخذ من الرواية أحسن ما تعطيه .

وسأحدد الآن المميزات التى ينبغى ، فى نظرى ، أن تشتمل عليها الرواية الجيدة :

يجب أن يكون الموضوع شائقاً للأكثرية ، وأعنى بذلك موضوعاً لايهم فئة معينة ، سواء أكانت من النقاد أو الأساتذة أو ذوى الجباه العالية أو سائقى عربات النقل أو غاسلى الأطباق ، وإنما يجب أن يكون الموضوع ذا دلالة إنسانية كبيرة بحيث يجتذب الرجال والنساء من كل لون . ولأضرب مثالا بما أعنيه . فقد يكتب شخص رواية عن منهج مونتسورى[١] بحيث يجتذب اهتمام رجال التربية ، ولكنى لا أستطيع إقناع نفسى بأن هذه الرواية تعنى شيئاً سوى أنها عادية . وينبغى أن تكون القصة متناسقة ومقنعة . وأن يكون لها بداية ووسط ونهاية . وأن تكون نهايتها نتيجة طبيعية للبداية : وينبغى أن تكون الأحداث محتملة الوقوع وألاتقتصر على تطوير الموضوع فحسب وإنما تنمو من داخل القصة . كما ينبغى أن يراعى الروائى تفرد الشخصيات التى يبتكرها ، وأن يكون سلوكها منبثقاً من طبائعها حتى لايتيح للقارئ فرصة لأن يقول : لايمكن أن يتصرف هذا الإنسان أو ذاك هكذا ، على العكس ينبغى أن يجد نفسه مضطراً لأن يقول ذلك ما كنت أتوقع أن يفعله هذا الشخص أو ذاك تماماً . كما أعتقد أن من الأفضل جداً أن تكون الشخصيات مثيرة للاهتمام فى حد ذاتها .

---

(١) Montessori

كتب فلوبير رواية اسمها «التربية العاطفية The Sentimental Education»
حازت على شهرة عظيمة بين كثير من النقاد الممتازين . لكن فلوبير
اختار بطله – عن عمد – رجلا عاطلا من أية مميزات أو سمات تحدد معالمه ، رجلا
لاشخصية له ، ، بحيث يستحيل على المرء أن يعبأ بما يفعله أو بما يحدث له .
من أجل هذا تصعب قراءة هذا الكتاب رغم كل مزاياه . وأعتقد أنه ينبغى أن
أوضح السبب الذى من أجله قلت إنه يجب مراعاة جانب التفرد فى الشخصيات .
إننا نبالغ حين نتوقع من الروائى خلق شخصيات جديدة كل الجدة ، ذلك أن
مادته هى الطبيعة البشرية . ورغم أن هناك مختلف الأشخاص والأمزجة إلا أنها
محدودة العدد . وما أكثر الروايات والقصص والمسرحيات والملاحم التى كتبت
لمئات من السنين حتى ضاقت الفرصة أمام المؤلف الذى يبغى خلق شخصية
جديدة تماما . وعندما أستعرض فى ذهنى كل الفن الروائى المكتوب أجد أن
شخصية « دون كيشوت » هى الشخصية الوحيدة التى ابتدعها صاحبها ابتداعاً .
على أنى لا أدهش إذ علمت أن أحد النقاد المطلعين وجد له أصلا بعيداً هو أيضاً .
والكاتب المحظوظ هو الذى يستطيع أن ينظر إلى شخصياته من خلال تفرده ،
والذى يخرج تفرده عن المألوف بحيث يخلع على شخصياته ما يوحى بالأصالة .

وينبغى أن ينبع الحديث من الشخصية تماما كما ينبع السلوك منها . فتتكلم المرأة
الراقية مثل النساء الراقيات ، وعابر السبيل مثل عابرى السبيل ، ورجل البار مثل
رجال البارات ، والمحامى مثل المحامين ويجب ألا يكون الحوار مفككاً ، وألا يستغله
المؤلف للتعبير عن آرائه وإنما ينبغى أن يساهم فى تصوير المتحدثين وفى تطوير
القصة ، ويجب أن تكون الفقرات الخاصة بالسرد نابضة بالحياة ، وفى الموضوع ،
وليست طويلة أكثر من اللازم ، لجعل دوافع الشخصيات المعينة والمواقف التى
يقفونها واضحة مقنعة ،، ويجب أن يكون أسلوب الكتابة بسيطاً حتى يستطيع
أى قارئ عادى التعليم قراءته دون جهد ، ، ويجب أن يطابق الشكل المضمون
مثلما يطابق الحذاء الجيد الصنع قدما دقيقة التكوين ، وأخيراً يجب أن تكون
الرواية مسلية . ولقد وضعت هذا الشرط فى النهاية ، غير أنه الصفة الأساسية
وبدونها لن تكون لأى صفة أخرى أى جدوى . فلا يوجد من يقرأ الرواية ليتلقى

تعليمات أو ينمى عقله ، وإذا أراد أن يتلقى التعليمات أو ينمى عقله، فعليه أن يلجأ إلى الكتب التى تبحث فى هذه الموضوعات وإلا فهو أحمق . ولكن حتى لو كانت فى الرواية كل هذه المميزات – ونحن هنا نطلب الكثير – إلا أن هناك ثغرة فى الشكل مثل الشوائب التى تشوب الحجر الكريم . هذه الثغرة تجعل مرتبة الإتقان أمراً يصعب تحقيقه . إن القصة القصيرة قطعة روائية يمكن قراءتها حسب طولها خلال عشر دقائق أو ساعة وتعالج موضوعاً واحداً محدداً ، قد يكون حادثة روحية أو مادية متكاملة أوسلسلة من الأحداث المرتبطة ارتباطاً دقيقاً ، بحيث يستحيل أن نضيف إليها أو نقتطع منها شيئاً . وأعتقد أن من الممكن هنا بلوغ مراتب الإتقان ، ولا أظن أنه من الصعب جمع عدد لابأس به من القصص القصيرة التى تحقق هذا الشرط ، أما الرواية فعمل غير محدود الطول ، قد تطول مثل « الحرب والسلام » التى تحكى سلسلة من الأحداث وتعرض لعدد هائل من الشخصيات فى فترة من الزمان ، وقد تكون الرواية قصيرة مثل « كارمن » . ولكى يضفى المؤلف على قصته طابع الاحتمال ويجعل شخصياته مقبولة لدى القراء ، فعليه أن يحكى عدداً من الحقائق المرتبطة بالقصة غير أن هذه الحقائق ليست مشوقة فى حد ذاتها ، وكثيراً ما تتطلب الأحداث فواصل زمنية تفصل بينها ، ولكى يحقق المؤلف لروايته التوازن يضطر إلى ملء الفراغات الزمنية عادة ويطلق على هذه الثغرات لفظة « قناطر » . وقد حاول بعض المؤلفين تجنبها وأخذوا ينتقلون من رقعة أرجوانية للأحداث إلى رقعة أرجوانية أخرى . ولكن لا أذكر أن هذه الطريقة صادفت أى نجاح ، ومعظم الروائيين يستسلمون لعبور مثل هذه القناطر، وهم يعبرونها بمهارة تكثر أو تقل ، ولكن من المحتمل جداً أن يبعثوا على الملل أثناء هذه العملية .

إن المؤلف كائن بشرى له نزواته وأخيلته ، ولقد كان من نتيجة عدم تماسك شكل الرواية ، وبخاصة فى إنجلترا وروسيا، أن استغل الكاتب الفرصة ليستطرد فى أى موضوع حبيب إلى قلبه . ويندر أن يكون لديه من رجاحة العقل أو الذوق الناقد ما ينبهه إلى أن ذلك الإطناب مهما يكن ممتعاً بالنسبة له فليس له فى القصة ضرورة ما دام لايخدم الموضوع .

وإلى جانب هذا لا يملك الروائى إلاأن يتأثر بموضة عصره نظراً لحساسيته الخارقة ، وغالباً ما يقوده ذلك إلى الكتابة فيما يفقد سحره بزوال هذه الموضة . دعونى أضرب مثالا لذلك : كان الروائيون قبل القرن التاسع عشر لا يهتمون كثيراً بالمناظر مكتفين بكلمة أو كلمتين للتعبير عما يريدون قوله ، ولكن عندما أخذت المدرسة الرومانسية بلب الجمهور ظهرت مودة كتابة الوصف لذاته فلا يمكن أن ينزل الرجل إلى الشارع لشراء فرشة أسنان من صيدلية دون أن يصف لك المؤلف المنازل التى مر بها والسلع المعروضة للبيع فى المحال . فالفجر والشمس الغاربة والليل المتلألىء بالنجوم ، والسماء الصافية والقمر فى شروقه ومغيبه ، والبحر الذى لايقر له قرار والجبال التى توج الثلج قممها ، والغابات المظلمة ، كل هذا يتيح له الفرصة لأوصاف لانهاية لها . وكثير من هذه الأوصاف يكون جميلا فى حد ذاته ولكنها غير متعلقة بالموضوع . وقد مضى وقت طويل قبل أن يكتشف الكتاب أن وصف المناظر مهما تكن الشاعرية فى ملاحظتها والبراعة فى التعبير عنها ضرب من العبث مالم تكن ضرورية . أى : ما لم تساعد المؤلف على المضى فى قصته ، أو إفادة القارىء بشىء يجب أن يعرفه عن الأشخاص الذين يلعبون دوراً فى الرواية . وهذا العيب عرضى ، لكن هنالك عيباً آخر يبدو أنه كامن فى طبيعة الرواية . فنظراً لأن الرواية تشغل حيزاً كبيراً ، فإن كتابتها تستغرق أسابيع على الأقل وربما شهوراً وأحياناً سنوات . ومن المستحيل أن يظل المؤلف مدفوعاً بشعلة « الإلهام » مدة طويلة جداً . وأنا لا أحب أن أستخدم هذه الكلمة إذ أنها تنطوى على شىء من الادعاء عندما تستخدم فى مجال النثر ، وأفضل تركها للشعراء . فالشاعر يمارس فناً أرقى من الروائى ، وإن كان يعوض الروائى أن القصيدة معرضة للإهمال ما لم تكن ممتازة جداً ، أما الرواية فقد يشوبها عيوب كثيرة وتظل مع ذلك جديرة بالقراءة . ومع هذا فالروائى يكتب تحت تأثير ، إن لم يكن الإلهام ، فهو شىء ينبغى أن أطلق عليه اللاشعور ، لعجزى عن إيجاد كلمة أفضل . ونظراً لأنه اصطلاح غامض غير محدد المعنى تماماً فإنه يعبر بمهارة عن ذلك الشعور الذى يحسه المؤلف : فهو فى أوج نشاطه لا يعدو أن يكون وسيلة ، فهو يكتفى بأن يجرى القلم على الورق يكتب فعلا ما يملى عليه . إنه يكتب أشياء لم يكن يدرى أنه يعرفها ، وأفكاراً سعيدة ترد إليه من

حيث لايدرى ، وتزوره خواطر غير متوقعة مثل ضيوف فى حفلة مفاجآت . ولا أظن أن هذا ينطوى على غموض كبير . فهذه الخواطر غير المتوقعة هى بدون شك ثمرة تجارب مر عليها زمن طويل . بينما تنبع الأفكار السعيدة من تداعى المعانى ، أما الأشياء التى ظن أنه لايعرفها من قبل فكانت مختزنة فى قاع الذاكرة . ويدفع اللاشعور بكل هذا إلى السطح فيتدفق بحرية من القلم إلى الورق . لكن اللاشعور عنيد ومتذبذب ، ولا يمكن إجباره . والإرادة لاتستطيع أن تستحثه على العمل ، إنه كالرياح التى تهب حيثما يحلو لها ، الأمطار التى لاتفرق بين العادل والظالم .ولدى الكاتب المدرب طرق متنوعة يغرى بها اللاشعور حتى يخف لنجدته — ولكن اللاشعور يظل أحيانا على عناده . وكثيراً ما يحدث هذا عندما يترك الكاتب يواجه وحده عملا يستغرق وقتاً طويلا بالضرورة . ولا يسع الكاتب إلا أن يلجأ إلى المثابرة والدأب معتمداً على كفاءته . فإذا استطاع بهذه الوسائل الاحتفاظ باهتمام القارئ حقق المعجزة .

وعندما أفكر فى عدد العقبات التى يصادفها الروائى وعدد المطبات التى عليه أن يتجنبها لا أدهش حين أجد أن أعظم الروايات تفتقر إلى الكمال وإنما أدهش لأنها خالية من مزيد من العيوب . ومن أجل هذا يستحيل اختيار روايات على أساس أنها الأفضل . وأستطيع أن أعد قائمة بعشر روايات أخرى ذات ملامح مختلفة تؤهلها لأن تضارع العشر الأولى : أنا كارنينا ، الجريمة والعقاب ، بيتى ابنة العم ، دير بارم ، إغراء ، ترسترام شاندى ، معرض الغرور ، جيل بلاز ، السفراء ، ميدلمارش . وأستطيع أن أعرض أسباباً وجيهة لهذا الاختيار وأسباباً وجيهة أيضاً لاختيارى للروايات التى ذكرتها الآن . وهكذا كان اختيارى جزافياً .

ويبدو أن القراء أرادوا فى الماضى أن تكون الروايات طويلة جداً ، وكثيراً ما كان المؤلف يجهد نفسه ليقدم للمطبعة أكثر مما تتطلبه الرواية التى يريد أن يسردها ، وقد هداه تفكيره إلى طريقة سهلة لتحقيق هذا الغرض ، فكان أن أدمج فى روايته قصصاً قد تبلغ من الطول ما يجعلنا نسميها روايات قصيرة novelettes ولم يكن لها أدنى صلة بالموضوع الأصلى ، وفى أحسن الأحوال تلصق بالموضوع دون مبرر كبير .

ولا يوجد كاتب استطاع أن يفعل ذلك فى جرأة تضارع ما فعله سرفانتيس فى « دون كيشوت »، وقد اعتبر هذا الحشو دائماً نقطة سوداء فى هذا العمل الخالد ، ولايمكن قراءة الرواية الآن إلا بصبر نافد . ومن أجل هذا هاجم النقد المعاصر سرفانتيس . وقد حاول هو فى الجزء الثانى من كتابه تجنب هذه العادة الذميمة ، فقدم ما يمكن أن نعده من المستحيلات ، ملحقاً أفضل من الجزء الأصلى . ولكن هذا لم يمنع الكتاب من بعده — الذين لم يقرأوا النقد بلاشك — من استخدام هذه الطريقة المريحة حتى يتسنى لهم أن يقدموا لباعة الكتب كمية من الصفحات تكفى لاعداد مجلد يمكن بيعه . وفى القرن التاسع عشر استحدثت طرق جديدة فى النشر عرضت الروائيين لإغراء جديد . فالمجلات الشهرية التى تخصص كثيراً من صفحاتها لما يعرف تجاوزاً بالأدب الخفيف لاقت نجاحاً عظيما، وبهذا أتاحت الفرصة للروائيين لتقديم أعمالهم للجمهور فى شكل حلقات مسلسلة تعود عليهم بالربح . وفى نفس الوقت وجد الناشرون أن من الأفيد لهم نشر روايات الكتاب الرائجين فى أعداد شهرية . وفى الحالتين يتعاقد المؤلفون على تقديم كمية معينة من المادة القصصية لملء عدد معين من الصفحات . وقد شجعتهم هذه الطريقة على السخاء والتشعب فى الكتابة . وفى فرنسا ، حيث كان الحساب بالسطر ، لم يتردد الكتاب فى كتابة أكثر ما يمكن من سطور . فقد كانوا يعملون وعليهم أن يكسبوا عيشهم ، وحتى مع ذلك لم يكسبوا الكثير . وذات مرة عندما سافر بلزاك إلى إيطاليا وبهرته (ومن الذى لاتبهره ؟) اللوحات التى رآها ، قطع تسلسل الرواية التى كان يكتبها حينئذ ليقحم كلاماً لايعدو أن يكون مقالا عن هذه اللوحات . ونحن نعرف من اعتراف كتاب السلاسل أنفسهم، بل وأفضلهم من أمثال ديكنز ، وثاكرى ، وترولوب كيف أنهم كانوا يحسون بعبء ثقيل وهم يضطرون إلى تقديم حلقة معينـــة فى موعد محدد . فلاعجب أن لجأوا إلى عمليات الترقيع ، ولاعجب أن حملوا قصصهم أحداثاً غير مناسبة . وذات مرة أبلغ رجال المطبعة ديكنز أن سلسلته الشهرية تنقص صفحتين أى ستة عشرة صفحة بخط يده ، ولهذا اضطر إلى الجلوس إلى أوراقه ونسخ هذه الصفحات بكل ما استطاع من جهد . كان خبيراً فى هذا النوع من الكتابة ، ومن الواضح جداً أنه لو كان ما وضعه فى هذه الصفحات

الست عشرة ضرورياً فى صميم هذا الجزء من قصته لكان قد كتبه منذ البداية .

ولكن ليس هناك ما يدعو القارئ إلى احتمال عيوب الرواية سواء كانت هذه العيوب كامنة فى الشكل أو راجعة إلى ضعف الروائى ، وسواء راجعة إلى مودة العصر أو طريقة النشر . والرجل العاقل لايقرأ الرواية كعبءٍ يجب أن يؤديه ، إنه يريد أن ينسى نفسه . وهو على استعداد لتوجيه اهتمامه إلى الشخصيات وكيف تتصرف فى مواقف معينة وما الذى يحدث لها. وهو يتعاطف مع مشكلاتهم ويفرح لفرحهم ، وهو يضع نفسه مكانهم ، بل ويعيش حياتهم إلى حد ما . إن آراءهم فى الحياة وموقفهم من موضوعات التفكير الإنسانى الكبرى — سواء عبر عنها الروائى بالكلمات أو الحركة — كل ذلك له رد فعل فى نفس القارئ، قد يكون دهشة أو غبطة أو حنقاً ، غير أنه يعرف بالغريزة أين يجد بغيته فيمضى إليها مثلما يتبع كلب الصيد رائحة ثعلب ، ولكنه أحياناً يفقد بسبب هذه الرائحة فضل الكاتب ، فيأخذ فى التخبط حتى يعثر عليها ثانية ، إنه يتخطى بعض الصفحات .

كل إنسان يتخطى الصفحات ، لكن ليس من السهل تحقيق هذا دون خسائر . وكل ما أعرفه أن التخطى قد يكون هبة من الطبيعة أو شيئاً يجب اكتسابه بالخبرة . وقد كان دكتور جونسون يتخطى الصفحات بعنف . ويحكى لنا بوزويل كيف كان من السهل على جونسون أن يلتقط فوراً ما هو قيم فى أى كتاب دون الحاجة إلى بذل الجهد فى متابعته من بدايته إلى نهايته . ولكن لاشك أن بوزويل كان يشير إلى كتب المعلومات . أما إذا كانت قراءة الرواية عبئاً فمن الأفضل عدم قراءتها على الإطلاق . لكن بالنظر إلى العيب الجوهرى فى شكل الرواية لسوء أو لضعف المؤلف أو طرق النشر فإنه لايوجد لسوء الحظ سوى روايات قلائل يمكن أن تقرأ من البداية إلى النهاية بمتعة لاتخمد أبداً . وقد يكون تخطى الصفحات عادة سيئة ، غير أن القارئ يضطر إليه اضطراراً . ولكن ما إن يبدأ القارئ فى التخطى حتى يصعب إيقافه وبذا قد يفقد الكثير مما يكون فى قراءته فائدة له .

ويبـــدو أن القراء فيما مضى كانوا أكثر صبراً من قراء اليوم . كانت وسائل التسلية محدودة . وكان لديهم الوقت الكافى لقراءة روايات تبلغ من

الطول ما نعده اليوم شاذا . ومن الجائز أنهم لم يكونوا يضيقون بما يقطع مجرى الحكاية من استطراد وحشو . لكن بعض الروايات التى تعانى من هذه العيوب تعد من بين أعظم الروايات التى كتبت على الإطلاق . ولهذا فمن المؤسف أن يقل قراؤها شيئاً فشيئاً . ومن أجل حث القراء على قراءة هذه الروايات أعددنا هذه السلسلة وقصدت فى هذه المحاولة إلى أن أحذف من هذه الروايات العشر كل ما يخرج عن القصة التى أراد المؤلف أن يحكيها والتى تعرض لأفكاره الملائمة كما تعرض بصورة مناسبة الشخصيات التى أبدعها . وسيصيح بعض دارسى الأدب وبعض الأساتذة والنقاد أن تشويه إحدى الروائع أمر بشع وأنها يجب أن تقرأ كما كتبها المؤلف . ولكن هل يفعلون ذلك حقاً ؟ أعتقد أنهم يتخطون ما لا يستحق القراءة ويبدو أنهم دربوا أنفسهم على تخطى الصفحات لصالحهم . لكن معظم الناس لايملكون هذه القدرة . لذا فمن الأفضل بالتأكيد أن يتولى هذه المهمة عنهم أحد المتذوقين القادرين على التمييز بين الغث والسمين . وإذا أتقن هذا العمل استطاع بذلك أن يقدم للقارئ رواية يستطيع أن يستمتع بقراءة كل كلمة فيها .

ولقد قال كوليردج عن دون كيشوت إنه كتاب يقرأ قراءة كاملة مرة واحدة . أما فى المرة الثانية فيمر القارئ على بعض صفحاته فقط . ولعله يعنى بذلك أن بعض أجزائه مملة ، بل وتافهة ، بحيث يمكن القول بأنها مضيعة للوقت لو قرأت هذه الأجزاء مرة أخرى . إنه كتاب عظيم وهام ويجب على طالب الأدب المتخصص دون شك قراءته قراءة كاملة (وقد قرأته أنا نفسى ثلاث مرات من الغلاف للغلاف) لكنى لا أظن أن القارئ العادى ، القارئ الذى يقرأ للمتعة ، يفقد شيئاً إذا هو لم يقرأ الأجزاء الهزيلة من هذا الكتاب . من المؤكد أنه سيستمتع أكثر بأجزاء الرواية التى يدور فيها السرد مباشرة حول المغامرات والحوار بما فيها من متعة وقوة تأثير والتى تدور حول الفارس الرقيق وتابعه الواقعى . وهناك رواية أخرى هامة بلا شك ولكننا نتردد فى القول بأنها عظيمة وهى رواية « كلاريسا » لصمويل ريتشاردسن التى بلغت من الطول حداً يعجز عنه قراء الروايات اللهم إلا أكثرهم إصراراً . ولا أعتقد أنى كنت سأعد نفسى لقراءتها أبداً لولا أنى صادفت نسخة ملخصة منها . وكان التلخيص من البراعة بحيث لم أشعر بأننى فقدت شيئاً .

لاغضاضة فى الحذف . ولا أظن أن هناك مسرحية أخرجت ولم يحذف منها قليل أو كثير أثناء البروفات ، وكان ذلك فى صالحها . ولا أعرف سبباً يوجب عدم خضوع الرواية لنفس العملية والواقع أننا نعرف أن معظم الناشرين لديهم محررون يتلخص عملهم فى القيام بهذه العملية بالذات . وفى معظم الأحوال يكون ذلك فى صالح الكتاب الذى يتناولونه . وإذا أقبل القراء على قراءة الروايات العظيمة فى هذه السلسلة ، ولم يكونوا ليفعلوا ذلك إلا بعد حذف ما يمكن وصفه بسقط المتاع ، فقد أثمرت جهود الناشرين والمحررين . ذلك أن القراء لن يفقدوا شيئاً ذا قيمة . ولما كانت هذه المجلدات * لاتحوى إلا كل ما هو ذا قيمة فسيجدون فيها متعة فكرية كاملة .

* يقصد الروايات العشر – المشار إليها آنفاً – التى تم تلخيصها (المترجمان)

ليو تولستوى
و
الحرب والسلام

أعتقد أن بلزاك هو أعظم روائى عرفه العالم على الإطلاق ، ولكنى أعتقد أن رواية « الحرب والسلام » لتولستوى هى أعظم رواية . فلم يسبق أن كتبت (وأغلب الظن أن هذا لن يتكرر) رواية تضارعها فى الضخامة ، وتعالج مثل هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ ، وتتناول هذه المجموعة الكبيرة من الشخصيات . ولقد قيل عنها بحق إنها ملحمة . ولا أستطيع أن أجد عملا روائيا آخر يمكن أن نصفه هكذا ونكون محقين فى وصفنا .

وقد عبر ستراخوف ، صديق تولستوى والناقد القدير ، عن رأيه فى عبارات قليلة وقوية ، إذ قال : « إنها صورة كاملة للحياة الإنسانية ، صورة كاملة لروسيا فى ذاك اليوم وصورة كاملة لما يمكن أن يسمى تاريخ الشعوب ونضالها . صورة كاملة لكل شىء يجد فيه الناس سعادتهم ومجدهم ، حزنهم وهوانهم ، تلكم هى روايه « الحرب والسلام » .

كان تولستوى فى السادسة والثلاثين عندما شرع فى كتابتها ، وهو سن تبلغ فيه موهبة الإبداع عند الكاتب ذروتها بوجه عام . ولم ينته منها إلا بعد ست سنوات. واختار لها حروب نابليون كفترة زمنية ، أما قمة الرواية فهى غزو نابليون لروسيا ، وحرق موسكو وانسحاب جيوشه وهلاكها . وعندما شرع تولستوى فى كتابة روايته لم يكن يفكر إلا فى حكاية تدور عن حياة أسرة من الصفوة ، على أن يجعل من الأحداث التاريخية مجرد إطار لهذه الحكاية . وكان ينوى تعريض أشخاص القصة لعدد من التجارب التى ستؤثر فيهم تأثيراً روحياً عميقاً ، ولكنهم فى النهاية ، وبعد عذاب كبير ، يتطهرون وينعمون بحياة هادئة هانئة . ولم يركز تولستوى اهتماماً متزايداً على الصراع الجبار بين القوى المتعارضة إلا أثناء كتابته للرواية بالفعل ، واستطاع

من خلال قراءاته الواسعة ، أن يستخلص لنفسه فلسفة للتاريخ ، سأتعرض لها ، بإيجاز فيما بعد .

ويقال إن فى الرواية ما يقرب من خمسمائة شخصية . ولكل شخصية طابعها الذى يميزها بشدة عن غيرها من الشخصيات ، كما أنها معروضة على القارئ بوضوح . وهذا فى حد ذاته ، انتصار كبير ، واهتمام الكاتب لا يتركز هنا على شخصيتين أو ثلاث أو حتى مجموعة واحدة من الشخصيات كما هو الحال فى معظم الروايات ، وإنما على أفراد أربع عائلات ، تنتمى إلى الطبقة الأرستقراطية ، وهى عائلات رستوف ، وبولكونسكى ، كوراجين ، وبيزوخوف . ومن بين العقبات التى تقتضى من الكاتب اجتيازها عندما يتطلب منه موضوعه معالجة أكثر من مجموعة من الشخصيات هى أن يجعل الانتقال من مجموعة إلى أخرى مقبولا بحيث يتلقاه القارئ فى يسر . فهو يكتشف ساعتها أنه عرف ما كان فى حاجة إلى معرفته عن مجموعة من الأشخاص ، ولذلك فهو على استعداد لمعرفة ما جرى للآخرين الذين لم يسمع عنهم شيئاً لفترة من الزمن ، ولقد بلغ من مهارة تولستوى فى تحقيق هذا بوجه عام ما يجعلك تظن أنك تتبع خيطاً واحداً فى الحكاية .

وكغيره من كتاب القصص بوجه عام استوحى تولستوى شخصياته من أشخاص عرفهم أو سمع بهم ، غير أنه اعتبرهم — بالطبع — مجرد نماذج فقط ، وما إن آذابهم فى خياله حتى صاروا مخلوقات من صنعه هو . ويقال إنه استوحى الكونت المتلاف من جده ، وشخصية نيقولا روستوف من والده ، وشخصية الأميرة مارى ، الفاتنة المثيرة للشفقة ، من والدته . ويقال ، بوجه عام إن تولستوى فى تصويره للرجلين اللذين قد نعتبرهما بطلى « الحرب والسلام » بيير بيزوخوف ، والأمير آندرو ، إنما كان يفكر فى نفسه ، وقد لا يكون من قبيل الإغراق فى الخيال أن نقول إن تولستوى — وقد أدرك انقسام شخصيته — سعى إلى توضيح شخصيته وفهمها عن طريق فردين متضادين ينبعان من أنموذج واحد . والشىء الذى يتشابه فيه بيير والأمير آندرو هو أنهما ينشدان ، مثلما ينشد تولستوى نفسه ، الطمأنينة الذهنية ، وكلاهما ينشدان حلا لألغاز الحياة والموت ، وكلاهما لا يعثران على هذا الحل غير أنهما — فيما عدا ذلك — يختلفان فيما بينهما . فالأمير آندرو

شخص شهم رومانتيكى وهو فخور بنسبه ومركزه ، وهو نبيل فى تفكيره ، إنه متكبر ، دكتاتور ، غير متسامح ، ومتهور . وهو مع كل نقائصه شخصية جذابة إلى حد بعيد . أما بيير فأدنى من ذلك بكثير . إنه عطوف ، حلو الشمائل ، متواضع ، مهذب ، مضح بنفسه ، غير أنه بلغ من الضعف ، والتردد والسذاجة وسرعة التعرض للخداع أنك لايسعك إلا أن تضيق به ذرعاً . إن رغبته فى أن يفعل الخير وأن يكون خيّراً ، لشىء يمس شغاف القلب ، ولكن أكان من الضرورى أن يكون أحمق بهذه الصورة ؟ وعندما أصبح ماسونيا ، أثناء سعيه وراء حل للألغاز التى تعذبه ، تورط تولستوى فى كتابة بضعة فصول مملة ، مملة جداً .

وكلا هذين الرجلين يحب ناتاشا ، صغرى بنات الكونت روستوف ، وقد استطاع تولستوى فى تصويره لها ، أن يخلق أمتع شخصية لفتاة فى أى عمل روائى . وليس هناك ما هو أصعب من تصوير فتاة جذابة ومثيرة للاهتمام فى نفس الوقت . فالفتيات الصغيرات فى القصص هن بوجه عام باهتات (أميليا فى رواية « سوق الغرور ») » دعيات مغرورات (فانى فى رواية « حديقة مانسفيلد ») . . ذكيات بدهاء جداً (كونستانشيا ديرهام فى رواية « الأنانى ») ، أو غبيات (دورا فى رواية « ديفيد كوبرفيلد ») وعابثات فى غباء أو ساذجات بصورة لايصدقها العقل . وليس من الغريب أن تشكل هذه الفتيات مادة صعبة للروائى ، ذلك لأن شخصياتهن ، فى هذه السن الغضة ، تكون غير ناضجة وذلك مثلما يعجز الرسام عن أن يجعل الوجه مثيراً إلا إذا كانت تقلبات الحياة ، والفكر والحب والعذاب قد أكسبت هذا الوجه شخصيته . وغاية ما يستطيع عمله وهو يرسم وجه فتاة هو أن يبرز سحر الشباب وجماله . ولكن ناتاشا طبيعية تماما . فهى حلوة ، حساسة ومتعاطفة ، عنيدة صبيانية ، مثالية بصورة أنثوية ، سريعة الغضب ، دافئة القلب ، متصلبة الرأى ، ذات نزوات ، وساحرة فى كل شىء . لقد أبدع تولستوى نساء كثيرات ، وهن طبيعيات بشكل رائع ، ولكنه لم يخلق سوى ناتاشا فتاة تستحوذ على لب القارئ .

وفى كتاب ضخم ، كما هو شأن « الحرب والسلام » استغرقت كتابته وقتا طويلا جداً ، لا مناص من أن يفقد المؤلف حرارته فى بعض الأحيان . وقد

أشرت منذ قليل إلى أن مغامرة بيير بالدخول فى الماسونية مملة كما يبدو لى أن تولستوى فقد اهتمامه بشخصياته – إلى حد ما – وهو يقترب من نهاية روايته . لقد صاغ فلسفة للتاريخ يمكن وضعها على النحو التالى : آمن تولستوى بأن الناس يخطئون حين يظنون أن العظماء هم الذين يؤثرون على مجرى التاريخ ، وإنما هناك قوة غامضة تشيع فى الناس وتقودهم – دون وعى منهم – إلى النصر أو الهزيمة . ولم يكن الإسكندر وقيصر ونابليون أكثر من قواد صوريين ، إنهم رموز ، تسيرهم باندفاع لايستطيعون مقاومته أو التحكم فيه . ولم يكسب نابليون معاركه باستراتيجيته أو بجيوشه الكبيرة ، إذ أن أوامره لم تكن تطاع ، إما لأن الموقف كان يتغير ، أو لأنها لاتصل فى الوقت المناسب ، لقد كسبها لأن العدو قد رسخ فى اعتقاده أنه خسر المعركة ، ومن ثم ترك ميدان القتال . ويرى تولستوى أن البطل فى الغزو الذى تعرضت له روسيا هو كوتزوف القائد العام لأنه لم يفعل شيئاً ، وتجنب المعركة واكتفى بأن انتظر حتى تقضى الجيوش الفرنسية على نفسها بنفسها . وقد يكون فى هذا كما هو الحال فى كل نظريات تولستوى ، قدر كبير من الصواب ممزوج بقدر كبير من الخطأ كما هو الحال مثلا فى كتابه « ما هو الفن ؟ What Is Art ? . ولكنى لا أملك من المعرفة ما يساعدنى على معالجة هذا الموضوع . ويخيل إلى أنه خصص كل هذا القدر من الفصول لسرد وقائع الانسحاب من موسكو لتصوير هذه الفكرة . وقد نعتبر هذا تاريخاً ممتازاً ولكنه ليس فنانا روائيا ممتازاً .

وإذا كانت قوى تولستوى قد وهنت فى هذا الجزء الأخير من روايته الضخمة فقد استطاع تعويض ذلك بسخاء فى الخاتمة . . إنه ابتكار مدهش فقد كان من عادة الروائيين السابقين أن يذكروا للقارئ ما حدث لشخصياتهم الرئيسية بعد أن تنتهى القصة الأصلية . فهم يخبرونه بأن البطل والبطلة عاشا فى « تبات ونبات وخلفا صبياناً وبنات » . بينما هوى الشرير ، إن لم يكن قد اختفى قبل النهاية ، إلى هوة الفقر وتزوج من أمرأة مشاكسة . وبهذا لقى جزاءه . لكن ذلك كان يحدث عرضاً ، وفى صفحة أو صفحتين ، ويترك القارئ وقد تولد لديه إحساس بأن المؤلف ألقى إليه فى شئ من الازدراء بما يسد حلقه ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن

جاء تولستوى ليجعل من خاتمة روايته شيئاً له أهميته الحقة . لقد مرت سبع سنوات وهانحن نجد أنفسنا فى منزل نيقولا روستوف ، ابن الكونت العجوز ، وقد تزوج بامرأة ثرية وأنجب منها أطفالا ، ونجد بييروناتاشا فى زيارة طويلة لهما لقد تزوجت ناتاشا وأنجبت أطفالا هى الأخرى . لكن آمالهما الكبيرة، وحماسهماوتعلقهما بالحياة قد تحول إلى تسليم قانع . إن كلامنهما يحب الآخر ، ولكن أوه لكم أصابهما الخمول وتحولا إلى شخصين عاديين ! فبعد الأخطار التى مرا بها ، والألم والقلق اللذين عانياه انتهيا إلى رضى شخصين فى أواسط العمر . وأصبحت ناتاشا ربة بيت صاخبة ، وهى التى كانت فى يوم من الأيام حلوة ، متقلبة ، ممتعة . وأصبح نيقولا روستوف ، الذى كان يوما ما نبيلا مرحاً ، أصبح الآن إقطاعيا يتمسك برأيه وحده ، وأصبح بيير أكثر بدانة عن ذى قبل ، وهو وإن كان لايزال مهذب الطبع إلا أنه لم يزدد حكمة . إن النهاية السعيدة فى هذه الرواية محزنة للغاية . وأعتقد أن تولستوى لم يكتبها بهذه الطريقة بدافع من إحساس بالمرارة ، وإنما لأنه عرف أن كل شئ سينتهى هكذا ، وكان عليه أن يذكر الحقيقة .

ولد تولستوى فى طبقة قلما أنجبت كتاباً مرموقين . وهو ابن للكونت نيقولا تولستوى والأميرة الوارثة ماريا فولكونسكى . وقد ولد فى منزل أجداد والدته ، يسنايا بوليانا . وكان رابع الأبناء الخمسة . ومات أبواه ولما يزل طفلا . وتعلم بادئ الأمر على أيدى مدرسين خصوصيين ، ثم فى جامعة قازان ثم فى جامعة سان بطرسبرج. وكان تلميذاً ضعيفاً فلم يحصل على أية شهادة من الجامعتين . وساعده أصله الأرستقراطى على دخول المجتمع ، وفى قازان ثم سان بطرسبرج وموسكو كان يغشى حلبات الرقص ويتردد على السهرات والحفلات وانخرط فى سلك الجيش فى القوقاز وفى حرب القرم .

وكان فى ذلك الحين سكيراً ، مدمناً ، ومقامراً متهوراً ، حتى إنه اضطر ذات مرة ، كى يدفع ما خسره فى القمار ، أن يبيع منزله فى مقاطعة يسنايابوليانا الذى كان جزءاً من ميراثه . وكان رجلا ذا غرائز جنسية قوية ، وقد أصيب أثناء وجوده بالقوقاز بمرض الزهرى . وقد جاء بيومياته أنه بعد أن قضى ليلة فسق ، ليلة مع النساء أو الورق أو فى حفلة شراب مع الغجر — إذ كانت هذه هى

الوسيلة الروسية المعتادة كما يبدو من رواياتهم ، وهى وسيلة ساذجة نسبياً لقتل الوقت – بعد هذه الليلة كان يعانى وخزات من الندم ، ومع ذلك لم يفته أبداً أن يكرر هذه العملية كلما سنحت الفرصة . ولقد بلغت به القوة أنه كان يستطيع السير ليوم كامل ، أو قضاء عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة لايبارح سرجه ولاينال منه التعب ، ومع ذلك كان ضئيلا لايلفت النظر . ولقد كتب يقول : « مرت بى لحظات اجتاحنى فيها اليأس . تصورت أنه لايمكن أن ينعم بالسعادة على وجه الأرض شخص له مثل هذا الأنف المفلطح . وهاتان الشفتان الغليظتان ، وهاتان العينان الرماديتان الضيقتان اللتان أملكهما ، ولقد سألت الله أن يقوم بمعجزة ، فيجعلنى وسيما . وكنت على استعداد لأن أتخلى عن كل ما أملكه وقتئذ وكل ما قد أملكه فى المستقبل مقابل وجه وسيم » . ولم يكن يعرف أن وجهه العادى يكشف عن قوةروحية ذات جاذبية رائعة . ولم يكن بمقدوره رؤية نظرات عينيه ، تلك النظرات التى كانت تضفى السحر على تعبيره . وكان يرتدى فى تلك الفترة ملابس أنيقة (آملا ، مثلما كان يأمل ستندال المسكين ، أن تعوضه الثياب العصرية عن قبح منظره) وتزايد اعتداده بمركزه بصورة غير لائقة . وقد كتب زميل له من زملاء الدراسة فى قازان : « ظللت أتجنب مقابلة الكونت ، الذى يضايق المرء منذ أول مقابلة لتكلفه البرود ، ولشعره المنفوش ، ونظراته النافذة التى تطل من عينيه نصف المغمضتين . ولم ألتق فى حياتى بشاب لديه مثل هذا الإحساس – الغريب الذى يحيرنى – بالأهمية والرضى عن النفس. . . لم يكن يكلف نفسه تقريباً عناء الرد على تحيتى ، وكأنما يود أن يفهمنى بأننا أبعد من أن نكون أندادا » . ويبدو أنه عندما التحق بالجيش كان يحتقر إلى حد ما إخوته الضباط . فقد كتب يقول : « صدمتنى منذ البداية أشياء كثيرة فى هذا المجتمع ، ولكنى عودت نفسى على هذه الأشياء . ولكن مع عدم الاندماج مع هؤلاء السادة . لقد عثرت على الوسط العدل الذى لايجنح إلى الكبرياء أو الألفة » .

وأثناء مقامه بالقوقاز ثم فى سباستبول كتب عدداً من المحاولات الأدبية والقصص كما تحدث عن طفولته وشبابه المبكر بطريقة رومانسية ، ونشرت هذه الكتابات فى إحدى المجلات وأثارت الإعجاب ، حتى إنه استقبل بحرارة عندما عاد إلى سان بطرسبرج

بعد الحرب . لكنه لم يشعر بميل إلى الناس الذين التقى بهم هناك ولم يشعروا هم بدورهم بأى ميل نحوه . وبالرغم من اعتقاده الجازم بأنه شخص مخلص ، إلا أنه لم يستطع أبداً أن يقنع نفسه بأن الآخرين مخلصون أيضاً ، ولم يكن ليتردد فى أن يصارحهم بذلك ، ولم يكن له صبر على الآراء المتفق عليها . وكان سريع الغضب ، وكان يعترض بوحشية على مشاعر الآخرين ولايكترث بها بدافع من الكبرياء . وقد قال ترجنيف إنه لم يقابل فى حياته أبداً ما هو أكثر إرباكاً من نظرة تولستوى الفضولية المتسائلة التى تصاحبها بضع كلمات لاذعة تدفع بالمرء إلى الجنون . ولم يكن يتقبل النقد بصدر رحب ، وقد تصادف وقرأ خطاباً فيه تعريض بشخصه فأرسل على الفور إلى كاتب الخطاب يتحداه أن يبارزه ، ووجد أصدقاؤه صعوبة فى منعه من الاشتراك فى مبارزة تثير السخرية .

وفى ذلك الحين اجتاحت روسيا موجة من التحرر . وكان تحرير العبيد هو موضوع الساعة الملح ، وعاد تولستوى إلى يسنايا بوليانا بعد أن قضى بضعةأشهر عابثا فى العاصمة ، وعرض على الفلاحين فى ضيعته خطة تهدف إلى تحريرهم ، ولكنهم خشوا أن يكون فى الأمر مكيدة لهم فرفضوا . وافتتح مدرسة لتعليم أولادهم . وأحدثت وسائله انقلابا . كان للتلاميذ الحق فى عدم الذهاب إلى المدرسة وحتى إذا كانوا فى المدرسة فإن لهم الحق فى ألا ينصتوا إلى مدرسهم . لم يكن هناك نظام على الإطلاق ولم يحدث أن عوقب طالب . وكان تولستوى يعلمهم ويمضى اليوم كله معهم ، وفى المساء يشترك فى ألعابهم ، ويحكى لهم القصص ، وينشد معهم الأغانى حتى فترة متأخرة من الليل .

وفى هذه الفترة تقريباً كانت له علاقة مع زوجة أحد عبيده ، وأسفرت هذه العلاقة عن ابن . ومرت السنون وعمل هذا الابن غير الشرعى ، ويدعى تيمرنى ، سائقاً لعربة أحد أبناء تولستوى الصغار . ووجد مؤرخو السيرة أن من الطريف أن والد تولستوى كان بدوره أبا لابن غير شرعى يعمل أيضاً سائقاً لعربة أحد أفراد العائلة . وأنا أرى أن ذلك يدل على وجود شئ من البلادة الأخلاقية . فقد كنت أتوقع أن تولستوى بضميره الذى يعذبه ، وبرغبته الملحة فى النهوض بالعبيد من حالهم المهين ، وتربيتهم وتعليمهم النظافة والذوق واحترام النفس ، أنه سيقدم خدمه — على الأقل — لابنه ! ولقد كان لترجنيف ابنة غير شرعية ولكنه أحاطها

بعنايته واستحضر لها مربية لتعليمها وكان حريصاً للغاية على إسعادها . ألم يشعر تولستوى بأدنى حرج وهو يرى ابنه الطبيعى ، يقود عربة ابنه الشرعى ؟ .

ومن بين غرائب طبيعة تولستوى أنه قد يبدأ فى مشروع جديد بكل مافى العالم من حماس ولكنه بعد ذلك يضيق به تماما إن عاجلا أو آجلا . كان ينقصه إلى حد ما فضيلة المثابرة الإيجابية . وهكذا فإنه بعد أن ظل يدير مدرسته أوصد أبوابها عندما وجد أن ثمرة نشاطه مخيبه للآمال . وكان مرهقاً غير راض عن نفسه ، معتل الصحة. وقد كتب فيما بعد أنه كان على وشك اليأس فى ذاك الحين لولا وجود جانب من حياته لم يستكشف بعد ، جانب يبشر بالخير . وكان هذا الجانب هو الزواج .

وقرر أن يخوض التجربة . وكان فى الرابعة والثلاثين من عمره . . وتزوج بسونيا وهى فتاة فى الثامنة عشرة ،وهى البنت الثانية لطبيب يدعى بيهرز ، كان طبيباً عصريا فى موسكو كما كان صديقاً قديما لعائلة تولستوى . واستقر الزوجان فى ياسنايا بوليانا . وأنجبت الكرنتيسة خلال الإحدى عشرة سنة الأولى من زواجهما ثمانية أولاد ، كما أنجبت خمسة آخرين خلال الخمس عشرة سنة التالية . وكان تولستوى يحب الخيل ويجيد ركوبها ، وكان جد شغوف بالصيد . وقد عمل على إصلاح ضيعته واشترى أراضى جديدة شرقى نهر الفولجا ، حتى إنه بات يمتلك حوالى ستة عشر ألف فدان من الأرض . وكانت حياته تجرى على نمط مألوف . كان هناك فى روسيا عشرات من النبلاء الذين يقامرون ويسكرون ويتصلون بفتيات فى شبابهم ، والذين يتزوجون وينجبون قطيعاً من الأطفال والذين يستقرون فى مقاطعاتهم ، ويشرفون على أملاكهم ، ويمتطون الجياد ويصيدون . كما كان هناك عدد غير قليل يشارك تولستوى مبادئه المتحررة ، ويتألم لجهل الفلاحين ، وفقرهم المدقع والبؤس الذى يعيشون فيه ويسعون إلى تحسين مصيرهم ، والشئ الوحيد الذى ميز تولستوى عنهم جميعاً هو أنه كتب فى هذه الفترة روايتين من أعظم الروايات التى ظهرت فى العالم هما « الحرب والسلام » و « أنا كارنينا » . أما كيف حدث هذا ، فهو لغز يتعذر تفسيره مثلما يتعذر تفسير كيف ألف ابن أحد ملاك سسيكس الخاملين وورثيه قصيدة « أغنية للريح الغربية » Ode to the West Wind .

ويبدو أن سونيا تولستوى كانت جذابة فى شبابها . فقد كانت رشيقة القوام

جميلة العينين ، أما أنفها فكتنز بعض الشئ ، وكان شعرها أسود لامعاً . وكانت تفيض حيوية ومرحاً ، وكان صوتها عذب الرنين . وظل تولستوى ، لفترة طويلة ، يحتفظ بمفكرة يسجل فيها ، لا آماله وأفكاره ، وصلواته وتأنيب نفسه فحسب ، وإنما كان يسجل فيها أيضاً خطاياه الجنسية وغير الجنسية . وأثناء فترة الخطبة ، ورغبة منه فى ألا يخفى شيئاً عن زوجته المستقبلة أعطاها يومياته لتقرأها . وكان أن صدمت صدمة بالغة ، ولكنها بعد أن قضت ليلة مؤرقة ذرفت فيها الدمع أعادت إليه المفكرة وصفحت عنه . لقد صفحت عنه ، ولكنها لم تنس . وكان الاثنان عاطفيين بصوره حادة ، وكانا يتمتعان بما يعرف بزخارة الشخصية . ومعنى هذا بوجه عام أن الشخص من هذا الطراز له بعض الصفات غير الحديدة . وكانت الكونتيسه امرأة قاسية ، محبة للامتلاك وغيورة ، وكان تولستوى خشنا غير متسامح . وكان يصر على أن ترضع أطفالها بنفسها ، ولقد قبلت هذا عن طيب خاطر ، ولكن حدث عند ميلاد أحد أطفالها أن نضب ثدياها مما اضطرها إلى أن تعهد بالطفل إلى مرضعة ، وإذا بتولستوى يثور عليها دون وجه حق . وكانا يتشاجران من حين لآخر ثم يتصافيان . وكان كل منهما يحب الآخر حبا جما . لقد كان زواجهما سعيداً بوجه عام . واشتغل تولستوى بجد ، وراح يثابر فى الكتابة . وكثيراً ما كان يصعب قراءة خطه ، لكن الكونتيسة التى كانت تقوم بنسخ أصول كتاباته كلما أعد جزءاً منها صارت ماهرة جداً فى فك رموزه ، بل لقد صارت قادرة على تخمين معنى ملاحظاته التى يدونها بسرعة وجمله غير المكتملة . ويقال إنها نسخت رواية الحرب والسلام سبع مرات .

وفيما يلى ما كتبه البروفسير سيمونز فى وصف يوم من أيام تولستوى : « التأم شمل العائلة أمام مائدة الإفطار ، وأضفت نكات رب البيت وقفشاته على الحديث بهجة وحيوية . وفى النهاية ينهض مردداً : والآن حان وقت العمل ، ويختفى فى حجرة مكتبه حاملا فى العادة كوبا من الشاى الثقيل . ولم يكن هناك من يجرؤ على إزعاجه . وعندما يغادر مكتبه بعد الظهر بقليل فإنما ليتريض ، ومعنى ذلك عادة السير على الأقدام ، أوركوب الخيل . ويعود فى الساعة الخامسة للغداء ويأكل بشراهة . وعندما يشبع جوعه يسلى كل الحاضرين بحديثه الحى عن أى

تجربة صادفها خلال نزهته . وبعد الغداء يعود إلى مكتبه ليقرأ وفى الثامنة ينضم إلى العائلة وبمن قد يكون هناك من الزوار بحجرة الجلوس ليتناول الشاى وكثيراً ما تكون هناك موسيقى أو قراءة بصوت عال أو العاب للأطفال[١] .

كانت حياة مليئة بالعمل ، مجدية وهانئة ، لم يكن هناك من سبب يحول دون أن تسير على هذا النهج الهنئ لعدة سنوات قادمة ، سونيا تنجب الأطفال وترعاهم وتشرف على المنزل ، وتساعد زوجها فى عمله ، وتولستوى يركب الخيل ويصيد ويشرف على ضياعه ويؤلف الكتب . وكان يقترب من عامه الخمسين . وهى فترة خطيرة للرجال . ذلك أن الشباب يكون قد ولى ، ويتطلع الشيوخ إلى الوراء ويحتمل أن يتساءلوا : مالذى حققوه فى حياتهم ؟ ويتطلعون إلى الأمام ، ويلوح لهم خريف العمر ، وساعتها قد يقشعرون من المستقبل . وقد كان هناك شبح يطارد تولستوى طوال حياته — ذلك هو الخوف من الموت . والموت مصير الناس كافة ، ومعظمهم لديه من رجاحة العقل ما يمنعه من التفكير فيه ، إلا فى لحظات الخطر أو المرض الشديد . غير أنه كان يرى فى الموت مرضاً لا يبرحه ... وفيما يلى ما جاء بكتابه المسمى الاعتراف Confession حيث يصف حالته الذهنية فى ذلك الحين : « منذ خمس سنوات بدأ ينتابنى شئ غريب . فى بداية الأمر مرت بى لحظات من الحيرة والشلل ، وكأنى لا أعرف كيف أعيش أو ما الذى يمكن أن أفعله ، وشعرت بالضياع وأصبحت مكتئبا . غير أن هذه الغمة انكشفت ، وسارت الحياة بى سيرها الأول . لكن لحظات الحيرة هذه أخذت تكثر من زيارتى وبنفس الصورة دائما . وكانت تتمثل لى دائما فى هذه الأسئلة : ما جدوى هذه الحياة ؟ ماهى غايتها ؟ وشعرت أن ما كنت أقف عليه قد انهار ، وأنه لم يعد هناك ما أقف عليه . الأشياء التى كنت أعيش عليها لم تعد موجودة ، ولم يعد أمامى ما أعيش عليه وأصيبت حياتى بالشلل . كان فى مقدورى أن أتنفس وآكل وأشرب وأنام ، ولم يكن أمامى إلا أن أفعل ذلك ، ولكن لم تكن هناك حياة ، إذ لم تكن هناك رغبات أستطيع اعتبار تحقيقها أمراً معقولا » وقد لحقت بى كل هذه الكوارث فى وقت كنت محاطاً فيه بكل ما يمكن إعتباره حظاً سعيداً للغاية ، فلم أكن قد بلغت الخمسين ، وكانت لى زوجة

---

(١) ليوتولستوى – تأليف : إرنست ج . سيمونز .

صالحة تحبنى وأحبها ، وأبناء نجباء ، وضيعة واسعة تنمو وتتقدم دون جهد كبير منى . . . وكان الناس يمتدحوننى ، وكان من الممكن أن أزعم -- دون كثير من خداع النفس — أنى أصبحت ذا اسم مشهور . . . وكنت أتمتع بقوة فى العقل والجسد ندر أن أجدهما عند أندادى من الرجال ، فمن الناحية الجسمانية كان فى مقدورى أن أجارى الفلاحين فى سرعتهم فى الحصاد ، ومن الناحية الذهنية كان فى مقدورى أن أستمر فى العمل ثمانى ساعات أو عشر ساعات متصلة دون أن يكون لهذا الجهد عاقبة وخيمة . وتمثلت لى حالتى الذهنية بالطريقة التالية : إن حياتى ما هى إلا أضحوكة مريرة جعلنى شخص ما هدفا لها » .

وعندما ما كان لايزال صبياً كف عن الإيمان بالله . ولكن فقدانه للعقيدة جعله شقياً برماً ، إذ لم تكن لديه النظرية التى تمكنه من حل لغز الحياة . وكان يسأل نفسه : « لماذا أعيش وكيف ينبغى لى أن أعيش ؟ » ولم يعثر على جواب . ثم انتهى مرة أخرى إلى الإيمان بالله ولكن بالتفكير المنطقى ، وذلك أمر غريب حقاً على رجل عاطفى المزاج ، وقد كتب يقول : « إذا كنت موجوداً فلابد أن هناك علة لوجودى ولا بد أن تكون هناك علة للعلل . وهذه العلة الأولى لجميع العلل هى ما يسميه الناس بالله » . وهذا برهان من أقدم البراهين التى تثبت وجود الله . ولم يكن يؤمن بإله خاص كما لم يكن يؤمن ، فى ذلك الحين فى الحياة بعد الموت ، وإن كان فيما بعد — عندما انتهى إلى أن النفس جزء من الأبدية — بدا له أن من غير المعقول أن تفنى النفس بفناء الجسد . وظل فترة متعلقاً بالكنيسة الروسية الأورثوذكسية ولكنه صدم إذ وجد أن حياة علمائها لا تتفق ومبادئهم ، ووجد أن من المستحيل أن يؤمن بكل ما يطالبونه بالإيمان به . كان على استعداد لأن يقبل فقط ما هو حق بمعناه البسيط الحرفى . وبدأ يلتصق بالمؤمنين بين أواسط الفقراء والبسطاء والأميين وكلما تأمل حياتهم زاد إيمانه بأن هؤلاء الناس بالرغم من ظلمة خرافاتهم يتمتعون بإيمان حقيقى يعتبر ضرورة لهم ، ولهم وحدهم ، ذلك لأنه يعطى لحياتهم معنى ويجعل العيش ممكنا لهم .

ومضت سنوات قبل أن يصل إلى تحديد نهائى لآرائه ، وكانت سنوات تأمل ودراسة ومن الصعب تلخيص هذه الآراء تلخيصا مختصراً ووافياً فى نفس الوقت

وأنا لا أحاول أن أفعل ذلك إلا بعد تردد . بعد أن رفض تولستوى الطقوس الدينية لأنها لا تقوم على أساس من تعاليم المسيح ولا تجدى إلا فى طمس الحقيقة ، وبعد أن رفض العقائد التى تتضمن مبادئ المسيحية باعتبارها هراء ظاهراً وإهانة للذكاء البشرى ، انتهى إلى الاعتقاد بأن الحقيقة لاتكمن إلا فى كلمات يسوع المسيح وآمن أن جوهر تعاليمه يرتكز فى الأمر التالى : « لاتقاوم الشر » وقرر أن الوصية « لاتقسم أبداً » لاتنطبق على القسم العادى فقط وإنما على كافة أنواع القسم أيضاً سواء القسم الذى يؤديه الشاهد أو القسم الذى يؤديه الجنود ، أما الأمر « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم » فيحرم على الرجال محاربة أعداء الوطن أو الدفاع عن النفس حين التعرض للهجوم . وكان الاعتقاد برأى معناه فى نظره العمل بمقتضاه فهو إذ انتهى إلى أن جوهر المسيحية هو الحب ، والتواضع ، وإنكار الذات ومقابلة الإساءة بالمعروف ، أحس بأن لزاما عليه أن ينكر متع الحياة ، وأن يعمل ويتواضع ويتعذب ويرحم .

وأصرت سونيا تولستوى ، وهى من أتباع الكنيسة الأورثوذكسية الأتقياء على أن يتلقى أولادها تعليماً دينيـاً ، وراحت بكل وسيلة تؤدى ذلك فى تلك الرفعة التى شاءت العناية الإلهية أن تضعها فيها . ولم تكن سونيا امرأة مغرقة فى الروحانية ، إنها لم تجد لذلك الوقت الكافى ، خاصة وقد أنجبت مثل هذا العدد الكبير من الأطفال ، وربتهم بنفسها وأشرفت على تعليمهم التعليم السليم ، وأدارت منزلا كبيراً . ولم تفهم نظرة تولستوى المتغيرة ولاتعاطفت معها ، ولكنها تقبلتها فى تسامح كاف ولكنها انزعجت مع ذلك عندما تغير سلوك تولستوى نتيجة لتبدل قلبه ، وتضايقت ولم تتردد فى إظهار ضيقها . والآن ، وقد رأى تولستوى أن من واجبه ألا يستهلك جهد الآخرين إلا فى أضيق الحدود ، صار يوقد موقده بنفسه ، ويجلب الماء ويغسل ثيابه بنفسه . وجلب إسكافيـاً ليعلمه كيف يصنع الأحذية بعد أن تسلطت عليه فكرة كسب قوته بعرق جبينه . وكان يعمل مع الفلاحين فى ياسنايا بوليانا يحرث معهم ويجر العربات حاملا الحصاد ويقطع الأخشاب ، ولم توافق الكونتيسة على ذلك فقد بدا لها أنه يبذل من الصباح حتى المساء مجهوداً جسمانيـاً لانفع فيه ، مجهوداً لا يقوم به الفلاحون أنفسهم ، اللهم إلا صغار السن منهم . وقد كتبت إليه تقول : « ستقول بالطبع إن

العيش على هذا النهج يتفق ومعتقداتك ، وأنك تجد متعة فى ذلك . تلك مسألة أخرى وليس أمامى إلا أن أقول : متع نفسك، ومع ذلك يؤلمنى أن تضيع هذه الطاقة الذهنية فى شق الخشب ، وإشعال السامو فار وصنع الأحذية — وجميعها أعمال ممتازة فى ساعات الراحة أو من أجل تغيير العمل ، ولكنها ليست كذلك إذا اتخذت كمهنة خاصة » ها هى تتكلم كلاما معقولا . كان من الحماقة أن يفترض تولستوى أن العمل اليدوى أنبل — بأية صورة — من العمل الذهنى . وحتى إذا كان يعتقد أن من الخطأ تأليف روايات يطالعها العاطلون ، إلا أننا لانكاد نصدق أنه لم يعثر على عمل أفضل من صناعة الأحذية التى لم يكن يجيد صنعها ، والتى لم يستطع الناس الذين منحهم إياها أن ينتعلوها . وأخذ يرتدى ملابس الفلاحين ، وأصبح قذراً وغير مهندم . وهناك قصة تحكى كيف دخل ذات يوم ليتناول طعام العشاء بعد أن قام بحمل السماد ، فقد بلغ من بشاعة الرائحة التى دخل بها أنهم اضطروا إلى فتح النوافذ . وهجر الصيد الذى كان مغرما به للغاية وأصبح نباتيا حتى لا تذبح الحيوانات وتقدم على المائدة . لقد ظل لسنوات عديدة يشرب الخمر باعتدال كبير ، غير أنه امتنع عنها نهائيا ، وفى النهاية وبعد نضال مرير مع نفسه كف عن التدخين .

وكان الأطفال فى هذه الأثناء يشبون عن الطوق ، وأصرت الكونتيسة على أن تنتقل الأسرة إلى موسكو فى الشتاء من أجل تعليم الأطفال ، ومن أجل تانيا ابنتها الكبرى التى بدأت تنضج وتخرج إلى المجتمع . وكان تولستوى يكره حياة المدن ، ولكنه استسلم تحت إصرار زوجته . وفى موسكو أفزعه الفارق الذى لمسه بين غنى الأغنياء وفقر الفقراء . وكتب يقول : « لقد شعرت ولازلت وسأظل أشعر بأنه طالما كان لدى فائض من الطعام بينما لا يملك البعض شيئاً منه ، وأنى أمتلك معطفين وغيرى لا يملك أى معطف ، فإنى بذلك أشترك فى جريمة تتكرر دوما » . وكان من العبث أن يقول له الناس إنه كان هناك أغنياء وفقراء دائما ، وأن هذا سيحدث دائما ، فقد شعر أن ذلك أمر غير سليم ، وبعد أن زار ملجأ لإيواء المعوزين ليلا ولمس بشاعته ، شعر بالخزى إذ يذهب إلى منزله ويتناول عشاء من خمسة أصناف ، يقدمها خادمان بملابسهما الرسمية ورباط العنق والقفاز الأبيض .

وحاول أن يمنح المال للمعوزين الذين يلتمسون عنده المعونة . ولكنه انتهى إلى أن المال الذى يأخذونه بتملقهم له يضر أكثر مما ينفع وقال : « إن المال إثم . ولذا فإن من يعطى مالا يرتكب إثماً » . ولم يمض وقت طويل إلا وقد أصبح يجزم بأن الامتلاك أمر مناف للأخلاق وإن من الخطأ استمتاع المرء بممتلكات . وبالنسبة لرجل كتولستوى ، كانت الخطوة التالية واضحة . لقد قرر أن يتخلص من كل ما يمتلكه ، ولكنه اشتبك هنا فى صراع مع زوجته ، التى لم تكن ترغب فى أن تصبح شحاذة أو تترك أولادها معدمين . وهددته باللجوء إلى المحاكم لإعلان عجزه عن إدارة شئونه . وبعد جدال لا يعرف إلا الله مدى عنفه وافق أن تؤول ممتلكاته إليها . وقد رفضت هذا العرض . وفى النهاية قسم الممتلكات بينها وبين الأولاد . وفى أكثر من مناسبة — خلال الأعوام التى استغرقها الخلاف — غادر البيت ليعيش وسط الفلاحين ، ولكنه قبل أن يمضى بعيداً يجد نفسه مشدوداً ثانية إلى البيت بسبب الألم الذى يعرف أنه يسببه لزوجته واستمر يعيش فى ياسنايا بوليانا ، وبالرغم من تألمه لمظاهر الترف الذى يحيط به — وهو ترف متواضع للغاية إلا أنه جنى منه ثروة . واستمرت الاحتكاكات . ولم يوافق على التعليم التقليدى الذى كانت الكونتيسة توفره لأولادهما . ولم يستطع أن يغفر لها وقوفها ضده لمنعه من التصرف فى ثروته كما يريد .

وعاش تولستوى بعد هذا التحول ثلاثين سنة ولا يسمح لى المجال هنا بأن أتناول هذه الفترة الطويلة بالتفصيل . وأنا مضطر إلى حذف الكثير مما له أهمية فى حد ذاته . لقد أصبح تولستوى شخصية كبرى ، فالناس لم تعرفه على أنه أعظم كاتب فى روسيا فحسب ، وإنما عظمت شهرته فى أنحاء العالم كروائى . ومعلم . وأخلاقى وأنشأ أولئك الذين أراد أن يعيشوا وفقاً لمبادئه المستعمرات وأحسوا بالأسى والحسرة عندما حاولوا تطبيق مبدئه الخاص بعدم المقاومة . وقصة مغامراتهم الفاشلة مفيدة ومضحكة معاً . ونتيجة لطبيعة تولستوى المتشككة ، وجداله العنيف ، وعدم تسامحه ، واعتقاده العلنى بأن من يختلف معه فإنما يدافع من بواعث دنيئة ، كان أصدقاؤه يعدون على أصابع اليد ، ولكن عندما تضاعفت شهرته . وفد على ياسنايا بوليانا جمع من الطلاب ، والحجاج الذين يزورون بقاع روسيا المقدسة . والسياح

والمعجبون والأتباع فقيرهم وغنيهم ، النبيل منهم والعادى .

وكانت سونيا تولستوى كما ذكرت ، غيورة محبة للتملك والسيطرة كانت تريد دائماً احتكار زوجها ، وقد استنكرت واستاءت من غزو الغرباء لمنزلها . وكان امتحاناً عسيراً لصبرها . وكتبت تقول : « بينما يتحدث هو للناس عن كل مشاعره العذبة ، ويغرق فى استدرار العطف على نفسه يظل يعيش كما كان يعيش ، مغرماً بالطعام الجيد وبركوب الخيل والدراجة ، وبإشباع شهوته » . وفى مناسبة أخرى كتبت فى يومياتها تقول : « لا أتمالك إلا أن أشكو لأن كل هذه الأشياء التى يمارسها من أجل إسعاد الناس تعقد الحياة بصورة يصعب على معها أن أعيش . فكونه نباتيا معناه اضطرارنا إلى طهى طعامين للغداء مما يسبب زيادة فى النفقات ومزيداً من الجهد البشرى ومواعظه عن الحب والخير أدت إلى عدم اكتراثه بعائلته وتطفل كل أنواع الرعاع على محيطنا » .

وكان من أوائل الذين شاركوا تولستوى آراءه شاب يدعى شيرتكوف وهو ثرى ، وكان يعمل ضابطاً بالحرس ، لكنه استقال من منصبه عندما اقتنع بمبدأ عدم المقاومة . وكان رجلا مخلصاً مثاليـًا ومتحمساً ، ولكنه كان يميل إلى السيطرة ، وكانت لديه قدرة فريدة على فرض إرادته على الآخرين ، ويذكر ايلمر مود Aylmer Maude عنه أن كل من اتصل به صار له أداة أو تشاجر معه ، أو اضطر إلى الفرار منه . وانبثقت علاقة وثيقة بينه وبين تولستوى ، واستمرت حتى وفاة الأخير ، وكان له نفوذه على تولستوى مما أثار حفيظة الكونتيسة .

وبينما بدت آراء تولستوى فى نظر أصدقائه كان شيرتكوف يحثه دائماً على المضى إلى أبعد من ذلك ، وعلى تطبيقها بمزيد من الصرامة . ولقد بلغ من انشغال تولستوى بتطوره الروحى أنه أهمل مقاطعاته ، وهى التى تقدر بحوالى ثلاثمائة ألف دولار فلم تأت بريع أكثر من ٢٥٠٠ دولار سنويـًا وكان من الواضح أن ذلك لا يكفى للإنفاق على البيت وتعليم هذا الحشد من الأطفال . وأغرت الكونتيسة زوجها أن يمنحها حقوق نشر كافة مؤلفاته التى كتبها قبل ١٨٨١ واقترضت بعض المال وبدأت مشروعاً لحسابها لنشر كتبه . وأثمر المشروع جداً لدرجة أنها استطاعت أن تغطى جميع التزاماتها . وكان من الواضح أن الاحتفاظ بحقوق إنتاج تولستوى الأدبى

لايتفق وعقيدته بأن الملكية إجراء لا أخلاقى ، فلما نجح شيرتكوف فى السيطرة على تولستوى حثه على أن يعلن بأن كل ما كتبه منذ عام ١٨٨١ هو ملك شائع للجمهور يستطيع من يشاء أن ينشره . وكان هذا كافياً ليثير غضب الكونتيسة ، لكن تولستوى ذهب إلى ما هو أبعد من هذا : لقد حثها على أن تتنازل عن حقوقها فى كتبه الأولى ، وكان من بينها بالطبع الروايات الرائجة جدا . وهذا ما رفضته الكونتيسة رفضاً باتًّا . كانت حياتها وحياة أسرتها تتوقف على هذه الحقوق .وأعقب ذلك خلافات حادة طويلة . ولم تدعه سونيا وشيرتكوف ينعم بالسلام . كان موزع النفس بين مطالب متضاربة لايستطيع دحض أى مطلب منها .

فى عام ١٨٩٦ كان تولستوى قد بلغ الثامنة والستين من عمره . وكان قد مضى على زواجه أربعة وثلاثون عاماً . وكبر معظم أولاده ، وكانت ابنته الثانية فى طريقها إلى الزواج ، أما زوجته التى كانت قد بلغت الثانية والخمسين فقد تورطت فى أمر شائن وهو وقوعها فى حب رجل يصغرها بسنوات عدة ، وهو مؤلف موسيقى يدعى « تانابيف » وصدم تولستوى وشعر بالخجل والسخط . وإلى القارئ هذا الخطاب الذى كتبه لها : « إن صلتك الوثيقة بتانابيف تشعرنى بتقزز ، وأنا لا أستطيع أن أصبر عليها وأحتملها فى هدوء وبساطة . ولو مضيت أعيش معك على هذا النحو فلن أفلح إلا فى تقصير حياتى وتسميمها . لقد مضى على عام وأنا لا أعيش على الإطلاق . وأنت تعرفين هذا . لقد ذكرت لك هذا وأنا فى أشد حالات الضيق ، وكنت أستعطفك . وفى الآونة الأخيرة جربت الصمت . لقد جربت كل طريقة ولا من جدوى . إن العلاقة الوثيقة مستمرة وأستطيع أن أقول إنها قد تسير على هذا النحو حتى النهاية.لم أعد أطيق هذا . وواضح أنك لاتستطيعين فصم عراها ، لم يبق غير شئ واحد — أن ننفصل . ولقد حزمت أمرى على ذلك . ولكن ينبغى أن أبحث عن أفضل طريق لإنجاز هذا الأمر وأعتقد أن أفضل شىء بالنسبة لى هو السفر إلى الخارج. سوف نفكر فى أفضل الطرق . شىء واحد مؤكد — وهو أننا لانستطيع المضى على هذا النحو » .

ولكنهما لم ينفصلا ، وإنما ظل كل واحد منهما يحيل حياة الآخر إلى شىء لايطاق . وطاردت الكونتيسة المؤلف الموسيقى الشاب بجنون امرأة مسنة عاشقة ، وربما أطربه ذلك فى بداية الأمر ، ولكنه سرعان ما ضاق بعاطفة لايستطيع

مبادلتها ، عاطفة تجعله موضع سخرية . واكتشف فى النهاية أنه يهرب منها . وأنه يعمل على تجنبها . وفى النهاية تهجم عليها علناً مما أحزنها وأذلها . وبعد مضى فترة قصيرة انتهى تفكيرها إلى أن تانابيف كان « بليداً خشناً فى الجسم والروح » . وانتهى عهد العلاقة المشينة .

وكان الخلاف بين الزوج والزوجة قد أصبح فى ذلك الحين شائعاً ، وكان مما يحز فى نفس سونيا أن يقف تلاميذه . وقد أصبحوا الآن أصدقاءه الوحيدين . فى صفه ، وأن يقفوا منها موقفاً عدائياً لأنها منعته من العمل كما كان ينبغى له فى نظرهم . ولم يجلب له تحوله سعادة تذكر . لقد أفقده أصدقاءه ، وبث الفرقة بين أفراد عائلته ، وأحدث انشقاقاً بينه وبين زوجته . ولامه أتباعه على استمراره فى حياته الرخية ، والحق أنه كان يشعر بأنه جدير باللوم . وكتب فى يومياته : « والآن ، وأنا أخطو اليوم إلى عامى السبعين ، أحن بكل — ما فى روحى من عنفوان — إلى الهدوء والوحدة ، وبالرغم من أنى لا أنشد التوافق التام إلا أنى أنشد شيئاً أفضل من ذلك التناقض الصارخ بين حياتى ومعتقداتى وضميرى ».

وانهارت صحته . وأصيب خلال العشر السنوات التالية بأمراض مختلفة ، وقد بلغ من شدة أحدها أن شارف تولستوى على الموت ، وقد وصفه جوركى ، الذى عرفه فى هذه الفترة ، بأنه نحيف جداً وضئيل ورمادى اللون ، غير أن عينيه صارتا أشد حدة ، ونظرته أكثر نفاذاً . وملأت التجاعيد العميقة وجهه . وكانت له لحية طويلة بيضاء مشعثة الشعر . أصبح تولستوى عجوزاً . وكان قد بلغ الثمانين من عمره . وانقضى عام أعقبه آخر . وبلغ الثانية والثمانين وكان ينهار بسرعة ، وبات من الواضح أنه لم يعد أمامه سوى أشهر قلائل يعيشها . وكانت أشهراً مريرة بسبب المشاجرات الحادة . كان شيرتكوف الذى لم يشارك تولستوى ، فيما يبدو ، فكرته عن لاأخلاقية الملكية ، قد اشترى ضيعة بالقرب من ياسنايا بوليانا مما يسر بالطبع مهمة اللقاء بين الرجلين . وبدأ يلح على تولستوى أن ينفذ رغبته فى أن يصير كل إنتاجه بعد مماته ملكية عامة . وأهاج الكونتيسة أن تحرم من حقها فى الروايات التى سبق أن تنازل لها عنها تولستوى منذ خمسة وعشرين عاماً . وتحولت العداوة الطويلة بينها وبين شيرتكوف إلى حرب عانية . ووقف الأبناء إلى جانب أمهم ، باستثناء

الكسندرا ابنة تولستوى الصغرى التى كانت واقعة تماماً تحت تأثير شيرتكوف ، ولم يرد الأبناء أن يعيشوا تلك الحياة التى أرادها لهم والدهم . وبالرغم من أنه قسم ضياعة بينهم ، إلا أنهم لم يروا ما يدعو إلى حرمانهم من المبالغ الضخمة التى تدرها كتاباته . وبالرغم من الضغط الذى تعرض له تولستوى من جانب أسرته ، إلا أنه كتب وصية تنازل فيها عن أعماله للجمهور ، وأعلن أن المخطوطات التى تكون موجودة وقت وفاته تسلم إلى شيرتكوف حتى يجعلها فى متناول كل من يريد نشرها . ولكن كان من الواضح أن هذا الإجراء غير قانونى ، وألح شيرتكوف على تولستوى أن يكتب وصية أخرى .

وتم تهريب الشهود إلى داخل المنزل حتى لا تعرف الكونتيسة ماذا يجرى هناك ، ونسخ تولستوى الوثيقة بخط يده خلف أبواب حجرة مكتبه المغلقة . وتضمنت هذه الوصية إعطاء حقوق الطبع لابنته الكسندرا التى اقترح شيرتكوف تعيينها ، ذلك لأنه كتب بأسلوب فيه الكثير من التجاوز : « صرت موقناً بأن تولستوى وأولاده لايودون أن يروا وريثا رسميا من خارج الأسرة » لقد حرمتهم الوصية من الوسيلة الرئيسية للعيش . ومع ذلك ، لم يقنع شيرتكوف بذلك ، وحرر بنفسه وصية أخرى نقلها تولستوى بخطه وهو جالس على جذع شجرة فى الغابة ، بالقرب من منزل شيرتكوف . وهكذا أصبح شيرتكوف يسيطر على المخطوطات سيطرة تامة . وأهم هذه المخطوطات يوميات تولستوى الأخيرة . لقد جرى الزوجان على عادة تسجيل اليوميات منذ عهد طويل ، واتفقا على أن يطلع كل منهما على ما كتبه الآخر وقتما يشاء . كان ترتيباً مشئوماً . فقراءة أحدهما لشكوى الآخر كانت تجعلهما يتبادلان الاتهامات المريرة . وكانت اليوميات التى كتبت فى عهد مبكر فى حوزة سونيا . أما اليوميات التى كتبت فى السنوات العشر الأخيرة فقد سلمها تولستوى لشيرتكوف . وعقدت سونيا العزم على استرجاع هذه اليوميات للاستفادة من الربح الذى قد يعود عليها بنشرها ، ولكن السبب الأهم هو أن تولستوى كان جد صريح فى سرده لتفاصيل الخلافات بينهما . ولم تكن تود أن يطلع الناس على هذه الفقرات . وأرسلت رسولا إلى شيرتكوف لاسترجاعها ، ورفض شيرتكوف . وكان أن هددت بأن تسم نفسها أو تنتحر غرقاً إذا لم ترد إليها هذه اليوميات ، واهتز تولستوى للضجة التى أثارتها فسحب اليوميات من شيرتكوف ،

ولكنه بدلا من أن يسلمها إليها احتفظ بها فى أحد البنوك . وكتب إليه شيرتكوف خطاباً علق عليه تولستوى فى يومياته : « وصلنى خطاب من شيرتكوف مملوء باللوم والاتهامات . مما جعلنى أتمزق إربا إربا . ويخطر لى فى بعض الأحيان أن أفر بنفسى بعيداً عنهم جميعاً » .

ومنذ صباه تقريباً كانت تجتاحه الرغبة فى نبذ العالم بما فيه من ضجة ومتاعب ، والهجوع إلى مكان يستطيع فيه أن يكرس حياته فى العمل على الوصول بنفسه إلى مرتبة الكمال ، فى جو من العزلة . وكغيره من الكثيرين من الكتاب بث هذه الرغبة فى شخصيتين من شخصيات رواياته وهما — بيير فى « الحرب والسلام » وليڤين فى « أنا كارنينا » حيث صب فيها الكثير من نفسه . وتضافرت ظروف حياته فى تلك الفترة لتجعل من هذه الرغبة إلحاحاً يستبد به تقريباً . فزوجته ، وأولاده ، يعذبونه . وكان قد ضاق بعدم رضا أصدقائه عنه ، إذ شعروا بأنه من واجبه فى النهاية أن يضع مبادئه موضع التنفيذ الكامل . فقد تألم الكثيرون منهم لأنه لم يعمل بما وعظ به . وكان يتلقى فى كل يوم رسائل جارحة تتهمه بالنفاق .وكتب إليه أحد تلامذته المتحمسين يتوسل إليه أن يتخلى عن ضيعته ، وأن يمنح ممتلكاته لذوى القربى والفقراء وألا يترك لنفسه كوبيكا واحداً ، وأن يهيم على وجهه من مدينة إلى أخرى كما لو كان شحاذاً . ورد عليه تولستوى بقوله : « تأثرت لخطابك أشد التأثر . إن ما تنصحنى به هو حلمى المقدس ، ولكنى عجزت حتى الآن عن تحقيقه . وهناك أسباب عدة . . . ولكن السبب الرئيسى هو أنه لاينبغى أن يكون فى إقدامى على ذلك ضرر للآخرين » . على أن المرء فى أغلب الأحيان يخفى السبب الحقيقى لمسلكه ، ويلقى به إلى وعيه الباطن ، ومن هنا اعتقد أن السبب الذى منع تولستوى من العمل بما أملاه عليه ضميره وأصدقاؤه هو — بكل بساطة — أنه لم تكن لديه الرغبة الكافية التى تدفعه إلى تنفيذ ما يريده . وهناك سمة نفسية فى الكاتب لم أر أحداً يشير إليها أبداً ، بالرغم من وجوب وضوحها فى ذهن كل من يتصدى لدراسة حياة الكتاب. ذلك أن كل عمل إبداعى ينتجه الكاتب هو — إلى حد ما على الأقل — إعلاء لغرائزه ، ورغباته ، وأحلام يقظته ، سمها ماشئت ، أشياء يكون قد كبتها فى نفسه لسبب أو لآخر ، وهو إذ يعبر عنها تعبيراً أدبيًّا فإنما يحرر

نفسه من الرغبة فى التنفيس عنها بصورة أكبر عن طريق الفعل الإيجابى . على أن المؤلف لايجد الرضى التام فى ذلك . إذ يبقى لديه الشعور بالعجز . وهذا هو السبب فى أن الأديب يمجد الرجل الإيجابى ، وينظر إليه – على كره منه – نظرة إعجاب ممزوج بالحسد . ومن الجائز جداً أن تولستوى باشر العمل اليدوى كبديل لدوافعه المكبوتة . ومن المحتمل أنه كان سيجد فى نفسه القوة التى تدفعه إلى تنفيذ ما يؤمن به فى إخلاص لولا أنه ألف تلك الكتب فخفف بذلك من حدة تصميمه .

ولد تولستوى بالطبع ليكون كاتباً ، ولقد كانت غريزته تدفعه إلى تصوير الأمور بأكثر الطرق فعالية ، وتأثيراً وتشويقاً . وأعتقد أن تولستوى فى كتاباته التعليمية قد جعل قلمه يشطح معه لكى يجعل نقاطه أكثر تأثيراً ، وهنا وضع نظرياته بطريقة أكثر إجحافاً مما لو توقف ليتأمل النتائج التى ستنتج عن موقفه هذا . والواقع أنه اعترف فى إحدى المناسبات بأن التساهل ، وإن استحال من الناحية النظرية ، إلا أنه أمر لا مفر منه عند التنفيذ . لكن من المؤكد فى حالة كهذه أنه تخلى عن موقفه تماماً ، فإذا كان التساهل أمراً لامفر منه عند التنفيذ فمعنى ذلك أنه غير عملى ، إذن فلابد أن النظرية تعانى من شوائب . ولكن من سوء حظ تولستوى أن أصدقاءه وأتباعه الذين كانوا يفدون فى جماعات على ياسنايا بوليانا ، يدفعهم الشوق إلى تولستوى ، لم يستطيعوا أن يهضموا رضوخ معبودهم لفكرة التساهل . والواقع أنهم كانوا متوحشين بعض الشىء فى إصرارهم الدائب على أن يضحى الرجل العجوز بنفسه من أجل فكرتهم الدرامية عن الصواب . كان تولستوى سجين رسالته . فإن كتاباته ، والتأثير الذى خلفته فى الكثيرين ، وهو تأثير خطير بالنسبة للغالبية ، والتأليه والاحترام ، والمحبة التى غمرته ، كل هذا دفعه إلى موقف لم يكن منه غير مخرج واحد ، غير أنه عجز عن الإقدام عليه .

فتولستوى – عندما غادر المنزل فى النهاية فى رحلته المفجعة والشهيرة معاً والتى انتهت بموته – لم يفعل هذا لأنه قرر فى النهاية أن يخطو الخطوة التى حثه على اتخاذها ضميره ، وتصورات أصدقائه ، وإنما فعل ذلك فراراً من زوجته . وكان السبب المباشر فى فراره عرضياً . لقد ذهب إلى فراشه وبعد لحظات أحس بسونيا وهى تفتش بين الأوراق فى حجرة مكتبه . وكانت فكرة السرية التى حرص عليها فى

كتابة الوصية تطارد ذهنه ، وربما ظن حينئذ أن زوجته قد سمعت بطريقة ما بوجود هذه الوصية . فقامت تفتش عنها . وعندما انصرفت نهض من فراشه وأخذ بعض المخطوطات ، وحزم بعض الملابس ، وبعد أن أيقظ الطبيب الذى كان يقيم بالمنزل منذ فترة ، أخبره أنه سيغادر المنزل . وتم إيقاظ الكسندرا ، كما تم انتزاع السائق من فراشه ، وأسرجت الجياد . واستقل العربة بصحبة الطبيب . واتجها نحو المحطة . كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً . وكان القطار مزدحماً بركابه مما اضطره إلى الوقوف فى مؤخرة العربة فى العراء معرضا للبرد والمطر . ونزل فى البداية فى شمردين حيث تعيش أخت له راهبة فى الدير ، وهناك لحقت به الكسندرا . وحملت إليه نبأ محاولة الكونتيسة الانتحار عندما اكتشفت ذهاب تولستوى . وكانت الكونتيسة قد أقدمت على ذلك من قبل أكثر من مرة . ولما كانت لاتكلف خاطرها عناء الاحتفاظ بما تنتويه فى نفسها فإن محاولاتها لم تكن تنتهى بمأساة وإنما تنتهى بضجة وانزعاج للآخرين . وحثته الكسندرا على المضى فى طريقه خشية أن تكتشف أمها مكانه فتتبعه . وتوجهوا إلى رستوف أون دون . وكان قد أصيب بالبرد ، وساءت حالته ، وفى القطار بلغ من اشتداد المرض عليه أن قرر الطبيب النزول فى المحطة التالية . وكان ذلك فى مكان يسمى استابوفو . وعندما عرف ناظر المحطة شخصية الرجل المريض وضع منزله تحت تصرفه . وأبرق تولستوى فى اليوم التالى إلى شيرتكوف كما أبرقت الكسندرا إلى أخيها الأكبر طالبة منه استدعاء طبيب من موسكو . ولكن شخصية تولستوى كانت أشهر من أن تظل تحركاتها مجهولة من الناس ، وخلال أربع وعشرين ساعة عرفت الكونتيسة مكانه من أحد الصحفيين. وأسرعت إلى استابوفو مصطحبة من كان فى ياسنايا بوليانا من أولادها . لكن حالته المرضية كانت من السوء بحيث رئى أن من الأفضل عدم إخباره بوصولها ، ولم يسمح لها أحد بدخول المنزل . وشغل العالم كله بأخبار مرضه . وفى خلال الأسبوع الذى استغرقه مرضه احتشدت محطة استابوفو بممثلى الحكومة وضباط البوليس وموظفى السكة الحديد ورجال الصحافة والمصورين وكثيرين غيرهم . وكانوا يقيمون فى عربات السكة الحديد التى وضعت لهم فى خط جانبى لاستضافتهم ، ولم يستطع مكتب التلغراف المحلى أن يلاحق العمل

الذى ألقى على عاتقه إلا بمشقة بالغة. وكان تولستوى يعانى سكرات الموت وسط وهج الشهرة . ووصل مزيد من الأطباء حتى بلغ عددهم فى نهاية الأمر خمسة . وكثيراً ما كانت تجتاحه نوبات هذيان . ولكنه كان فى لحظات وعيه قلقاً على سونيا التى كان لايزال يعتقد أنها بالمنزل لاتعرف مكانه . كان يعرف أنه سيموت . ولقد خشى الموت طوال حياته ، لكنه لم يعد يخشاه الآن . وقال — « هذه هى النهاية . وهذا لايهم » واشتدت حالته سوءاً . وفى نوبات هذيانه استمر يصيح « أن اهرب ! أن اهرب ! » وسمح لسونيا فى النهاية بدخول الحجرة . وكان فاقد الوعى وركعت على ركبتيها وقبلت يده ، وتنهد ، لكن لم تصدر منه أية بادرة تدل على أنه أدرك مجيئها . وفى الساعة السادسة وبضع دقائق من صباح يو الأحد ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ مات .

ولقد استعنت كثيراً فى كتابتى لهذا المقال بكتاب « حياة تولستوى Life of Tolstoy » تأليف ايلمر مود . كما استعنت بترجمته لـ « الاعترافات Confession » ويمتاز مود بأنه كان يعرف تولستوى وعائلته ، وأن سرده مما تشوق قراءته . وإن كان من سوء الحظ أنه اعتقد أن من المناسب أن يذكر عن نفسه وعن آرائه أكثر مما يريد معظم القراء أن يعرفوه . كما أنى مدين جداً للسيرة الكاملة المفصلة المقنعة التى كتبها البروفيسر سيمونز عن حياة تولستوى . فقد ذكر كثيرا من الحقائق المثيرة التى رأى ايلمر مود أن من الحكمة حذفها . ولاشك أنها ستظل السيرة المعتمدة فى اللغة الإنجليزية لفترة طويلة .

اونورى دى بلزاك

و

الأب جوريو

بلزاك — كما قلت فى بداية تقديمى لـ« الحرب والسلام » — هو فى نظرى أعظم الروائيين الكبار الذين أثروا بأعمالهم كنوز العالم الروحية . كان بلزاك عبقرياً .وهناك كتاب ترجع شهرتهم إلى كتاب أو كتابين ، وترجع أحياناً إلى أن جزءا فقط من كل ما كتبوا أثبت أنه ذو قيمة خالدة ، وأحياناً لأن إلهامهم ، الذى نتج عن تجربة متفردة ، أومزاج ذى طابع خاص ، أعانهم على إنتاج كمية محدودة . إنهم يقولون كلمتهم مرة واحدة ولايقولونها بعد ذلك أبداً ، وإذا كتبوا ثانية كرروا أنفسهم . أن الخصوبة ميزة فى الكاتب ، ولقد كان بلزاك على قدر كبير من الخصوبة . أما ميدانه فالحياة بأكملها فى عصره ، أما حدوده فتمتد إلى الآفاق البعيدة التى يمتد إليها بلده . وكانت له خبرة واسعة بالناس ، ولكنها فى بعض النواحى أقل دقة عنها فى نواح أخرى ، وكان يعرف الطبقة الوسطى من المجتمع من أطباء ، ومحامين ، وموظفين ، وصحفيين ، وأصحاب حوانيت ، وقسس ريفيين أكثر مما يعرف العالم الكبير ، أو عالم العمال والفلاحين . وقد نجح مثل كل الروائيين فى الكتابة عن الأشرار أكثر مما نجح فى الكتابة عن الأخيار . وكانت ملاحظاته دقيقة مفصلة . وكانت له قدرة فائقة على الابتكار حتى ليذهل المرء أمام قائمة الشخصيات التى أبدعها .

ولكنى لا أعتقد أنه كان رجلا مثيراً للاهتمام . فقد كانت شخصيته خلوا من التعقيدات العميقة ، فلم تكن هناك تناقضات محيرة أو حنايا معقدة . فهو فى الحقيقة أقرب إلى الوضوح . بل ولست متأكداً مما إذا كان على قدر كبير من الذكاء ، فأفكاره كانت عادية وسطحية . ولكنه كان يتمتع بقوة خارقة على الخلق . كان أشبه بقوة من قوى الطبيعة ، كنهر صخاب مثلا ، يفيض على شاطئيه ويكتسح كل شىء فى طريقه ، أو إعصار يشق طريقه الوحشى عبر أماكن ريفية

هادئة أو خلال شوارع المدن الآهلة بالسكان . وفى تصويره للمجتمع لم تقتصر موهبته البارزة على تصوير الناس فى علاقاتهم الواحد بالآخر – وهو ما يفعله كل الروائيين ، باستثناء كتاب قصص المغامرات المحضة ، وإنما كان يصورهم أيضاً ، وبوجه خاص ، فى علاقاتهم بالعالم الذى يعيشون فيه . ومعظم الروائيين يتناولون مجموعة من الأشخاص ، لاتزيد أحيانا عن شخصيتين أو ثلاثة ، ويعالجونها كما لو كانوا يعيشون تحت شريحة زجاجية . وكثيراً ما يسفر هذا عن تركيز غير أنه ، فى الوقت نفسه ، مصطنع لسوء الحظ . إن الناس لايعيشون حياتهم الخاصة وحدها ، وإنما يعيشون حياة الآخرين أيضاً . وفى حياتهم الخاصة يلعبون أدواراً رئيسية ، بينما يلعبون فى حياة الآخرين أدواراً هامة أحياناً ، ولكنها قد تكون أيضاً أدواراً محدودة جداً . إنك تذهب إلى صالون الحلاق لتقص شعرك ، فلايعنى هذا شيئاً بالنسبة لك ، ولكن ربما كانت هذه نقطة تحول فى حياة الحلاق . وإذ اكتشف بلزاك معنى هذا كله ، استطاع أن يقدم انطباعات حية مثيرة عن تعدد وجوه الحياة واضطراباتها وأهدافها المتعارضة ، وعن العلل البعيدة التى تفضى إلى نتائج دالة . واعتقد أنه أول روائى تنبه إلى أهمية الاقتصاد فى حياة كل إنسان . وكان يعتقد أنه لايكفى أن يقال المال أصل كل الشرور ، وإنما رأى أن الرغبة فى المال ، اشتهاء المال ، هو المنبع الرئيسى للسلوك البشرى . فالمال والمزيد من المال على الدوام هو الشىء المتسلط على الشخصية تلو الشخصية فى رواياته . إن هدفهم هو العيش فى رفاهية ، فى امتلاك بيوت جميلة ، وخيول جميلة ، ونساء جميلات ، وكل الوسائل التى تمكنهم من تحقيق ما يريدون هى وسائل محمودة طالما أنها تنجح . إنه هدف سوقى ، ولكن يخيل إلى أنه ليس أقل شيوعاً اليوم مما كان عليه أيام بلزاك .

ولو التقيت ببلزاك فى أوائل عقده الثالث ، فى الوقت الذى بات فيه ناجحاً بالفعل ، لبدا لك على النحو التالى : رجلا قصيراً ، أصبح فى عداد السمان ، ذا كتفين متينتين وصدر عريض ، مما يعوض عن قصره فى نظرك ، وله عنق كعنق الثور ، يتناقض لونها الأبيض مع لون وجهه الأحمر ، وشفتان غليظتان باسمتان ، لونهما أحمر بشكل ملحوظ . وكان أنفه مربعاً ، ومنخاراه واسعين ،

وجبهته توحى بالنبل ، أما شعره الغزيز الأسود فكان ينحدر إلى الوراء على جمجمته كما لو كان لبدة أسد . وكانت عيناه البنيتان مشوبتين بلون الذهب ، وكانتا تفيضان بحياة وبريق ومغناطيسية غير عادية ، مما ساعد على إخفاء عدم انتظام ملامح وجهه ، وطابعها العادى . أما التعبير المرتسم على وجهه فيدل على الحبور ، والصراحة والدماثة. وكان ذا حيوية دافقة حتى إنك لتشعر بالنشوة لمجرد وجودك معه . وقد يذهلك جمال يديه . وقد كان فخوراً بهما أيما فخر . كانت أشبه بيدى أسقف ، صغيرتين بيضاوين ، مكتنزتين . أما الأظافر فوردية . ولو قيض لك أن تلقاه فى المساء لوجدته مرتدياً معطفاً أزرق اللون بأزرار مذهبة ، وسروالا أسود وصديريا أبيض اللون ، وجورباً قصيراً من الحرير الأسود ، وحذاء من الجلد البسيط ، وقميصاً أبيض وقفازاً أصفر اللون .

وقد اتفق معاصروه على أنه كان فى هذه الفترة ساذجاً ، صبيانيا ، رقيقاً عطوفاً . وقالت جورج صاند إنه كان مخلصاً إلى حد التواضع ، متفاخراً إلى درجة الجعجعة ، واثقاً بنفسه ، صريحاً ، طيباً جداً ومجنوناً جداً ، يسكر من الماء ، مسرفاً متطرفا فى العمل معتدلا فى عواطفه الأخرى ، واقعياً جداً ورومانتيكيا جداً ، سريع التصديق ومتشككاً ، محيراً وبسيطاً معاً .

أما اسم الروائى الحقيقى فكان بالسا وكان أجداده من العمال الزراعيين ، ولكن والده الذى كان وكيل دعاوى بسيطة ثم ارتفع بعد الثورة ، غير اسمه إلى بلزاك ، وتزوج من وريثة ، أنجبت له أونوريه ، أكبر أولاده الأربعة ، عام ١٧٩٩ فى تورز حيث كان والده يعمل مديراً للمستشفى . وبعد أن قضى أونوريه سنوات فى المدرسة ، وكان فيها غبيا خاملا ، التحق بمكتب محام فى باريس التى انتقل إليها والده ، وبعد ثلاث سنوات ، وبعد أن اجتاز الامتحانات اللازمة رأت الأسرة أنه ينبغى أن يتخذ من المحاماة مهنة له ، ولكنه تمرد . لقد أراد أن يكون كاتباً . وحدثت مشاجرات عنيفة داخل الأسرة وأخيراً ، ورغم معارضة أمه المستمرة ، وكانت امرأة عملية قاسية لم يحبها أبداً ، رضخ أبوه على أساس إتاحة فرصة له . فكان عليه أن يعيش وحده بمبلغ يكفى حاجاته الضرورية فقط وأن يجرب حظه .

وكان أول عمل قام به هو تأليف مأساة عن كرومويل . وقرأها على عائلته التى اجتمعت لسماعها . وقد اتفقوا على أنها تافهة . وعندئذ أرسلت إلى أحد الأساتذة الذى حكم بأن على المؤلف أن يزاول أى عمل آخر يروق له إلا الكتابة . وإذ شعر بلزاك بالغضب وتثبيط الهمة ، قرر أن يكون روائياً مادام لايستطيع أن يكون شاعراً تراجيدياً ، وألف روايتين أو ثلاث روايات متأثراً بوولتر سكوت Walter Scott ، وآن رادكليف Anne Radcliffe وبيرون Byron ولكن العائلة انتهت إلى أن التجربة باءت بالفشل . وكان أن أمرته بالعودة إلى البيت فى أول عربة قادمة . وكان بلزاك الأب قد تقاعد ، وانتقلت الأسرة إلى قرية ڤيلباريسيز Villeparisis التى لا تبعد كثيراً عن باريس . وهناك زاره صديق ، من الكتاب التجاريين . وحثه على تأليف رواية أخرى . وشرع فى الكتابة . وهكذا بدأت سلسلة طويلة من الكتابات التجارية التى كان يكتبها بمفرده تارة ، وتارة ، بالاشتراك مع آخر ، تحت عدد من الأسماء المستعارة . ولا أحد يعرف كم أنتج من الكتب بين عام ١٨٢١ وعام ١٨٢٥ . يقول بعض الثقات إنها بلغت الخمسين . وكانت أغلب هذه الروايات تاريخية ، وقد كان وولتر سكوت وقتئذ فى ذروة شهرته ، فنسج بلزاك رواياته على منوال سكوت الخيالى . وجاءت الروايات رديئة جداً ، ولكنها علمت بلزاك قيمة الحديث السريع لجذب انتباه القارئ ، وقيمة معالجة الموضوعات التى يعتبرها الناس ذات أهمية حيوية ، كالحب ، والغنى ، والشرف ، والحياة . وربما علمته مالابد أن ميوله الخاصة أوحت به إليه أيضاً ، وهو أنه لكى يجتذب المؤلف القراء يجب أن يهتم بالعواطف . وقد تكون العاطفة وضيعة ، أو تافهة أو غير طبيعية ، ولكنها إذا كانت حادة بما فيه الكفاية فإنها لن تخلو من مسحة من عظمة .

وبينما كان بلزاك يعيش مع عائلته فى ڤيلباريسيز . تعرف بجارة تدعى مدام دى برنى ، وهى ابنة موسيقار ألمانى ، كان فى بلاط ماري أنطوانيت ، وكانت أمها وصيفة للملكة . كانت مدام دى برنى فى الخامسة والأربعين من عمرها . وكان زوجها عليلا دائم التذمر . وكانت قد أنجبت منه ثمانية أطفال كما كان لها طفل من عشيق . وأصبحت صديقة لبلزاك ، ثم عشيقته ، وظلت على صداقتها له حتى

وفاتها بعد ذلك بأربعة عشر عاماً . كانت علاقة غريبة . كان يحبها كمعشوقة ، ولكنه حول إليها أيضاً كل الحب الذى لم يستشعره نحو أمه. لم تكن مجرد عشيقة ، وإنما كانت صديقة مخلصة جندت نفسها لتقدم له ما يحتاج إليه من نصح ، وتشجيع ، وعون ، واعتزاز يخلو من المصلحة . ولكن العلاقة تحولت فى القرية إلى فضيحة ، ولم ترض مدام بلزاك ، بالطبع ، عن تورط ابنها مع امرأة فى سن أمه . وعلاوة على ذلك ، لم تكن كتبه تدر مبلغاً كبيراً من المال . وكانت الأم مهتمة بمستقبله . واقترح صديق أن يدخل بلزاك فى مشروع ، ويبدو أن الفكرة راقت له . وقدمت له مدام دى برنى خمسة وأربعين ألف فرنك ، وتسعة آلاف دولار ، وكانت قيمة هذا المبلغ وقتئذ تساوى ثلاثة أو أربعة أضعاف قيمته الآن ، وهكذا بالمساهمة مع شريكين أصبح بلزاك ناشراً وطابعاً وصاحب مسبك للحروف . ولم يكن بلزاك رجل أعمال . كان مسرفاً بصورة بشعة . وكان يقيد على حساب المنشأة مصروفاته الشخصية الخاصة بالحائكين ، وصانعى الأحذية ، والجواهرجية بل ومحال الغسيل . وفى نهاية العام الثالث صفيت المنشأة ، واضطرت أمه إلى تقديم خمسين ألف فرنك لتسديد ديونه . ومع ذلك ، فقد أمدته هذه التجربة المفجعة بكثير من المعلومات الخاصة ، كما عرفته بالحياة العملية مما أفاده فى الروايات التى كتبها بعد ذلك .

وذهب بعد الصدمة للإقامة مع أصدقاء له فى بريتانى وهناك حصل على مادة رواية Les Chouans وهى أول عمل جدى له وأول رواية يوقعها باسمه . كان فى الثلاثين من عمره آنذاك . ومنذ ذلك الحين حتى وفاته بعد ذلك بواحد وعشرين عاماً اندفع يكتب بحماس محموم . إن عدد الكتب المطولة والقصيرة التى كتبها ليصيب المرء بالذهول . كان كل عام يسفر عن رواية أو روايتين طويلتين ودستة من الروايات القصيرة والأقاصيص . وإلى جانب هذا كتب عدداً من المسرحيات ، بعضها لم يقبل أبداً ، وأغلبها فيما عدا واحدة فشلت فشلا يرثى له ، وأصدر ، لفترة قصيرة ، صحيفة كانت تظهر مرتين كل أسبوع ، وكان يكتب معظم صفحاتها بنفسه .

وكان من كبار مدونى الملاحظات . فكان يحمل معه مفكرته حيثما ذهب ، فإذا صادف شيئاً مما قد يفيده ، أو خطرت له فكرة أو راقت له فكرة شخص آخر ،

قام بتسجيلها فى مفكرته . وكان يزور الأماكن التى تدور فيها قصصه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويقوم برحلات طويلة أحياناً ليشاهد شارعاً أو منزلا يريد أن يصفه . واعتقد أنه ، مثل كل الروائيين ، كان يأخذ شخصيات قصصه عن أناس عرفهم ، ولكنه ما إن ينتهى من إخصابهم لخياله حتى يصبحوا مخلوقات من صنع خياله الصرف . وكان يكلف نفسه الكثير من المشقة فى إطلاق الأسماء عليهم ، إذ كان يعتقد أن الاسم ينبغى أن يتناسب مع طبيعة ومظهر الفرد الذى يحمله

وعندما كان يشرع بلزاك فى العمل كان يعيش حياة طاهرة منتظمة ، فكان يأوى إلى فراشه بعد وجبة المساء مباشرة ، إلى أن يوقظه خادمه فى الساعة الواحدة صباحاً . وكان يستيقظ ، ويرتدى ثوبه الأبيض الذى لاتشوبه بقعة ، فقد كان يزعم أن المرء لكى يكتب ينبغى عليه أن يرتدى ثياباً ليس بها بقعة أو لطخة ، وعلى ضوء الشموع ، يشرع فى الكتابة بريشة من جناح الغراب ، وينشط نفسه بقدح تاو قدح من القهوة السادة . وفى الساعة السابعة يتوقف عن الكتابة ، ثم يستلقى على فراشه . وبين الثامنة والتاسعة يأتى الناشر ليعرض عليه بروفات أو يأخذ شيئاً مما كتبه ، ثم يشرع بلزاك فى العمل ثانية حتى وقت الظهيرة فيأكل بيضاً مسلوقاً ويشرب الماء ويتناول مزيداً من القهوة ، ويظل يعمل حتى السادسة ، وعندئذ يتناول عشاءه الخفيف مع شىء من شراب الفوفرى ، وأحياناً يأتى صديق أو صديقان ، ولكنه ، وبعد محادثة قصيرة ، يأوى إلى فراشه .

لم يكن بلزاك كاتباً يعرف ما يريد أن يقوله منذ البداية . كان يبدأ بمسودة خشنة ، يعيد كتابتها ويصححها ، ويغير فى نظام فصولها ، ويحذف ، ويضيف ، ويعدل ، وفى النهاية يرسل إلى رجال المطبعة مخطوطاً يكاد يكون من المستحيل فك رموزه . وكانت البروفة تعاد إليه ، فيعالجها كما لو كانت مجرد تخطيط للمشروع . فلم يكن يكتفى بإضافة كلمات ، وإنما كان يضيف عبارات ، ولم يكتف بالعبارات وإنما كان يضيف فقرات ، ولم يكتفى بالفقرات وإنما أضاف الفصول . وعندماتعد بروفاته مرة ثانية بكل التعديلات والتصحيحات ويستلم كمية لابأس بها ، يشرع فى معالجتها مرة أخرى ، وتجرى تعديلات جديدة . وبعد ذلك فقط يوافق على الطبع ،

ولكن على شريطة أن يسمح له فى طبعة أخرى بإجراء المزيد من التعديلات والتحسينات . وكان هذا كله يكلف الكثير بطبيعة الحال ، كما كان يسفر عن مشاجرات مستمرة مع ناشريه .

أما قصة علاقته بالمحررين والناشرين فطويلة ، مملة ، مقذعة . وسأتناولها ، بأقصى ما أستطيع من إيجاز ، لالشىء إلا لأنها أثرت على حياته وعمله . فقد كان أكثر من مستهتر عادى. فقد يأخذ أجر أحد الكتب مقدماً ويتعهد بتسليمه فى ميعاد محدد ثم تجده ، مدفوعاً بإغراء المال السريع ، يتوقف عن كتابته ليسلم محرراً أو ناشراً آخر رواية أو قصة كتبها فى غاية السرعة. وكانت ترفع ضده الدعاوى لنقضه العقود ، وضوعفت التكاليف والخسائر التى عليه أن يسددها ، من ديونه الثقيلة إلى حد بالغ . فبمجرد أن واتاه النجاح وجلب له عقودا لتأليف كتب (وأحياناً لم يكتبها أبداً) حتى انتقل إلى شقة رحبة ، أثثها ببذخ ، وابتاع عربة وفرسين . ولابد أنه كان من أوائل الناس الذين اهتموا بالديكور الداخلى ، ووصف الأماكن المختلفة التى كان يقيم فيها رائع بقدر ما هو مناف للذوق ، واستأجر سائساً للخيل ، وطباخاً ، وخادماً ، واشترى ثياباً لنفسه وسترة رسمية خاصة للسائس ، وكميات من الآنية كان يزينها بشعارات لا تخصه . وإنما كانت هذه الشعارات ملكاً لعائلة عريقة تحمل اسم بلزاك ، ونسب نفسه إليها عندما أضاف « دى » إلى اسمه الخاص ليوحى للناس بنبل منبته . وكان عليه أن يدفع ثمن كل هذه الأبهة ، فاستدان من اخته ، وأصدقائه ، وناشريه ، ووقع على فواتير ظل يجددها باستمرار . وظلت ديونه تتزايد ، لكنه يشترى البورسلين ، والدواليب ، والخشب المطعم بالصدف ، واللوحات والتماثيل ، والمجوهرات ، وكانت كتبه تجلد بجلد الماعز الفاخر القادم من مراكش ، وكان يقتنى بين عصيه الكثيرة عصا مرصعة بالفيروز . ومن أجل إحدى مآدب العشاء التى أقامها أعاد تأثيث حجرة الطعام وأجرى فى الديكور تغييرات كاملة . وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى أنه كان يأكل فى تعقل عندما يتناول طعامه وحيداً ، ولكن شهيته كانت مريعة عندما يتناول طعامه مع الآخرين . وقد ذكر أحد ناشريه أنه شاهده يلتهم فى وجبة واحدة مائة محارة ، واثنتى عشرة قطعة من اللحم المشوى ، وبطة ، وزوجا من الحجل

وسمكة وعدداً من الفطائر ، واثنى عشر ثمرة كمثرى ، فلاعجب أن صار بمرور الوقت بدينا جداً ذا كرش ضخمة .

ومن حين لآخر عندما يزيد إلحاح الدائنين عن المعتاد كان يضطر إلى رهن الكثير من هذه المقتنيات ، وكان السماسرة يأتون من وقت لآخر ، ويستولون على أثاث منزله ويبيعونه بالمزاد العلني . ولكن ما كان شيء يرده عن غيه . فقد ظل حتى نهاية حياته يشترى فى إسراف أخرق . كان يستدين بلا خجل . غير أن عبقريته كانت تثير من الإعجاب ما يجعل سخاء أصدقائه لاينفد . ومن المعروف أن النساء لايملن عادة إلى الإقراض ، ولكن من الواضح أن بلزاك نجح فى الوصول إليهن . كان يفتقر إلى الرقة تماماً وليس هناك ما يدل على أنه تورع عن أخذ نقود منهن .

وسنتذكر أن والدته اقتطعت من ثروتها الضئيلة لتنقذه من الإفلاس ، هذا إلى أن دوطة كل من ابنتيها ضاعفت من تدهور مواردها ، حتى لم يتبق لها فى النهاية سوى منزل تؤجره . وحان الوقت الذى وجدت فيه نفسها من العوز بحيث كتبت خطاباً لولدها أورده أندريه بيلى فى كتابه « حياة بلزاك » والذى أترجمه هنا :

«كان آخر خطاب تلقيته منك بتاريخ نوفمبر عام ١٨٣٤ . وقد وافقت فيه على أن تعطينى مائتى فرنك كل ثلاثة أشهر ، اعتباراً من أول إبريل عام ١٨٣٥ ، لتساعدنى على تسديد قيمة الإيجار وأجر الخادمة . وأنت تدرك أننى لا أستطيع العيش فى حدود فقرى ، لقد بلغ من ارتفاع صيتك ووضوح بذخك أن الاختلاف بين وضعينا يدعو إلى الاستياء . وأعتقد أن مثل هذا الوعد الذى قطعته على نفسك لى هو بالنسبة لك دين معترف به . ونحن الآن فى إبريل عام ١٨٣٧ ، أى أنك مدين لى مقدار عامين . ولقد اعطيتنى ، من هذه الألف وستمائة فرنك . مبلغ خمسمائة فرنك فى ديسمبر الماضى كما لو كانت إحساناً تجود به فى غير لطف . أونوريه : لقد ظلت حياتى لعامين ، كابوسا مقيما ، كما بلغت نفقاتى حداً هائلا . وأنت لم تستطع مساعدتى فى الماضى ، أنا لاأشك فى هذا ، ولكن النتيجة هى أن المبالغ التى اقترضتها على حساب منزلى نقصت قيمتها ، والآن لم أعد أستطيع اقتراض

المزيد ، وقد رهنت كل ماله قيمة لدى ، لقد وصلت أخيراً إلى اللحظة التى أقول لك فيها وأنا مرغمة « اعطنى خبزاً ، ياولدى » ، « وقد ظللت أسابيع آكل ما يمنحه لى زوج ابنتى الطيب ، ولكن ، يا أونوريه ، لايمكن للأمور أن تمضى على هذا النحو : وأنا أعرف أن لديك الوسائل التى تيسر لك القيام بما تشاء من الرحلات الطويلة التى تكلف كثيراً ، تكلف كثيراً من ناحية المال ، وتكلف أيضاً من ناحية السمعة — وستتعرض لصدمة كبيرة عندما تعود ، فلقد فشلت فى الوفاء بعقود كثيرة — عندما أفكر فى كل هذا ينفطر قلبى ! يا بنى ، مادمت قادراً على أن تيسر لنفسك . . . عشيقات ، عصى مطعمة ، وخواتم ، وفضيات ، ورياش ، فإن أمك قد تسألك أيضاً ودون ما تحفظ أن تفى بوعدك . لقد ظلت ترجئ ذلك حتى اللحظة الأخيرة ، وهاهى قد حانت ...»

وقد رد على هذا الخطاب بقوله : « أعتقد أن من الأفضل أن تحضرى إلى باريس وتتحدثى معى ساعة ».

ما قولنا فى هذا ؟ يقول مترجم حياته إنه لما كان للعبقرية حقوقها ، فإنه لاينبغى الحكم على أخلاقية بلزاك بالمقاييس العادية . إنها مسألة رأى . وأعتقد أن من الأفضل الاعتراف بأنه كان أنانيًّا بصورة بشعة ، متهوراً إلى حد كبير ، ولم يكن أمينا جدًّا . وأقصى ما يمكن أن ننتحله من أعذار لتهوره المالى أنه بمزاجه المتساهل المتفائل كان موقناً على الدوام بأنه سيكسب مبالغ طائلة من كتاباته (وكان قد استطاع فى هذا الوقت أن يكسب الكثير) وأنه سيحصل على مبالغ خرافية من التصورات التى كانت تثير خياله المتحمس الواحدة تلو الأخرى . ولكنه ما يكاد ينشغل فى إحداها بالفعل حتى ينتهى منها وهو أكثر غرقاً فى الديون . وما كان من الممكن أن يصبح الكاتب الذى نعرفه لوكان شخصاً متعقلا، عملياً، مقتصداً . وكان يعمل فى الغالب ليستطيع الوفاء بالتزاماته، ولكنه لسوء الحظ كان قبل أن يسدد ديونه الملحة ، يتورط فى ديون جديدة . وهناك حقيقة غريبة جديرة بالذكر . فقد كان لايستطيع أن يهيئ نفسه للكتابة إلا تحت ضغط الديون . وعندئذ يظل يعمل حتى يشحب ويذوى ، وفى ظل هذه الظروف كتب عدداً من أفضل رواياته، أما حين كان ينجو، بمعجزة ما ، من الأزمات المالية الملحة ،

ويتركه أصحاب الرهونات فى سلام ، ولايتخذ المحررون والناشرون إجراءات ضده ،
كانت ملكة الإبداع تتخلى عنه فيما يبدو ، ولايستطيع أن يهيىء نفسه للسير بالقلم
على الورقة .

وجلب النجاح الأدبى لبلزاك ، كما هو شأن النجاح دائماً ، كثيراً من الأصدقاء
الجدد . وجعلته حيويته الهائلة ، وروحه المرحة المتألقة ، يحظى بكل ترحيب فى
كافة الصالونات ماعدا الخاص منها جداً ، وقد اجتذبت شهرته سيدة عظيمة هى
الماركيزة دى كاستريز ابنة أحد الدوقات وابنة أخت دوق آخر ينحدر من سلالة
جيمس الثانى ملك إنجلترا . كتبت إليه تحت اسم مستعار ، ورد عليها ، فكتبت إليه
ثانية مسفرة عن شخصيتها . وذهب للقائها وتوثقت عرى الألفة بينهما ، وسرعان
ما أصبح يزورها كل يوم . كانت شاحبة ، شقراء ، أشبه بالزهرة . . . ووقع
فى غرامها ، ولكن بالرغم من أنها سمحت له بتقبيل يديها الأرستقراطيتين إلا أنها
قاومته عندما حاول التقدم أكثر من هذا . وكان يضمخ نفسه بالعطر ، ويلبس يومياً
قفازاً جديداً أصفر اللون دون جدوى . وبدأ صبره ينفد وصدره يضيق ، وبدأ
يشك فى أنها تلعب به . والحقيقة الواضحة هى أنها كانت تريده معجباً لاعاشقاً .
فإنه لمما يدعو للزهو بلاشك أن يكون عند قدميها شاب ذكى ، مشهور بالفعل ،
ولكن لم تكن لديها النية فى أن تصبح عشيقته . وحلت الأزمة فى جنيف ، حيث
أقامت برهة مع عمها الرقيب ، الدوق فيتز جيمس وكانا فى طريقهما إلى إيطاليا .
ولا أحد يعرف ما حدث بالضبط . فقد خرج بلزاك والماركيزة فى نزهة ، وعاد
والدموع فى مآقيه . وأغلب الظن أنه طلب منها تحقيق بعض أغراضه فأبت عليه
بطريقة جرحت مشاعره بصورة عميقة. وعاد إلى باريس متألما مغضباً وقد شعر أنه
عومل بغلظة . ولكنه لم يكن بالكاتب الروائى عبثاً . فإن كل تجربة ، حتى أكثرها
مهانة كانت تدخل فى طاحونته لقد استغل الماركيزة دى كاسترى فيما بعد كنموذج
لعبث الطبقة الراقية القاسى .

وبينما كان بلزاك لايزال يرسم حصاراً فاشلا حول السيدة العظيمة تلقى خطاب
إعجاب من أوديسا بتوقيع « الغريبة » . ثم وصله خطاب آخر ، بعد القطيعة ،
بنفس التوقيع ، فما كان منه إلاأن نشر إعلاناً فى الصحيفة الفرنسية الوحيدة المصرح

لها بدخول روسيا : « تلقى السيد دى ب الرسالة المبعوثة إليه ، ولم يستطع أن يبلغ عن وصولها سوى اليوم فقط عن طريق هذه الصحيفة ، وهو يأسف لأنه لايعرف العنوان الذى يبعث إليه برده » أما التى كتبت الخطاب فكانت إيفلين هانسكا وهى سيدة بولندية نبيلة المولد عظيمة الثروة . كانت فى الثانية والثلاثين ، متزوجة ، وكان فارق السن بين الزوجين كبيراً . وكان لديها خمسة أطفال ، لم يعش لها منهم سوى طفلة واحدة . وقرأت إعلان بلزاك ودبرت الأمر على أن تتلقى خطابات ، إذا كتب إليها ، عن طريق صاحب مكتبة فى أوديسا . وجرت المراسلات بينهما .

وهكذا بدأت العاطفة الكبيرة فى حياة بلزاك ، وزادت الألفة فى الخطابات المتبادلة بينهما . وقد كشف بلزاك عن قلبه بطريقة ذلك العصر التى تقرب من المبالغة لإثارة شفقة السيدة وتعاطفها معه . . وكانت سيدة رومانسية ، برمة برتابة الحياة المنزلية فى قصرها الكبير بأوكرانيا وسط خمسين ألف فدان من الأرض المسطحة . وأعجبت بالمؤلف ، واهتمت به كرجل . وبينما كانا يتبادلان الرسائل لمدة عامين ، سافرت مدام هانسكا مع زوجها ، الذى ساءت صحته ، وابنتها ، والمربية وحاشية الخدم إلى نيفشاتل بسويسرا ، وذهب بلزاك إلى هناك أيضا بدعوة منها . ولدينا وصف رومانتيكى — وربما كان مختلفاً — للقائهما . كان بلزاك يتمشى فى الحدائق عندما لمح سيدة جالسة على مقعد تقرأ كتاباً . وأسقطت منديلها ، وإذ التقطه بلزاك لاحظ أن هذا الكتاب من تأليفه . فتكلم . وكانت هى المرأة التى حضر لرؤيتها . وكانت فى ذلك الحين مخلوقة حلوة التقاطيع ، ذات فتنة ساحرة ، عيناها رائعتان ، رغم ما بهما من حول طفيف ، وشعرها جميل وفمها جذاب ، وربما صدمت بعض الشىء عندما لمحت للوهلة الأولى ذلك الرجل البدين ، ذو الوجه الأحمر ، الذى يشبه الجزار فى مظهره ، والذى كتب لها كل هذه الخطابات الغنائية الملتهبة ، ولكن إذا كانت صدمت حقاً ، فإن تألق عينيه المشربتين بلون الذهب ، وحيويته الفائقة ، جعلاها تنسى الصدمة ، وسرعان ما أصبح عشيقها . وبعد عدة أسابيع اضطر إلى العودة إلى باريس ، وافترقا على أن يلتقيا ثانية فى أوائل الشتاء فى جنيف . ووصل فى عيد الميلاد فى «الكريسماس» وقضى هناك ستة أسابيع كتب أثناءها « دوقة لانجيز » وقد ثأر فيها لنفسه من مدام دى كاسترى ، على الإهانة التى عذبته بها .

وإذ عاد إلى باريس التقى بكونتيسة تدعى جويدوبونى — فيسكونتى كانت شقراء باون الرماد ، شهوانية ، وهى إنجليزية ومعروفة بعدم إخلاصها لزوج خنوع ، وسرعان ما سحرت بلزاك . وصارت عشيقته . لكن العشاق فى تلك الأيام كانوا يتصرفون فى علاقاتهم الغرامية كما لو كانت منشورة فى الصفحة الأولى من المجلات الصغيرة ، وسرعان ما سمعت مدام دى هانسكا ، التى كانت تعيش وقتئذ فى فينا ، بأن عشيقها يخونها . فكتبت إليه خطاباً ،مليئا بعبارات اللوم المر ، وأبلغته فيه أنها على وشك الرجوع إلى أوكرانيا ، وكانت ضربة له . كان يعلق أمله على الزواج منها بعد أن يموت زوجها ، تلك الوفاة التى أقنع نفسه بأنها لن تتأخر طويلا ، وعندئذ يصبح المتصرف فى ثروتها الطائلة . واقترض ألفين من الفرنكات وأسرع إلى فيينا لإصلاح الأمر . سافر على أنه المركيز دى بلزاك ، وأوسمته المزيفة مسجلة على أمتعته ، مصطحباً معه تابعاً خاصًّا ، وضاعف هذا من نفقات الرحلة ، فلم يكن يتفق وكرامته أن يدقق الحساب مع أصحاب الفنادق ، كما أنه كان مضطرًّا إلى السخاء فى البقشيش بما يتناسب والرتبة التى ادعاها لنفسه . وهكذا وصل مفلساً . وانهالت عليه مدام هانسكا بمزيد من التقريع ، واضطر أن يحنى رأسه لها ويسايرها حتى يخفف من شكوكها . وبعد مضى ثلاثة أسابيع رحلت الى أوكرانيا ، ولم يلتقيا ثانية لمدة ثمانية أعوام .

عاد بلزاك إلى باريس ليستأنف علاقاته بالكونتيسة جويدوبونى . واندفع من أجلها فى الإسراف بطريقة أشد من أى وقت مضى . وألقى القبض عليه بسبب الديون ، وسددت هى المبلغ المطلوب ، وكان مبلغاً كبيراً ، حتى تنقذه من السجن . ومن ذلك الحين وهى تخف من وقت لآخر لنجدته كلما تأزمت حالته المالية . وفى عام ١٨٣٦ ماتت مدام دى برنى ، عشيقته الأولى ، وحزن لموتها حزناً شديداً ، وقد قال عنها إنها كانت المرأة الوحيدة التى أحبها : وقال آخرون إنها كانت المرأة الوحيدة التى أحبت بلزاك .

وفى نفس العام أخبرته الكونتيسة الشقراء أنها حملت طفلا منه . وعندما وضعت الطفل ، قال الزوج المتسامح : « حسن ، أعرف أن السيدة كانت تريد طفلا أسمر اللون ، وهاهى قد حصلت على ما كانت تريده » . وبهذه المناسبة نستطيع

أن نقول إن الروائى الكبير أنجب فى حياته الغرامية ، ولداً وثلاث بنات من عشيقاته الكثيرات . ويبدو أنه لم يكن يلقى لذلك بالا كبيراً ، وكان فريداً فى هذا الأمر . وسأذكر علاقة واحدة فقط من بين علاقاته الأخرى ، وكانت مع أرملة تدعى هيلين دى ڤاليت ، لأنها بدأت كما بدأت علاقاته مع المركيزة دى كاسترى ومدام هانسكا ، بخطاب إعجاب . ومن الغريب أن تبدأ ثلاث علاقات من بين علاقاته الغرامية الخمس الرئيسية بهذه الطريقة . وربما كان هذا هو السبب فى أنها لم تكن علاقات مرضية . فالمرأة عندما تنجذب إلى رجل بسبب شهرته فإن الذى يعنيها جداً هو الفخر والجاه الذى قد تنعم به لارتباطها به ، ومن ثم تعجز عن نعمة الشعور المنزه عن الغرض الذى يثيره الحب الأصيل . إنها استعراضية محرومة تتحين الفرص لإشباع غريزتها . ولم تستمر العلاقة طويلا مع هيلين دى ڤاليت ، ويبدو أنها انتهت على أثر خلاف نشب بينهما بسبب عشرة آلاف فرنك استدانها بلزاك منها .

وأخيراً حانت اللحظة التى انتظرها بلزاك طويلا . فقد مات السيد هانسكا عام ١٨٤٢ . أخيراً تتحقق أحلامه . أخيراً سيغدو ثرياً . أخيراً سيتخلص من ديونه البورجوازية الصغيرة . لكن الخطاب الذى أخبرته فيه إيفلين بموت زوجها أعقبه خطاب آخر أبلغته فيه أنها لن تتزوجه . لاتستطيع أن تغفر له خياناته ، وإسرافه ، وديونه. لقد أصابته بيأس قاتل . لقد قالت له فى ڤيينا إنها لا تتوقع أن يخلص لها بجسده طالما أنها تمتلك قلبه . حسن ، لقد كان لها قلبه دائماً . واستبد به الغضب من ظلمها . وانتهى به الرأى إلى أنه لا يستطيع كسبها من جديد إلا إذا ذهب لمقابلتها ، وهكذا ، وبعد عدد كبير من المراسلات ، ورغم ترددها ، قام بالرحلة إلى سانت بطرسبرج حيث كانت تقيم . وقد صح ما كان يتوقعه ، كانا قد ترهلا وصارا فى أواسط العمر ، كان هو فى الثالثة والأربعين وهى فى الثانية والأربعين ، ولكن يبدو أنها لم تكن تستطيع أن ترفض له طلباً عندما تكون معه . وصارا عشيقين من جديد ، ووعدته من جديد بالزواج منه . ولكن مضت سبع سنوات قبل أن تفى بهذا الوعد . وقد وقع مترجمو حياته فى حيرة لعجزهم عن معرفة سبب ترددها الطويل هذا ، ولكن من المؤكد أن الأسباب ميسرة . لقد كانت سيدة

عظيمة ، فخورة بسلالتها النبيلة ، ومن المحتمل جداً أنها لمست وجوداختلاف كبير بين أن تكون عشيقة لمؤلف مشهور وبين أن تكون زوجة لرجل سوقى حديث النعمة . ولابد أن عائلتها بذلت كل مافى وسعها لمنعها من عقد مثل هذا الزواج غير المتكافئ ، وكانت لها ابنة على وشك الزواج ومن واجبها أن تزوجها بمن يتناسب مع مركزها وظروفها . وكان بلزاك مشهوراً بإسرافه ، وربما تكون قد خشيت أن يعبث بثروتها ويغامر بها . لقد كان فى حاجة دائمة إلى نقودها . لم يكن يمد يده إلى كيس نقودها ، وإنما كان يغترف بكلتا يديه . وكانت موسرة ، ومسرفة أيضاً ، ولكن ، فرق بين أن تبعثر نقودك على ملذاتك الخاصة وبين أن يبعثرها لك شخص آخر على ملذاته هو .

وليس الغريب أن إيفلين هانسكا انتظرت كل هذا الوقت حتى تزوجت بلزاك ، وإنما الغريب أنها تزوجته بالفعل . وخلال هذه السنوات السبع كانا يلتقيان من حين لآخر ، وحملت منه مدام هانسكا بسبب إحدى هذه المقابلات . وابتهج بلزاك لذلك . وظن أنه انتصر أخيراً ، وتوسل إليها أن تتزوجه على الفور ، ولكنها ، وهى التى لاتحب أن تجبر على شىء ، كتبت إليه أنها عزمت بعد فترة من الاعتكاف على أن تعود إلى أوكرانيا حتى تقتصد فى النفقات وأنها سوف تتزوجه فيما بعد . وولد الطفل ميتا . كان ذلك فى عام ١٨٤٥ أو ١٨٤٦ . وتزوجت بلزاك عام ١٨٥٠ ولقد أمضى بلزاك الشتاء معها فى أوكرانيا ،وتمت مراسم الزواج هناك .

لماذا وافقت فى النهاية ؟ لقد تحطمت بنيته القوية وتضعضعت صحته تحت تأثير العمل الطويل الحاد . وأثناء الشتاء كان مريضاً جدا ، وكان من الواضح أنه لن يعمر طويلا بالرغم من شفائه . وربما تأثرت بدافع الشفقة لرجل فى طريقه إلى القبر ، رجل كان بالرغم من خياناته ، يحبها دائماً حباً حاراً ، وربما كان الكاهن الذى كانت تعترف له ، وقد كانت امرأة متدينة ، هو الذى حثها على أن تعالج وضعها الشاذ . مهما يكن الأمر فقد تزوجته ، وعادا إلى باريس حيث اشترى بمالها منزلا كبيراً أثثه فى إسراف . ولكنها لم تعد غنية مثلما كانت . فقد تنازلت عن ممتلكاتها الواسعة لصالح ابنتها واستبقت لنفسها فقط إيراداً سنوياً متوسطاً . وإذا

كان بلزاك قد شعر بخيبة أمل فانه لم يفصح عن ذلك. ولكنه لمن المحزن أن نقول إنه بعد كل هذا الانتظار ، المتعطش ، وبعد أن تحققت آماله فى النهاية ، يفشل هذا الزواج . لقد جعلته إيفلين شقياً . وعاوده المرض مرة أخرى ، ولم يستعد صحته فى هذه المرة . ومات فى السابع عشر من شهر أغسطس عام ١٨٥٠ . وتحطم قلب إيفلين ، وفى رسالة كتبتها لصديقة قالت إنها لاتريد الآن شيئاً سوى اللحاق بزوجها فى العالم الآخر ، ومع ذلك ، فقد سرت عن نفسها نوعاً واتخذت لها عشيقاً وكان رساما يدعى جان جيجو ، وينادى ببو — جرى (أى القملة الرمادية) نظراً لقبح منظره . ويبدو أنه لم يكن رساماً ممتازاً .

وليس من السهل أن نختار من بين إنتاج بلزاك الضخم رواية تمثله أفضل تمثيل . إذ يوجد فى كافة رواياته تقريباً شخصيتان أو ثلاثة على الأقل تبرز بقوة غير عادية لأنها مدفوعة بعاطفة بسيطة بدائية . ففى تصويره لمثل هذه الشخصيات تكمن قدرته ، أما عندما يعالج شخصية بها أى تعقيد فإن التوفيق يجانبه . ويوجد فى كل رواياته تقريباً مشاهد بالغة القوة ، ويوجد فى عدد منها قصص تستحوذ على القارئ. وقد اخترت رواية « الأب العجوز جوريو » لأسباب عدة . فالقصة التى تحكيها مشوقة باستمرار . إن بلزاك فى بعض رواياته يقطع السرد ليتحدث فى مختلف الأمور غير المتعلقة بالقصة ، ولكن رواية « الأب العجوز جوريو » مبرأة من هذا العبث بوجه عام . فقد ترك الشخصيات تعبر عن نفسها بكلماتها وأفعالها الخاصة بطريقة موضوعية ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إن رواية « الأب العجوز جوريو » محكمة البناء ، ويتشابك الخيطان الموجودان فيها ، بطريقة مقنعة ، وهما تضحية الرجل العجوز بنفسه بسبب حبه لبناته ناكرات الجميل والخطوات الأولى التى خطاها رستيناك الطموح فى باريس المزدحمة ، الفاسدة فى ذلك الحين . كما أن رواية « الأب العجوز جوريو » مهمة أيضا لأن بلزاك طبق فيها ، لأول مرة ، وبنظام ، فكرة تناول نفس الشخصيات فى رواية تلو أخرى . والصعوبة هنا أنك مطالب بخلق شخصيات يبلغ من اهتمامك بها أنك تريد أن تعرف ماذا سيحدث لها على مر الأيام. وقد حقق بلزاك هنا نجاحاً ظافراً ، وقد قرأت شخصياً ، بمتعة متزايدة ، الروايات التى أعرف فيها ما يحدث لشخصيات معينة مثل راستيناك ، الذى كنت تواقاً إلى معرفة

مصيره . وهذه الطريقة مفيدة لأن فيها اقتصاداً فى الابتكار ، ولكنى لا أظن أن بلزاك ، بخصوبته التى لاتنفد ، قد لجأ إليها لهذا السبب . وأعتقد أنه شعر بأنها تضفى مزيداً من الواقعية على حكايته ، ذلك لأننا — فى تسلسل الأحداث العادى— نتصل بصورة متكررة بنفس الأشخاص إلى حد كبير . وأكثر من هذا أننى أعتقد أن غرضه الرئيسى هو أن يدمج عمله كله فى وحدة شاملة . لم يكن غرضه تصوير طائفة ، أومجموعة ، أو طبقة أو حتى مجتمع ، وإنما تصوير عصر ، ومدنية . فقد سيطر عليه الوهم ، الذى كان شائعاً جداً بين مواطنيه ، بأن فرنسا هى مركز الكون ، مهما نزلت بها الكوارث ، ولكن ربما السبب نفسه كان لديه الاعتداد بالنفس الذى يجعله يخلق عالماً ، متعدد الألوان ، متنوعا ، خصباً ، ويجعله قادراً على أن يضفى على هذا العالم من نبض الحياة ما يحمل على الإقناع .

على أن هذا يتعلق بـ « الكوميديا الإنسانية » ككل . غير أن الذى يعنينا هنا هو رواية « الأب العجوز جوريو » . وأعتقد أن بلزاك أول روائى استخدم المنزل كمكان تدور فيه أحداث قصة . ومنذ ذلك الحين والمنزل يستخدم مرات عديدة . لأنه وسيلة ملائمة . تمكن المؤلف من أن يعرض لمختلف الشخصيات معاً فى مختلف المشاكل ، ولكن لا أعرف أنها استخدمت بمثل هذه البراعة الفائقة التى استخدمت بها فى « الأب العجوز جوريو » .

وكان بلزاك يبدأ رواياته بطيئاً . ويتلخص منهجه فى البدء بوصف تفصيلى لمسرح الأحداث . وهو فيما يبدو يجد متعة كبيرة فى هذه الأوصاف حتى إنه غالباً ما يقول لك أكثر مما تريد أن تعرفه . ولم يتعلم بلزاك أبداً فن قول ما ينبغى أن يقال فقط ، وعدم قول مالاداعى إلى قوله ، وبعد هذا يأخذ فى وصف شخصياته ، وأوضاعها ، ونشأتها وعاداتها ، وأفكارها ، وعيوبها ، وبعد هذا فقط يبدأ فى سرد قصته . وتتكشف شخصياته من خلال مزاجه المتطرف ، وليست واقعيتها هى تماماً واقعية الحياة ، فهى مرسومة بألوان أولية ، ألوان حية ، وأحياناً لامعة مزينة ، وهى أكثر إثارة من الناس العاديين ، ولكنها تعيش وتتنفس ، وأنت تؤمن بهما ، وذلك فيما أعتقد لأن بلزاك نفسه كان مقتنعاً بها جداً . وفى عدد من رواياته يظهر طبيب

مخلص ، ماهر ، يدعى بيانشون Bianchon وقد قال بلزاك وهو يحتضر : استدعوا بيانشون ، إن بيانشون سينقذنى ».

ورواية « الأب العجوز جوريو » جديرة بالعناية أيضاً لأننا نلتقى فيها لأول مرة بشخصية من أكبر الشخصيات المثيرة التى خلقها بلزاك . إنها شخصية ڤوترين Vautrin وقد تم تقليد هذا الشخصية ألف مرة ، ولكن ليس بمثل هذه القوة المذهلة الخلابة ، ولا بمثل هذه الواقعية المقنعة . ويتمتع ڤوترين بذهن صاف ، وإرادة قوية وحيوية دافقة . ويجدر بالقارئ أن يتوقف هنيهة ليلاحظ كيف استطاع بلزاك ببراعة ، ودون أن يكشف عن السر الذى يريد الاحتفاظ به حتى نهاية الكتاب ، أن يوحى بأن ثمة شيئاً بشعاً فى هذا الرجل . إنه مرح ، كريم ، وطيب إنه قوى البنية ، ذكى إلى درجة غير عادية ، واثق بنفسه فأنت لاتعجب به فحسب ، بل تتعاطف معه أيضاً ، ومع ذلك فهو يبعث على الرهبة بصورة غير عادية . إنه يسحرك ، مثلما سحر به راستيناك ، ذلك الشاب الطامح الطبيب النشأة الذى قدم إلى باريس ليشق طريقه فى الحياة، ولكنك تشعر وأنت فى صحبته ، بنفس ما شعر به راستيناك من عدم ارتياح غريزى . وقد يكون فوتران شخصية ميلودرامية ولكنها شخصية تدل على إبداع عظيم .

ومن المتفق عليه أن بلزاك قد كتب برداءة . فقد كان مبتذلا (ومع ذلك لم يكن ابتذاله هذا جزءاً مكملا لعبقريته ؟) وكذلك النثر الذى كتبه كان متبذلا. إذ كان مطولا استعراضياً ، وفى أغلب الأحيان غير سليم ، وقد خصص أميل فوجيه ، وهو أحد النقاد البارزين جداً فصلا كاملا فى كتابه عن بلزاك لعرض أخطاء الذوق والأسلوب ، وتركيب الجملة ، وكذلك الأخطاء اللغوية التى وقع فيها المؤلف . والواقع أن بعض هذه الأخطاء كانت جسيمة بحيث لاتحتاج إلى معرفة متعمقة باللغة الفرنسية لإدراكها فهى أخطاء مفزعة للغاية . ومن المسلم به حالياً أن تشارلز ديكنز لم يكتب الإنجليزية أيضاً بدرجة جيدة جداً ، كما أخبرنى بعض المثقفين الروس أن تولستوى ودستويفسكى كانا يكتبان الروسية بدون اعتناء . ومن الغريب أن يكون الأربعة الروائيون العظام الذين عرفهم العالم قد كتبوا لغاتهم المحترمة بطريقة سيئة للغاية . ويبدو كما لو كانت إجادة الكتابة جزءاً غير جوهرى

من عدة الروائى ، أما هذه القوة والحيوية ، والخيال ، وقوة الإبداع ، والملاحظة ، ومعرفة الطبيعة الإنسانية مع الشغف بها والتعاطف معها ، كذلك الخصوبة والذكاء فهى أمور أكثر أهمية. ومع ذلك فإنه من الأفضل أن تكون الكتابة بطريقة جيدة على أن تكون بطريقه رديئة .

هنرى فيلدنج
و
توم چونز

من الصعب أن نكتب عن هنرى فيلدنج Henry Fielding الرجل ، لأننا لا نعرف من أخباره الكثير . ولقد كتب آرثر ميرفى Arthur Murphy سيرة لحياته عام ١٧٦٢ ، أى بعد ثمانى سنوات فقط على وفاته ، مقدما طبعة تتضمن مؤلفاته ، ولكن يبدو أن ميرفى لم يكن يعرف فيلدنج شخصياً ، وأن المادة التى بين يديه كانت قليلة جداً إلى حد أنه انشغل فى استطرادات طويلة مملة كى يستطيع — فيما أعتقد — ملء الثمانين صفحة التى تشغلها مقالته . إن الحقائق التى يذكرها قليلة ، ولقد أثبت البحث بعد ذلك أنها غير دقيقة . والكتاب الذين جاءوا بعد ذلك بذلوا جهدهم لكى يثبتوا أن فيلدنج كان أبعد من أن يكون ذلك المخلوق المنحل الذى رسمته الأسطورة ، ولكنهم — لسوء الحظ — أحالوه إلى شخص أقل جاذبية ، أثناء محاولتهم جعله أكثر احتراماً . لقد مالوا إلى التشكك فى الحقيقة الواضحة ، وهى أنه كان رجلا ذا حيوية دافقة وشهوات جامحة . وليس هناك من سبب يدعو إلى أن نتوقع أن يكون الرجل الذى تعجب بكتبه أنموذجا للكمال . إذ لا دخل لشخصية الكاتب الأخلاقية فى جودة كتبه أو رداءتها . إن الحياة هى مادة الكاتب الروائى ، وينبغى عليه ، لكى يكتب عنها بأمانة ، أن ينغمس فى تقلباتها حتى الثمالة ، ذلك لأنه لن يعرف الكثير إذا هو نظر إليها من خلال ثقب الباب ، ولكن ليس هناك ، فى الواقع ، مايدعو إلى إدانة فيلدنج ، فإن عيوبه كما هى ، عيوب بشرية تماماً ، ولا يمكن أن يصدم بها حقًّا غير شخص متزمت أحمق .

لقد ولد فيلدنج جنتلمانا ، فوالده الضابط بالجيش ، والذى ارتقى ليصبح جنرالا ، كان الابن الثالث لجون فيلدنج ، قسيس سالزبرى ، الذى كان بدوره ، الابن الخامس لإيرل أوف ديزموند . وكان آل ديزموند عبارة عن فرع صغير ينحدر من عائلة

دينبى التى كانت تفخر بانحدارها من عائلة هابسبرج . وفى السيرة الذاتية التى كتبها جيبون مؤلف « انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » كتب يقول : « قد ينكر خلفاء شارل الخامس إخوتهم فى إنجلترا ، ولكن رواية « توم چونز » ، تلك الصورة الرائعة لسلوك البشر ستعيش بعد أن يفنى قصر الأسكوريال والنسر الإمبراطورى لبيت النمسا » إنها عبارة جميلة ، ومما يدعو للرثاء أنه ثبت أن ادعاء هؤلاء اللوردات النبلاء لم يكن له أساس من الصحة . كانوا يتهجون اسمهم Feilding ، وقد قرأت مرة أن الإيرل وقتذاك سأل هنرى فيلدنج : كيف حدث ذلك ، فأجاب بقوله : « لا أستطيع إلا أن أقول إن مرجع ذلك أن فرعى من العائلة تعلم التهجى قبل فرع سيادتكم » .

تزوج والد فيلدنج من ساره ، ابنة هنرى جولد ، القاضى بالمحكمة الملكية ، وولد مؤلفنا فى مقره الريفى عام ١٧٠٧ . وبعد مضى ثلاث سنوات أنجبت العائلة خلالها ابنتين ، إلى جانب هنرى ، انتقلوا إلى ايست ستور فى دور سيتشاير ، وهناك أنجبوا ثلاث بنات أخريات وولداً . وتوفيت مسز فيلدنج عام ١٧١٨ والتحق هنرى فيلدنج فى هذه الفترة تقريباً بجامعة ايتون . وهناك عقد بعض صداقات ثمينة . وهو وإن كان قد تخرج — كما يقول آرثر ميرفى — « وهو غير ملم بصورة بارزة بالمؤلفين اليونان ، وبالروائع اللاتينية ، إلا أنه ألم بالقدر الذى مكنه بعد ذلك من « تحبيش » نثره بأقوال مأثورة لهؤلاء الكتاب » . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهو الوقت الذى يبدو أنه ترك فيه المدرسة كان يبشر بطراز الرجل الذى سيكونه بعد ذلك . وقد تصادف أن كان مقيما فى لايم رجيس مع خادم يثق فيه ، خادم على استعداد لأن « يضرب أو يشوه ، أو يقتل أى شخص من أجل سيده » وهناك وقع فى غرام آنسة تدعى ساره اندروز ، وكانت لها ثروة طائلة ضاعفت من سحر جمالها . فدبر خطة للهرب بها والزواج منها حتى لو اقتضى الأمر استخدام القوة . ولكن الخطة اكتشفت ، وأبعدت الشابة عنه ، وزوجت فى أمان بخطيب آخر أكثر أهلية لها .

حدث هذا عام ١٧٢٥ . وكان فيلدنج حسن المظهر ، يزيد طوله على ست أقدام ، وكان قوياً ونشطاً ، وكانت له عينان عميقتان سوداوان ، وأنف رومانى . وشفة عليا قصيرة « مقلوبة » بشكل ينم عن السخرية ، وذقن عنيد بارز . كان

نشطا وقوياً، ولديه مقدرة هائلة على الاستمتاع بالحياة ، وكان بنيانه القوى يسمح له بتقبل أى إفراط . ومبلغ علمنا أنه قضى السنتين أو الثلاث سنوات التالية فى لندن، منغمساً فى مباهج المدينة بما يتناسب مع شاب ذى علاقات وطيدة عندما يكون وسيما خلابا . وفى عام ١٧٢٨ كتب مسرحية سماها «الحب فى أقنعة كثيرة» . ولاقت المسرحية شيئاً من النجاح . ويستطيع المرء أن يخمن ، إذا شاء ، أن والده حاول الضغط عليه لإعداده لكسب عيشه بطريقة أكثر استقراراً من الكتابة للمسرح ، والتحق بجامعة ليدن طالبا فى القانون . لكن والده كان قد تزوج ثانية ، وامتنع مضطراً أو مختاراً عن مد ولده بالراتب الذى وعده به مما اضطر فيلدنج إلى الرجوع إلى إنجلترا بعد مضى عام تقريباً . ولقد بلغ من حدة ضائقته المالية أنه لم يكن أمامه — كما يعبر هو بطريقته المرحة — إلا أن يعمل سائقاً أجيراً أو كاتباً أجيراً .

ويقول أوستن دوبسون الذى كتب سيرة فيلدنج فى سلسلة رجال الأدب الإنجليزى إن « ميوله والفرص المتاحة أمامه قادته إلى خشبة المسرح » فقد كان يتمتع بروح مرحة ، وقدرة على الفكاهة ، وملاحظة دقيقة لاذعة لما يجرى حوله ، وهى صفات ضرورية للكاتب المسرحى ، ويبدو أنه كان يتمتع إلى جانب هذا بشىء مثل المهارة والقدرة على البناء . والمرجح أن « الميول » التى تحدث عنها أوستن دوبسن لاتعنى إلا أن فيلدنج كان محباً للاستعراض وذلك جزء لايتجزأ من تكوين الكاتب المسرحى ، وإنه كان ينظر إلى الكتابة للمسرح كوسيلة سهلة للربح السريع ، وربما كان يريد بكلمة « الفرص » أن يقول بطريقة مهذبة أن فيلدنج كان شاباً وسيماً يتمتع برجولة متدفقة، وأنه أعجب بممثلة مشهورة . وكان فيلدنج يؤلف فيما بين سنة ١٧٣٠ وسنة ١٧٣٦ — مسرحيتين أو ثلاث مسرحيات كل عام، من النوع الكوميدى أو الفارس Farce وكانت المسرحيتان الأخيرتان عبارة عن هجوم على الفساد السياسى الذى كان سائداً فى عصره ، ولقد بلغ من تأثير هذا الهجوم أن أصدرت الوزارة قانون ترخيص تجبر به مديرى المسارح على الحصول بارزة فى الأمن على ترخيص اللورد تشمبرلين [1] قبل إنتاج أية مسرحية. وما زال هذا القانون سارى المفعول ، مما يؤرق المؤلفين البريطانيين . ولم يكتب فيلدنج بعد ذلك للمسرح

(١) مسئول فى القصر عن الرقابة والإشراف على خدم وحرس الملك كما هو مسئول أيضا عن إعطاء مديرى المسارح تراخيص قبل انتاج أية مسرحية (المترجمان) .

إلا نادراً ، وإن فعل ، فلا يكون هناك من سبب آخر سوى أنه أفلس أكثر من المعتاد .

ولن أزعم أنني قرأت مسرحياته ، ولكني أخذت أقلب فى صفحاتها فبدا الحوار طبيعياً وحيوياً ، ومن أطرف القطع التى قرأتها ذلك الوصف الذى كتبه لإحدى شخصياته – جريا على التقليد المتبع حينئذ – فى قائمة شخصيات مسرحية « توم ثامب العظيم Tom Thumb the Great » امرأة لاعيب فيها على الإطلاق سوى أنها تدمن الخمر قليلا » .

ومن الظواهر المعتادة رفض مسرحيات فيلدنج بشئ من الازدراء،ولاشك أنها تفتقر إلى الامتياز الأدبى الذى يفتقده الناقد وهو يقرؤها فى غرفة المكتبة بعد مضى مائتى عام على كتابتها . لكن المسرحيات تكتب لتمثل لا لتقرأ ، ومن الأفضل دون شك أن تكون المسرحيات ممتازة من الناحية الأدبية ، ولكن ليس هذا هو الذى يجعلها مسرحيات جيدة ، بل قد يكون سبباً فى جعلها أقل صلاحية للتمثيل (وهو ما يحدث غالباً) . وقد فقدت مسرحيات فيلدنج اليوم ما كان فيها من مزايا وذلك لأن الدراما فيها تعتمد على الأحداث الجارية مما جعلها وقتية مثل الصحيفة اليومية تقريباً ،ولكن لابد أنها كانت تتضمن بعض المزايا ، فلا رغبة أحد الشبان فى كتابة مسرحيات ولاضغط ممثلة أثيرة سيقنع مديرى المسارح بتمثيل مسرحية تلو المسرحية لهم مالم تحز رضى الجمهور . ذلك لأن الحكم النهائى فى هذه الحالات للجمهور . وما لم يتعرف مدير المسرح على ذوق الجماهير فإن مآله الإفلاس . وقد كانت مسرحيات فيلدنج تمتاز على الأقل بإقبال الجمهور على مشاهدتها . ولم يخدع فيلدنج نفسه بشأن قيمتها ، ولقد قال بنفسه إنه ترك الكتابة للمسرح فى الوقت الذى كان ينبغى عليه أن يبدأ فيه ، كان يكتب من أجل المال ولايحترم كثيراً عقل الجمهور . ويقول ميرفى « إن الكثيرين من أصدقائه الذين لايزالون على قيد الحياة يعلمون جيداً أنه عندما كان يتعاقد على تأليف مسرحية أو فارس Farce يعود إلى بيته متأخراً من إحدى الحانات وفى صبيحة اليوم التالى يسلم الممثلين مشهداً مكتوباً على الورق الذى يلف به التبغ والذى كان يبتهج له أشد الابتهاج » .

ويحكى ميرفى حكاية أخرى تبين بطريقة خلابة موقف فيلدنج من الجمهور .

فقد حدث أثناء بروفات الملهاة المسماة « يوم الزفاف Wedding Day » أن اعترض جاريك ، الذى كان يمثل دوراً فيها ، على أحد المشاهد وطلب من فيلدنج أن يحذفه . فقال له فيلدنج : « لا ، عليهم اللعنة ، إذا لم يكن المشهد جيداً فدعهم يكتشفون ذلك بأنفسهم » وتم تمثيل المشهد وإذا بالمتفرجين يعربون عن استيائهم بصوت مرتفع وانسحب جاريك إلى غرفة الممثلين حيث وجد المؤلف يساير عبقريته ويواسى نفسه بزجاجة شمبانيا . وكان فى هذه اللحظة قد شرب حتى الثمالة . ونظر إلى الممثل فى تحد وسحب الدخان تتهادى من جانب فمه وقال : « ماذاحدث ياجاريك ؟ لماذا يصفرون الآن ؟ » .

– لماذا ! . . إنه ذلك المشهد الذى رجوتك أن تحذفه ، كنت أعرف أنه لن ينجح ولقد أفزعونى لدرجة لن أستطيع معها أن أتمالك نفسى طوال الليلة ».

ويجئ رد المؤلف « لعنة الله عليهم ، لقد اكتشفوها ، أليس كذلك ! ؟»

وإذا كنت قد تناولت شيئاً لايعدو أن يكون حكاية صغيرة فى حياة فيلدنج ككاتب، فلأنى أعتقد أن ذلك كان له أهميته فى تطوره كروائى . فهناك عدد من الروائيين الأكفاء جربوا حظهم فى الكتابة للمسرح ، ولكن لا أظن أن أحداً منهم نجح . والحق أن هناك اختلافا كبيرا بين تكنيك المسرحية وتكنيك الرواية ، والخبرة بكتابة الرواية لاتعنى عند كتابة المسرحية أن أمام الروائى الفترة الزمنية التى يريدها لتطوير موضوعه ، وهو يستطيع أن يصور شخصياته بالدقة التى يريدهاوان يوضح من سلوكها للقارئ بالكشف عن دوافعها ، ويستطيع إذا كان ماهراً أن يضفى إمكانية الحدوث على مالايحتمل حدوثه ، وإذا كان موهوباً فى السرد فإنه يستطيع أن يتقدم بالتدريج نحو الذروة التى تكون أكثر روعة عندما يسبقها تمهيد طويل ، وهو ليس مطالباً بعرض الحركة وإنما بالكتابة عنها فقط ، وهو يستطيع أن يجعل الشخصيات تكشف بالحوار عن نفسها فى أى عدد ينشأ من الصفحات . أما المسرحية فتعتمد على الحركة . وأنا لاأعنى بالحركة بالطبع – حركة عنيفة كالسقوط من قمة شاهقة أو التمزق بفعل لغم ، فقد تنطوى مناولة شخص كوباً من الماء على دلالة درامية بالغة الأهمية . وقدرة المتفرجين على الانتباه محدودة جداً ، وينبغى جذب هذا الانتباه بأحداث متتابعة باستمرار ، لابد من حدوث أشياء

جديدة طوال الوقت ، وينبغي عرض الموضوع على الفور ، على أن يتطور فى خط محدد ، دون التفرع إلى موضوعات جانبية لاتتعلق بالخط الرئيسى وينبغى أن يكون الحوار واضحاً محدداً ، وأن يكتب بحيث يفهم السامع معناه على الفور دون أن يضطر إلى التوقف والتفكير ، ويجب أن تكون الشخصيات متناسقة فى وحدة بحيث يسهل على العين والذهن إدراكها ، ومهما بلغ من تعقيدها إلا أن التعقيد ينبغى أن يكون مقبولا . ولاتحتمل المسرحية النهايات المفككة ، مهما كانت تفاهة الخطأ إذ يجب أن ترتكز على أساس سليم ، ويجب أن يكون بنيانها متماسكا .

والكاتب المسرحى الذى اكتسب الصفات التى اعتبرتها ضرورية لكتابة مسرحية تجذب إليها الجمهور طوال الوقت : هذا الكاتب وهو ينعم بمميزات تجعل موقفه أفضل من غيره الذين لم يكتسبوا هذه الخبرة ، يبدأ فى كتابة الروايات . لقد تعلم كيف يوجز ، وتعلم قيمة الحدث السريع ، وتعلم عدم التلكؤ فى الطريق ، والتركيز على النقطة التى يعالجها ، والمضى بالقصة إلى الأمام ، كما تعلم كيف يجعل الشخصيات تكشف عن نفسها من خلال أقوالها وأفعالها دون الحاجة إلى الوصف ، وهكذا نجد أنه عندما يشرع فى الرسم على اللوحة الأكثر رحابة التى تتيحها له الرواية ، لايستفيد فقط من المميزات الخاصة بشكل الرواية ، ولكن خبرته ككاتب مسرحى ستساعده على خلق رواية نابضة بالحياة ، سريعة الحركة ، غنية بالدراما . وهذه صفات ممتازة يفتقر إليها بعض الروائيين الممتازين جداً ، بصرف النظر عن مزاياهم الأخرى . وأنا لا أستطيع أن أنظر إلى السنين التى قضاها فيلدنج فى كتابة المسرحيات على أنها قد ضاعت هباء ، بل على العكس أعتقد أن الخبرة التى اكتسبها وقتئذ قد أفادته كثيراً عندما شرع فى تأليف الروايات .

كان لايزال بالمسرح حينما تزوج شارلوت كرادوك ، وهى واحدة من ثلاث شقيقات كن يعشن فى سالزبرى ، ولايعرف عنها شئ سوى أنها كانت جميلة وفاتنة ، وقد صورها فيلدنج فى « صوفيا » ، ويستطيع قارئ رواية « توم چونز » أن يكون فكرة دقيقة عنها من خلال نظرة حبيبها وزوجها . وكان فيلدنج كزوج رقيقاً عاطفياً ، وإن لم يكن مخلصا جداً ، لأنه لايستطيع أن يتحول عن طبيعته . ولاشك أنه كان يندم على خياناته الزوجية ، وإن لم يمنعه هذا من الوقوع فى غرام أول امرأة جميلة كانت تصادفه . وقد حصل عن طريق شارلوت كرادوك على ١٥٠٠ جنيه .

ويقول مصدر مسئول إن هذا المبلغ كان دوطة ، ويقول آخر إنه كان وصية . ومهما يكن الأمر فإن فيلدنج بعد أن فشلت إحدى كوميدياته أخذ الدوطة ورحل إلى ضيعته الصغيرة فى إيست ستور حيث فتح منزله للجميع ، كما يقول ميرفى ، وكانت لديه مجموعة من كلاب الصيد ، وعدد كبير من الخدم فى « ملابس رسمية صفراء غالية الثمن » ، وقد بذل الذين كتبوا سيرته بعد ذلك جهدهم ليثبتوا أن هذه القصة مبالغ فيها ، ولكن هناك حقيقة لم تتغير وهى أنه فى عام ١٧٣٦ ، أى بعد زواجه بسنتين ، نفد ماله وعاد إلى لندن ليكتب مزيداً من المسرحيات وليدير مسرحاً فى هيماركت Haymarket .

وبعد عام أصبح مشروع قانون الترخيص بالكتابة للمسرح قانوناً نافذاً ، وبذلك وضع حداً لهذا النشاط . وكان لديه فى ذلك الحين زوجة وطفل وحفنةعزيزة من النقود للإنفاق عليهم . وكان عليه أن يجد وسيلة لكسب العيش . ودخل الميديل تيمبل ، وبالرغم « من أن تذوقه المبكر للمتع كان من الممكن أن يعاوده مرة أخرى ، ويتآمر بإعادته من جديد إلى متع المدينة العارمة ، مستنداً إلى روحه وحيويته» إلا أنه وصل إلى القضاء فى الوقت المناسب . ومارس المحاماة بكل جد . غير أن عربدته المبكرة كانت قد أثرت على بنيته ، وقد عانى بشدة من مرض النقرس كغيره من الناس فى ذلك الوقت . وكذا لم يستطع ممارسة مهنته إلا لماما . ولجأ إلى قلمه ثانية فكتب تحليلات سياسية قصيرة ، ومسرحية أو مسرحيتين ومقالات لصحيفة تدعى « شامبيون » . وفى سنة ١٧٤٢ ألف رواية « چوزيف آندروز Joseph Andrews . وكانت أول رواية تنشر له ، وإن كان من المعتقد أنها ليست أول رواية يكتبها ، إذ كانت أول رواية هى « جوناثان وايلد ». Jonathan Wild وليس من مهمتى مناقشة أعماله الأدبية بوجه عام ، ولكنى لا أذكر الآن إلا القليل الذى نعرفه عن حياته . فبعد نشر رواية « حوزيف أندروز » بفترة قصيرة ماتت زوجته الجميلة بالحمى ، ماتت بين ذراعيه وتركته نهباً للأحزان . ولم يستطع لبضع سنوات أن ينتج شيئاً ذا قيمة .

وكتب مؤيداً الحكومة فى صحيفتين هما « تروباتريوت »و« چاكوبيت چورنال » ، وعندما توقفتا منحوه معاشاً . لكنه كان متهوراً ، وكان ذا مزاج جامح بطبيعته ، فاستمرت ظروفه المرتبكة . وتروى عنه حكاية توضح

هذه الطبيعة : عندما أراد أن يدفع ما عليه لمحصل الضرائب لجأ إلى ناشر كتبه ، أندرو ميللر ، طالباً دفعة مقدماً من المال ، وبينما هو فى طريقه إلى البيت ، ومعه المبلغ ، التقى بصديق كانت حالته الماليه أكثر سوءاً من حاله، فما كان منه إلا أنه أعطاه ما معه من نقود ، وعندما أتى محصل الضرائب بعث إليه بهذه الرسالة :
« لقد طالبت الصداقة بهذه النقود وكان لها ما أرادت ، فليمر المحصل مرة أخرى » .

وبعد مضى أربعة أعوام على وفاة زوجته تزوج بخادمتها مارى دانييل . وصدم الخبر أصدقاءه ، وشعرت ابنة عمه الليدى مارى وورتلى مونتاجو محررة الرسائل باحتقار وإزدراء له لأنه «افتتن بخادمته الطباخة» ولكن ، بالرغم من أنها لم تكن على جانب كبير من الجمال إلا أنها كانت مخلوقة ممتازة ولم يكن يتحدث عنها إلا بإعزاز واحترام . كانت الزوجة الثانية امرأة مهذبة جداً، وقد اعتنت به عناية عظيمة ، وكان فى حاجة إلى من يرعاه ، وكانت له نعم الزوج والأم وأنجبت لزوجها ولدين وبنتا .

ومن بين أصدقاء فيلدنج فى إيتون چورچ ليتلتون الذى ظل على صداقته به ، وكان ليتلتون ينحدر من عائلة سياسية مشهورة (ولازالت مشهورة حتى اليوم) كما كان يرعى الأدب بسخاء وكان وزيراً للخزانة من سنة ١٧٤٤ إلى سنة ١٧٥٤ . واستطاع فى سنة ١٧٤٨ أن يتوسط لتعيين فيلدنج قاضياً جزئياً فى ويستمنستر . وكان أهلا لهذا المنصب بحكم تمرسه للمحاماة وخبرته بالحياة ، ومواهبه الطبيعية . ويبدو أنه قام بواجباته خير قيام . فقد اختير بعد تعيينه بفترة قصيرة رئيساً للجلسات الدورية ، واستقر به المقام فى شارع باو . ويقول فيلدنج إن هذا المنصب كان يدر ، قبل تعيينه ، ٥٠٠ جنيه سنويا من الطريق غير الشريف ، أما هو فلم يكن يحصل منه على أكثر من ٣٠٠ جنيه سنويا بالطريق الشريف . وفى عام ١٧٤٩ نشر رواية توم چونز ودفع له الناشر ٧٠٠ جنيه .ولما كنت أعتقد أن قيمة النقود فى ذلك الوقت كانت تساوى من أربعة إلى ستة أضعاف قيمتها الآن فإن هذا المبلغ يعادل ما بين ٣٠٠٠ ، ٤٠٠٠ جنيه . ولايعتبر هذا مبلغاً بسيطاً لو دفع فى رواية تظهر اليوم فى إنجلترا .

غير أن صحة فيلدنج كانت قد تدهورت للغاية وأخذ مرض النقرس يعاوده على

فترات متقاربة وكان يضطر فى أغلب الأحيان إلى الذهاب إلى باث أو إلى كوخه المقام بالقرب من لندن للاستشفاء . لكنه لم يكف عن الكتابة . كان يكتب نشرات خاصة بمهنته ، وإحداها بعنوان « بحث فى خطر اللصوص الذى انتشر أخيراً » ويقال إن هذا البحث تسبب فى التصديق على قانون « الجن » الشهير ، كما ألف رواية « أميليا Amelia » التى استوحى شخصية بطلتها للمرة الثانية من حبيبته المتوفاة شارلوت . وقد ظهرت هذه الرواية فى عام ١٧٥٢ ، وبلغ من نشاطه أنه تعاقد ، فى نفس العام ، على الكتابة لصحيفة ثالثة ، واسمها « كوفنت جاردن جورنال » ، واستمر ارتباطه بها لمدة تسعة أشهر . وكانت صحته تزداد سوءا ، وفى سنة ١٧٥٤ ، تنحى عن منصبه لأخيه غير الشقيق جون فيلدنج ، وذلك بعد أن قضى على « عصابة من الأشرار وسفاكى الدماء » كانت تثير الرعب فى لندن . وبدا أن فرصته الوحيدة للنجاة بحياته هى فى البحث عن مناخ أفضل من مناخ إنجلترا ، وهكذا غادر أرض الوطن ، فى يونيو من ذلك العام ، عام ١٧٥٤ ، على ظهر « ملكة البرتغال » فى طريقه إلى لشبونة ، ووصل فى أغسطس . وبعد شهرين مات فيلدنج . ودفن فى المقبرة الإنجليزية .

عندما أتأمل حياة فيلدنج ، التى صورتها بإيجاز مستعيناً بمصادر غير كافية ، يتملكنى شعور فريد . كان هنرى فيلدنج رجلا . كان مغرماً بشرب الخمر ، وكان مقامراً بعض الشئ ، محبا للنساء وعندما يتحدث الناس عن الفضيلة يتجه تفكيرهم عادة إلى الجنس ، ولكن العفة ليست سوى جزء ضئيل من الفضيلة وربما لم تكن أهم جزء فيها ، كانت عواطف فيلدنج جياشة ، ولم يكن يتردد فى الاستسلام لها . وكان يعرف كيف يحب برقة . والواقع أن الحب ، لا العاطفة — وهى شئ مختلف — له جذور فى الجنس ، ولكن قد توجد رغبة جنسية بدون حب . ولا ينكر ذلك سوى منافق أو جاهل . إن الرغبة الجنسية غريزة حيوانية وليس هناك ما يدعو إلى الخجل منها أكثر من الظمأ أو الجوع ، وليس هناك مايدعو إلى عدم إشباعها . وإذا كان فيلدنج خليعاً لأنه تمتع بلذة الجنس بطريقة سوقية ، فهو على كان حال ليس أسوأ من معظم الرجال . وكان يندم ، كمعظمنا ، على خطاياه ، ولكن ما إن تسنح الفرصة ثانية حتى يرتكب هذه الخطايا من جديد . وكان حاد

الطبع ، لكنه طيب القلب ، كريماً ، أميناً فى عصر فاسد ، وكان زوجاً وأباً عطوفاً ، شجاعاً وصادقا وصديقاً مخلصاً لأصدقائه الذين ظلوا بدورهم أوفياء له حتى مماته . ورغم تسامحه بالنسبة لأخطاء الآخرين إلا أنه كان يمقت القسوة والرياء . ولم يسكره النجاح وكان يستطيع بمعاونة دجاجة وزجاجة من الشمبانيا أن يتقبل المصائب فى جلد . وكان يأخذ الحياة كما هى ، بروح عالية مرحة ، ولقد استمتع بها أيما استمتاع .

والواقع أن فيلدنج كان قريب الشبه من شخصية توم چونز التى رسمها فى روايته . والآن أحب أن أحذر أى قارئ يفكر فى قراءة أعظم رواية كتبها فيلدنج ألا يشرع فى القراءة بالفعل إذا كان ذا طبيعة متعنتة . وقد أحسن أوستن دوبسن حين قال إن فيلدنج لم يدع أنه ابتدع نماذج للكمال ، وإنما هى صور للبشرية العادية ، البشرية فى مظهرها الخشن ، لا فى مظهرها المصقول ، فى مظهرها الطبيعى لا المصطنع ، وكان يريد أن يصور هذا بصدق تام ، دون التقليل أو الإخفاء من العيوب والنقائص » . والواقع أنه صور الرجل الواقعى لأول مرة فى تاريخ الرواية الإنجليزية . وتروى حنا مور فى مذكراتها أنها لم تر قط الدكتور چونسون غاضباً منها سوى مرة واحدة وذلك عند ما أشارت إلى فقرة لماحة بعض الشئ فى رواية « توم چونز » فقد قال « إنها لصدمة كبيرة أن أسمعك تقتبسين من مثل هذا الكتاب الشرير ، ويؤسفنى أن أسمع أنك قرأته ، إنه اعتراف لاينبغى لأية سيدة محترمة أن تشير إليه . إننى لا أكاد أعرف كتاباً أكثر منه فساداً » . لكنى أود أن أقول إنه ربما كان من الأفضل جداً الآن لأية سيدة محترمة أن تقرأ هذا الكتاب قبل الزواج . إنه سيخبرها بكل ما تحتاج إلى معرفته عن حقائق الحياة كما سيمدها بكثير من المعلومات عن الرجال مما لايخلو من فائدة لها قبل دخولها هذا الميدان الصعب ، على أن أحداً لم يقل أبداً إن الدكتور چونسون كان مجرداً من الهوى . فهو لم يعترف بأية قيمة أدبية لفيلدنج وقد وصفه ذات مرة بأنه أبله . ولما احتج بوزويل على هذا قال له «إن ما أعنيه بقولى إنه أبله هو أنه وغد عقيم» ، فأجابه بوزويل « ألا تعترف ياسيدى بأنه يرسم صوراً طبيعية جداً للحياة الإنسانية ؟ » فقال چونسون : « ماذا ياسيدى ، إنها صور لحياة دنيئة جداً . لقد كان ريتشاردسون يقول : لولا أنه كان يعرف من هو فيلدنج لاعتقد أنه خادم فى أسطبل » .

غير أننا تعودنا الآن على الحياة الدنيئة مصورة فى روايات ، وليس فى « توم چونز » شىء لم يطلعنا عليه كتاب الرواية اليوم . وقد رأى النقاد المتعنتون فى محافظتهم أن انحلال الأخلاق وقتئذ هو سبب ذلك الحدث الذى اعتبر أكبر نقطة سوداء فى حياة السيد چونز : وقعت السيدة بيلاستون فى غرامه ، ووجدت أنه لا يمانع فى إشباع رغبتها ، وكان فى ذلك الحين مفلساً للغاية ، أما هى فكانت ثرية . فلبت حاجاته بمنتهى السخاء . ولاشك أن قبول الرجل نقوداً من امرأة امراً مشينا كما أنها صفقة غير مربحه ، لأن السيدات الثريات يطالبن فى مثل هذه الظروف بأكثر مما تساوى نقودهن . أما من الناحية الأخلاقية فليس اسوأ من قبول المرأة نقوداً من رجل ، ومن الحمق أن ينظر الرأى العام مثل تلك النظرة . وعلينا ألا ننسى أن عصرنا قد اضطر إلى اختراع كلمة (gigolo) لوصف الرجل الذى يجعل من سحره الشخصى مصدراً للربح ،وهكذا لم يكن افتقار توم چونز إلى الذوق ، مهما كان ذلك مدعاة للوم ، أمراً فريداً فى نوعه .

وثمة نقطة مثيرة فى حياة توم الغرامية ربما تجدر الإشارة إليها . كان يحب صوفيا الفاتنة فى إخلاص ووفاء وعمق ، ومع هذا لم يكن يشعر بأى تأنيب للضمير لانغماسه فى لذات الجسد مع أى امرأة أخرى تكون سهلة المنال ومقبولة الشكل . ولم يكن ذلك ليقلل من حبه لصوفيا . ولقد بلغ من تعقل فيلدنج أنه لم يجعل بطله أكثر عفة من الرجل الحسى العادى . وكان اندروز يعرف أننا لوكنا عقلاء فى الليل مثلما نحن عقلاء فى الصباح لأصبحنا جميعاً أكثر تمسكاً بالفضيلة .

ورواية توم چونز جيدة البناء ، فالأحداث المختلفة تتعاقب بطريقة مريحة . وكان فيلدنج قليل الحرص على واقعية الحدث شأنه فى ذلك شأن كتاب روايات المغامرات الذين سبقوه فى هذا الميدان ، فتقع أحداث لا يحتمل وقوعها بالمرة ، وتحدث المصادفات الخارقة التى تجمع شمل الناس ، لكنه يجعلك مع ذلك تندمج فى التيار بكل حماس حتى أنك لاتكاد تجد الوقت أو حتى الميل للاحتجاج . والشخصيات مرسوعة بالألوان الأولى فى شىء من عدم المبالاة ، وإذا كانت تفتقر قليلا إلى الصقل فإنها تستعيض عن ذلك بكونها نابضة بالحياة . وأخشى أن يكون المستر أولويرثى ممتازاً لدرجه تجعلنا نشك فى حقيقته ، وقد فشل هنا فيلدنج ، كما فشل

كل روائى ؛ حاول منذ ذلك الحين أن يرسم بدقة رجلا فاضلا تماماً . ويبدو أن التجربة دلت على أنه من المستحيل عدم جعل هذه الشخصية على شئ من الغباء . فالقارئ لايطيق صبراً على شخصية طيبة لدرجة رضوخها أمام أبسط أشكال الغش. ويقال إن شخصية رالف آلن من بريوربارك هى الأصل الذى أخذ عنه فيلدنج شخصية أولويرثى . ولقد قال بوب Pope فى وصفه :

«فلتدع آلن المتواضع ، بخجله المرتبك

يفعل الخير خفية . ويتضرج خجلا حين يسلط عليه النور .

فإذا كان الأمر كذلك ؛ وكان التصوير دقيقاً ، فإنما يدل على أن الشخصية التى تؤخذ مباشرة من الحياة لاتكون مقنعة أبداً فى العمل الفنى .

أما بليفيل فقد بدا على العكس سيئا أكثر مما ينبغى لصدق تصويره . كان فيلدنج يكره الغش والنفاق ، وربما كانت مثل هذه الكراهية لبليفيل هى التى جعلت يده ثقيلة مسرفة فى تلوينه بهذا الشكل . على أن بليفيل ، الدنئ المتسلل ، الوصولى البارد الدم ، ليس نمطاً شاذاً . إن الخوف من افتضاح الأمر هو وحده الذى يمنعه من أن يكون وغداً . لكن عيب بليفيل الرئيسى هو افتقاره إلى الحياة، إنه دمية ، وأراهن أن ذلك كان بسبب شعور غريزى لدى مبدعه بأنه لو أعطاه دوراً أكثر إيجابية وبروزا ، فإنه قد يجعله شخصية قوية جداً وشريرة إلى درجة يختل معها توازن قصته .

كُتبت « توم جونز » بطريقة عصرية مقبولة جداً وأسلوبها أكثر سهولة وطبيعية من ذلك الأسلوب الذى كَتبت به چين أوستن بعد ذلك بخمسين عاما روايتها «الكبرياء والهوى» . ويرجع سبب ذلك فى رأيى إلى أن فيلدنج احتذى آديسون وستيل ، بينما تأثرت چين أوستن ، ربما لاشعوريا ، بطلاوة أسلوب دكتور جونسون ، الذى كانت ، كما نعرف، تقرأه بإعجاب ، كما تأثرت بكتاب عصرها الذين تبنوا طريقته إلى حد ما . لقد قيل ، ولست أذكر الآن من الذى قال ذلك ، إن الأسلوب الجيد ينبغى أن يشبه حديث الرجل المثقف . وهذا بالضبط ما يحققه أسلوب فيلدنج . إنه يتحدث إلى القارئ ويحكى له قصة «توم جونز» كما لو كان يحكيها لعدد من الأصدقاء على مائدة عشاء مع زجاجة نبيذ . إنه لايتأنق فى كلماته أكثر مما يفعل الكاتب الحديث . ومن الواضح أن صوفيا

الجميلة الفاضلة كانت معتادة تماما على سماع كلمات مثل «عاهرة» «ابن زنا» «مومس» وتلك الكلمة التى اكتفى منها فيلدنج بهذه الحروف b-ch لسبب يصعب تخمينه . وفى الحقيقة كانت هناك لحظات استخدم فيها والدها ، ويسترن المحترم ، هذه الكلمات معها هى نفسها بحرية تامة .

لكن منهج المحادثة فى كتابة الرواية ، المنهج الذى يجعلك به المؤلف موضع سره ، حيث يحكى لك مايشعر به إزاء الشخصيات ، والمواقف التى تحيط بها ، هو منهج له عيبه . إذ يبدو المؤلف وكأنه يقف بالقرب منك ، وبالتالى يحول دون اتصالك المباشر بشخصيات قصته . إنه يستفزك أحيانا بأحكامه الأخلاقية ، بينما يبدو مملا لو حاول الخروج عن الموضوع . إنك لاتريد أن تسمع مايبغى قوله عن هذا وذاك وغيره ، بل تريد منه أن يمضى فى القصة . على أن خروج فيلدنج كان معقولا أو مسليا فى أغلب الأحوال ، والعيب الوحيد أن القارئ يستطيع — بدونه — أن يمضى فى القصة على نحو مرض تماما . ولكنه خروج قليل ، وكان المؤلف من اللباقة بحيث اعتذر عنه .

لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك . فقد قدم لكل كتاب من الكتب التى قسمت إليها رواية «توم چونز» بمقالة . وأعجب بعض النقاد إعجابا كبيراً بهذه المقالات واعتبروها إضافة إلى ميزة الكتاب . وإننى أخمن — مجرد تخمين — أن السبب فى ذلك يرجع إلى عدم اهتمامهم بالرواية كرواية . إن أى كاتب من كتاب المقالات يتناول موضوعاً ما ويناقشه ، فإذا كان الموضوع جديداً بالنسبة لك فقد يخبرك بأشياء أنت لاتعرفها من قبل . ولكن من الصعب أن تعثر على موضوع جديد ، ومن ثم فهو يتوقع — بصفة عامة — أن يثير اهتمامك بالموقف الذى تتخذه والطريقة المميزة فى نظرته للأشياء . ومعنى ذلك أنه يتوقع أنه يثير اهتمامك بنفسه ، ولكن هذا هو آخر شىء تتهيأ لقبوله عند قراءة رواية ما . فأنت لا يعنيك شىء عن المؤلف ، إن سبب وجوده هو أن يحكى لك قصة ، وأن يقدم لك مجموعة من الشخصيات . ولقد قرأت بحكم عملى المقالات التى قدم بها فيلدنج لكتبه المختلفة ، ورغم أنى لا أنكر قيمتها إلا إنى قرأتها بضجر . إن قارئ الرواية يريد معرفة ماذا يحدث بعد ذلك للشخصيات التى أثار المؤلف

اهتمامه بها ، وإذا لم يتحقق ذلك فليس هناك سبب على الإطلاق يدفعه إلى قراءة الرواية . ذلك أن الرواية . ولن أستطيع تكرار ذلك مراراً ، لا ينبغى النظر إليها على أنها وسيلة للمعلومات أو التهذيب ، ولكنها مصدر للمتعة الذكية .

عند ما قرأت هذه الصفحات مرة أخرى وجدتنى أخشى أن يكون هناك انطباع تركته فى نفس القارئ الذى يقرأ هذه المقدمة بأن « توم چونز » كتاب فظ خشن ، يتناول المغامرين والنساء المنحلات ، وأنه سوقى . لو كان الأمر كذلك فإنه انطباع زائف جداً . فقد عرف فيلدنج الحياة معرفة أفضل . فلا يأخذ الناس بقيمتهم السطحية ، كما علمته التجربة أنه ليس من الطبيعة البشرية أن تكون مجرداً تماما . إن عدم الأنانية تماما أمر جميل ، ولكن لا وجود له فى هذا العالم ، ومن الحكمة أن نتوقع ذلك . لكنه قدم لنا صوفيا وسترن فى صورة جذابة رقيقة كامرأة شابة كلها بهجة فتنت قارئ الرواية ، كما لم تفتنه امرأة من قبل . إنها بسيطة . لكنها ليست ساذجة ، فاضلة لكنها غير متكلفة ، ذات شخصية ، وتصميم وشجاعة ، وهى جميلة وذات قلب محب . ومن المؤثر أن نعرف أن فيلدنج وهو يخلق هذه الشخصية كان يتذكر زوجته المحبوبة (التى أخشى أن تكون قد عانت طويلا) .

لا أعتقد أن فى مقدورى أن أختم هذه المقدمة أفضل من اقتباس كلمات ذلك الناقد الحكيم چورج سانيتسبرى : « توم چونز ملحمة حياة — حقيقة أنها لا تصور أرفع ، أو أندر ، أو أعظم ، أو أكثر مشاهد الحياة ومراحلها انفعالا . ولكنها تصور الحياة العادية الصحيحة للإنسان العادى الطبيعى ، ذلك الإنسان الذى لا يخلو من أخطاء وليس كاملا على أى نحو من الأنحاء ، لكنه إنسان ، وواقعى وبالقدر الذى لم نر له مثيلا فى عالم مشابه إلا عند شيكسبير » .

چين أوستن
و
الكبرياء والهوى

إن تفاصيل حياة چين أوستن يمكن أن تحكى باختصار شديد . فعائلة أوستن كانت من العائلات العريقة ، وهى كغيرها من العائلات العظيمة فى إنجلترا قامت ثروتها على تجارة الصوف ، تلك التى كانت تعد وقتا ما الصناعة الرئيسية فى البلد. وما إن تجمع لديهم المال ، حتى اشتروا أرضا كغيرهم من ذوى الشأن . وبمضى الوقت أصبحوا فى مصاف أعيان البلد . ولدت چين عام ١٧٧٥ فى ستيفنتون ، وهى قرية من قرى هامشير حيث كان والدها چورچ أوستن قسيسا ، وكانت أصغر أبنائه السبعة ، وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرها اعتزل والدها الخدمة ، وانتقل إلى بات مع زوجته وابنتيه كساندرا وچين ؛ أما أولاده الذكور فقد سبق أن تفرقوا ليشق كل منهم طريقه فى الحياة . لقد توفى عام ١٨٠٥ واستقرت أرملته وابنتاه فى ساوثمبتون . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى ورث أحد أشقاء چين أملاكا فى كنت وهامشير . وعرض على أمه أن تعيش فى أى من المقاطعتين . واختارت أن ترحل إلى تشوتون فى هامشير . وكان ذلك فى عام ١٨٠٩ وهناك عاشت چين إلى أن اضطرها مرضها إلى الذهاب إلى ونشستر كى تعرض نفسها على أطباء أفضل من أطباء القرية وهناك ماتت عام ١٨١٧ ، ودفنت فى الكاتدرائية .

وقد قيل إنها كانت جذابة للغاية .. كانت تميل إلى الطول والنحافة ، خطوتها خفيفة وثابتة ؛ ويعبر مظهرها فى مجموعه عن الصحة والحيوية . كانت بشرتها خمرية اللون صافية ، ولها وجنتان مستديرتان ممتلئتان ، وفم وأنف صغيران ، حسنا التكوين . وعينان عسليتان لامعتان ، وشعر بنى تلتف خصلاته الطبيعية « حول وجهها » والصورة الوحيدة التى شاهدتها تبدو فيها امرأة شابة ذات وجه مكتنز ، لاتستلفت ملامحه النظر ، وعينان مستديرتان واسعتان ، ونصفها الأعلى ضخم ،

ولكن ربما بخسها الفنان حقها . لقد كان لديها إحساس نادر وأصيل بالفكاهة . وبما أنها كانت تقول إن أحاديثها تشبه تماما خطاباتها ، ولما كانت خطاباتها تزخر بالملاحظات الفطنة الساخرة الخبيثة ، فمن المستحيل أن نشك فى ألمعية أحاديثها .

ومعظم الخطابات التى وصلت إلينا هى التى كتبتها لاختها كساندرا . فقد كانت الصلة بينهما حميمة . ومثل كل البنات والنساء كانتا متلازمتين على الدوام ، حتى أنهما ، كانتا تقتسمان حجرة النوم حتى موت چين . وعندما ذهبت كساندرا إلى المدرسة ذهبت معها چين ، بالرغم من أنها كانت صغيرة بحيث لايجديها مثل هذا التعليم الذى تقدمه الحلقة الدراسية للفتيات إذ كانت تشعر بالشقاء بدونها . ولقد قالت أمها : « لوحدث وبادرت كساندرا إلى قطع رقبتها ، فإن چين ستصر على مشاركتها نفس المصير » . وكانت كساندرا أكثر جمالا من چين ، ومزاجها أكثر برودا وهدوءا ، وكانت أقل من چين إفصاحا عما بداخلها ، وطبيعتها أقل حرارة. « كانت تتميز بالقدرة على التحكم فى مزاجها على الدوام . ولكن چين كانت سعيدة بما وهبت من مزاج لايحتاج إلى تحكم » . وكانت خطابات چين أوستن بالنسبة لكثيرين من أشد المعجبين بها مخيبة للآمال ، واعتقدوا أن هذه الخطابات تظهرها بمظهر الباردة التى لاتحس. كما تظهر تفاهة اهتماماتها . ويدهشنى أن يقرلوا هذا . فهى خطابات طبيعية جداً . وچين أوستن لم تكن تتصور أبداً أن أحداً غير كساندرا سوف يقرأها ، وكانت تكتب لها عن الأشياء التى تعرف بالفعل أنها ستهمها . فقد حدثتها عما كان يرتديه الناس وكم دفعت ثمنا للقماش المرسلين المحلى بالورود الذى اشترته ، والأشخاص الذين تعرفت بهم ، والأصدقاء القدامى الذين قابلتهم والقيل والقال الذى سمعته .

وفى السنوات الأخيرة نشرت مجموعات من الخطابات لمؤلفين مبرزين ، ومن جانبى أشعر حين أقرؤها بأن أصحابها كانت تراودهم فكرة وصول هذه الخطابات إلى المطبعة يوما ما . وكثيراً ما جعلتنى أحس بأنه كان من الممكن نشر هذه الرسائل كما هى فى مجلة أدبية متخصصة ، ولكى لاأضايق محبى الكتّاب الذين ماتوا منذ عهد قريب ، فإننى لن أذكر أسماءهم . ولكن ديكنز قدمات منذ زمن بعيد ، لذلك يمكن أن نقول عنه ما نريد دون الإساءة إلى أحد . فكلما قام برحلة ، كتب

خطابات مطولة لأصدقائه يصف فيها ببلاغة المشاهد التى رآها ، والتى كان من الممكن – كما لاحظ كاتب سيرته بحق – أن تنشر دون أن يغير منها كلمة واحدة . كان الناس فى تلك الأيام أكثر صبراً . ومع ذلك يخيل إلى أنه مما يدعو إلى خيبة الأمل أن يتلقى المرء خطاباً من صديق يسرد لك صوراً لفظية ، للجبال والآثار بينما تريد أنت أن تعرف إذا كان قد التقى بشخص مهم . وما هى الحفلات التى ارتادها . وما إذا كان قد نجح فى الحصول على الكتب التى تريدها أو أربطة العنق أو المناديل التى طلبت منه إحضارها لك .

ولم تكن چين أوستن تكتب خطاباً يخلو من بسمة أو ضحكة ، ولإمتاع القارئ سأذكر هنا أمثلة قليلة لتصوير طريقتها . ولا يسعنى إلا أن أعتذر لعدم ذكر الكثير منها لضيق المساحة .

« إن النساء الوحيدات لديهن ميل رهيب لأن يكن فقيرات وهى حجة قوية لتحبيذ الزواج » .

« تصورى أن مسز هولدر ماتت ! يالِلمرأة المسكينة ، لقد فعلت الشئ الوحيد الذى يمكن أن تفعله فى هذه الدنيا لكى نكف عن التنديد بها » .

« مسز هول من شيربورن ، ولدت طفلا ميتاً ، قبل موعده بأسابيع بسبب الفزع ، أعتقد أن سبب فزعها أنها تطلعت إلى زوجها على غرة »

« لقد حضرنا وفاة مسز و.ك ، ولا أظن أن أحداً على الإطلاق كان يحبها ، ولذلك لم أشعر بألم نحو من تركتهن أحياء ، لكنى أتألم من أجل زوجها ، وأعتقد أنه يحسن به أن يتزوج مس شارب »

« إننى أحترم مسز تشامبرلين لأنها تصفف شعرها جيداً ، ولكن لا أستطيع أن أحس نحوها بأى عاطفة ، ومس لانجلى عادية فهى تشبه أية فتاة قصيرة لها أنف ضخم ، وفم واسع ، فتاة ذات صدر عار ترتدى الثياب حسب « المودة » . أما الأدميرال ستانهوب فهو مثل « الجنتلمان » ، ولكن ساقيه قصيرتان أكثر من اللازم وذيل سترته طويل أكثر من اللازم » .

وكانت چين أوستن مغرمة بالرقص . وهذه بعض التعليقات على حفلات الرقص التى كانت ترتادها :

« كانت هناك اثنتا عشرة رقصة فقط رقصت منها تسع رقصات ، ولم يمنعنى

من رقص الثلاث الباقيات إلا عدم وجود شريك » .

« كان هناك چنتلمان » واحد، ضابط من تششاير ، شاب جميل القسمات ، وقد قالوالى إنه مشتاق إلى أن يقدموه لى ، ولكن نظراً لأن اشتياقه لم يبلغ الحد الذى يجعله يكلف نفسه عناء التعارف ، فشلنا فى أن نتعارف » .

« الجميلات كن قليلات ، وهذه القلة لم تكن جميلة جداً . لم تكن مس ايرمونجر على ما يرام ، أما مسز بلنت فكانت الوحيدة التى حظيت بالإعجاب الكبير . فقد بدت بنفس الصورة التى بدت فيها فى شهر سبتمبر ، بنفس الوجه العريض ، ونفس المشبك الماس ، ونفس الحذاء الأبيض ، ونفس الزوج الأحمر ، ونفس الرقبة الغليظة » .

« فى يوم الخميس الماضى أقام تشارلز باوليت حفلا راقصاً سبب إزعاجاً كبيراً لكافة جيرانه بالطبع ، الذين يهتمون أكبر اهتمام — كما تعلمين — بحالته المالية ، ويعيشون على أمل أن يروه محطماً فى يوم من الأيام . وقد اتضح أن زوجته بالصورة التى يريد الجيران أن يروها عليها : زوجة غبية شرسة ومبذرة » .

« إن مسز ريتشارد هارفى على وشك أن تتزوج ولكن بما أن خبر زواجها سرى للغاية ، ونظراً لأنه غير معروف إلا لنصف الجيرة فقط ، فيجب ألا تذكرينه لأحد » .

« إن دكتور هول يعيش فى حداد كبير يظن معه أن أمه أو زوجته أو هو نفسه قد مات » .

وعندما كانت مس أوستن تعيش مع أمها فى سوثامبتون قامتا بزيارة أحد البيوت ، وهذا ما كتبته چين لكاسندرا :

« وجدنا مسز لانس بمفردها فى البيت . فإذا كان هناك نسل أو ذرية تفاخر بها غير البيانو الكبير الموضوع فى البيت ، فإنه لم يظهر . . . وهذه الأسرة تعيش فى جو من الأبهة وهم أغنياء ويبدو أن مسز لانس تحب أن تكون غنية ، وقد جعلناها تفهم أننا أبعد من أن نكون أغنياء ، لذا فسرعان ما ستشعر بأننا لسنا أهلا لمعرفتها » .

ويبدو أن إحدى قريبات چين قد أثارت القيل والقال بسبب مسلك شخص يدعى دكتور مانت ، وبسبب هذا المسلك تركته زوجته وعادت لبيت أمها ،

وعندئذ كتبت چين : « ولكن نظراً لأن دكتور م . كاهن ، فإن لهذه العلاقة هيبتها مهما كانت مشينة » .

كان لها لسان لاذع وقدرة سخية على الفكاهة . وكان يلذ لها أن تضحك كما يلذ لها أن تجعل الآخرين يضحكون . وإننا لنحمل صاحب الفكاهة أكثر من اللازم إذا توقعنا منه أو منها أن يكون متزناً حين يفكر فى هذه الفكاهة . ويعلم الله كم هو صعب أن تكون مضحكاً دون أن تكون فى بعض الأحيان خبيثاً بعض الشئ . فليست هناك جدوى من طيبة البشر ، ولقد كان لدى چين قدرة فائقة على إدراك سخافة الآخرين ، وتظاهرهم ، وافتعالهم ، وعدم إخلاصهم ، وهى تكسب إعجابنا حين نرى أن هذه العيوب كانت تضحكها بدلا من أن تضايقها . وقد بلغ من لطفها أنها لم تكن تقول للناس أشياء من شأنها أن تؤلمهم ، ولكنها بالتأكيد لم تر أن هناك ما يؤذى عندما تسلى نفسها على حسابهم مع كساندرا . وأنا لا أجد ما ينبئ عن طبيعة شريرة حتى فى أكثر ملاحظاتها قسوة ولذعة ، ففكاهتها كانت تستند — كما يجب أن تستند كل فكاهة — على الملاحظة الدقيقة والصراحة .

وقد قيل إنه بالرغم من أنها عاصرت بعض الأحداث التى تعد من أكثر الأحداث إثارة فى تاريخ العالم كالثورة الفرنسية وعهد الإرهاب ، وقيام نابليون وسقوطه ، إلا أنها لم تشر إلى شىء من هذا فى رواياتها . ومن هنا كانوا يلومونها لانفصالها الذى لامبرر له . على أنه ينبغى أن نذكر أن عصرها كان ينادى بأنه لايصح للنساء أن يشغلن أنفسهن بالسياسة ، فقد كان الخوض فيها شأن الرجال وحدهم . ولم تكن النساء تقرأ حتى الجرائد ، غير أنه ليس هناك ما يجعلنا نفترض بأنها لم تنفعل بهذه الأحداث لأنها لم تكتب عنها . كانت مغرمة بأسرتها ، وكان اثنان من أخوتها فى البحرية ، وكثيراً ما كانا يتعرضان للخطر وترينا خطاباتها أنهما كانا يشغلان كثيراً من تفكيرها . ولكن ألم تثبت أنها ذات إدراك حين ابتعدت عن الكتابة فى هذه المسائل ؟ لقد كانت متواضعة لدرجة أنها لم تكن لتظن أن رواياتها ستقرأ بعد موتها بزمن طويل . أما إذا كان هذا هو هدفها فلم تكن لتستطيع أن تتصرف بطريقة أعقل من الطريقة التى تصرفت بها چين ، عندما تجنبت الخوض فى هذه الأمور التى تعدمن وجهة النظر الأدبية ذات قيمة عابرة . مثال هذا أن الروايات التى كتبت فى السنوات القليلة الماضية عن الحرب العظمى قد ماتت . كانت بنت

ساعتها تماماً كالجرائد التى كانت تخبرنا يوما بيوم بما يحدث .

وهناك فقرة فى السيرة التى كتبها «لى» ، لو أعملنا خيالنا قليلا لاستطعنا أن نأخذ منها فكرة عن نوع الحياة التى كانت تحياها مس أوستن خلال هذه السنوات الهادئة الطويلة فى الريف : ربما نستطيع أن نؤكد – كحقيقة عامة – أن القليل كان يترك لرعاية الخدم وقدرتهم على التصرف وأن إنجاز الكثير أو الإشراف عليه كان يتم على يد السادة والسيدات . أما بالنسبة للسيدات فإننى أعتقد أنه من المسلم به عادة أنهن . . . كن يشاركن مشاركة شخصية فى فروع الطهى الراقية ، وكذلك فى إعداد النبيذ بالمنزل ، واستخراج عقاقير منزلية من الأعشاب ... ولم تكن السيدات يأنفن من غزل الخيوط التى ينسجن منها بياضات المنزل . وبعض السيدات كن يفضلن غسل قطع الصينى الفاخر بأيديهن بعد الإفطار أو الشاى ، «وكان لمس أوستن اهتمام لاغبار عليه بالفساتين ، والقبعات والإيشاربات . وكانت تجيد أشغال الإبرة سواء الحياكة العادية أو التطريز . ويحتمل جداً أنها كانت تحب أن يبدو الشبان فى أحسن مظهر ولم تكن تمانع فى تبادل المغازلة معهم . ولم تكن تحب الرقص فقط وإنما كانت تحب المسارح أيضاً ، ولعب الورق ، وبعض ألعاب التسلية البسيطة .

كانت ناجحة فى كل شىء تحاوله بأصابعها . ولم تكن تستطيع واحدة أن ترمى بعيدان القش Spillikins فى دائرة محكمة كدوائرها أو أن تنتشلها بيد ثابتة دون أن تمس العيدان الأخرى . كان لعبها بالكرة والفنجان رائعاً . وكانت طريقة « تشوتون » فى ممارسة هذه اللعبة سهلة . ولقد اشتهرت چين بقدرتها على استقبال الكرة على الطرف مائة مرة متوالية ، إلى أن تكل يدها » .

ولن ندهش إذا عرفنا أنها كانت محبوبة لدى الأطفال ، فقد كانوا يحبون طريقة لعبها معهم ، وحكاياتها الطويلة العامرة بالتفاصيل الدقيقة .

ولايستطيع أحد أن يصف چين أوستن على أنها متعالية (وهو طراز لم تكن تتعاطف معه) ولكن من الواضح أنها كانت امرأة مثقفة . فقد وضع ر . و . تشاپان ، وهو الثقة الكبير فى رواياتها ، قائمة بالكتب التى يقال إنها قرأتها ، وهى قائمة رهيبة ، وبطبيعة الحال قرأت روايات مثل روايات فانى برنى وماري ادجوبرث ورواية مسز رادكليف (ألغاز يودلفو) وقرأت روايات مترجمة عن الفرنسية والألمانية (ومن بين الروايات الأخرى التى قرأتها أحزان ڤرتر لجوته) وأية روايات أخرى كانت تستطيع

الحصول عليها من المكتبات العامة في بات وساوثمبتون . وعرفت شكسبير جيداً ومن بين المحدثين قرأت لسكوت وبايرون ، ولكن يبدو أن شاعرها الأثير كان كوبر . وليس من الصعب أن ندرك لماذا كان شعره المتزن المتألق يجتذبها . كذلك قرأت دكتور جرنسن وبوزويل ، والكثير من كتب التاريخ ، وعدداً ليس بالقليل من المواعظ .

وهذا ما يقودني إلى أهم ما يتعلق بها بطبيعة الحال ، وأعني بذلك الكتب التي كتبتها . لقد بدأت الكتابة في سن مبكرة جداً . وعندما كانت تجود بانفاسها في ونتشستر بعثت لابنة أخت لها ، نزعت إلى الكتابة ، رسالة قالت فيها إنها إذ أرادت أن تعمل بنصيحتها حقاً فعليها أن تكف عن الكتابة إلى أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها وإن جين نفسها كثيراً ما تمنت لو أنها قرأت أكثر وكتبت أقل في الفترة ما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة من عمرها . وكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أنه لا يليق بالسيدة المحترمة أن تؤلف كتباً . وقد كتب « مونك لويس » يقول : « إنني أشعر بالاشمئزاز والشفقة والازدراء إزاء كل النساء الكاتبات .فأولى أن تكون الأداة التي يمسكن بها هي الإبرة لا القلم . فهي الشيء الوحيد الذي يستخدمنه بمهارة » . وكانت الرواية أحد أشكال الفن التي لا تلقى تقديراً كبيراً ، بل إن جين أوستن نفسها قد صدمت عندما علمت أن « سير ولتر سكوت » وهو الشاعر يكتب روايات . كانت تحرص على ألا يكتشف حقيقة مهنتها من الخدم أو الزوار أو أي شخص آخر خارج دائرة الأسرة . لذلك كانت تكتب على ورق من الحجم الصغير بحيث يمكن مداراته أو تغطيته بقطعة من النشاف بسهولة . وكان يوجد بين الباب الرئيسي وحجرة المكتب باب آخر متحرك يحدث صوتاً عندما يفتح . غير أنها ما نعت في إصلاح هذا العيب الصغير ، لأنه كان بمثابة الإنذار لها عند قدوم أي شخص . أما أخوها الأكبر جيمس فإنه لم يخبر ابنه الذي كان تلميذاً في المدرسة ، أن الكتب التي كان يقرأها بمتعة إنما هي من تأليف عمته جين . وكتب أخوها هنري في مذكراته : « لم تكن الشهرة لتغريها ، لو كانت قد عاشت ، بأن تضع اسمها على أي إنتاج بقلمها » . ولذلك نرى أن أول كتاب نشر لها « الحس والحساسية » قد وصف في صفحة العنوان على أنه بقلم سيدة ما » .

ولم تكن أول رواية تؤلفها . ذلك أن أول رواية لها كان اسمها « انطباعات أولى » .

وقد كتب أخوها چورج أوستن لأحد الناشرين يعرض عليه نشرها على حساب المؤلفة أو بأى طريقة أخرى ووصفها بأنها « أصول لرواية تتكون من ثلاثة أجزاء تكاد تبلغ فى طولها رواية « مس بورنى — إيڤلينان » . وقد رفض العرض برجوع البريد . وكانت چين قد بدأت فى كتابة « انطباعات أولى » خلال شتاء ١٧٩٦ وانتهت منها فى أغسطس عام ١٧٩٧ ،ويبدو أنها تشبه إلى حد كبير نفس الكتاب الذى صدر بعد ستة عشر عاماً بعنوان « الكبرياء والهوى » . وسرعان ما أتبعته بكتابة روايتى « الحس والحساسية ،و« دير نورثنجر » ولكن الحظ لم يحالفها فيها ، غير أن « مستر رتشارد كروسبى » اشترى — بعد خمس سنوات — الرواية الثانية ، وكان اسمها فى ذلك الحين « سوزان » لقاء عشرة جنيهات ، ولم ينشرها أبداً . وأخيراً باعها بنفس الثمن الذى اشتراها به . ولما كانت روايات مس أوستن قد نشرت بدون ذكر الاسم فلم تكن لديه أدنى فكرة بأن الكتاب الذى باعه بثمن بخس كان بقلم المؤلف الناجح الشهير لرواية « الكبرياء والهوى » .

ويبدو أنها لم تكتب سوى قطعة صغيرة بعنوان « آل وطسن » بين عام ١٧٩٨ (الذى انتهت فيه من تأليف دير نورثنجر) وعام ١٨٠٩ . وهى فترة انتظار طويلة، بالنسبة لكاتب لديه مواهب مثل چين أوستن ، وهناك من يقول إن انقطاعها عن الكتابة كان بسبب قصة حب شغلتها عن أى اهتمامات أخرى . ولكن هذا مجرد تخمين . فقـــد كانت شابة عام ١٧٩٨ (أربعة وعشرون عاما) والمرجح تماما أنها وقعت فى الحب أكثر من مرة ، ولكن كان من الصعب إرضاؤها ، والمرجح أيضاً أنها كانت تنهى علاقاتها دون أن تشعر باضطراب نفسى كبير . والتفسير المحتمل لانقطاعها الطويل هو أن الشجاعة خانتها لأنها لم تستطع أن تجد ناشراً . والمقربون إليها الذين قرأت عليهم رواياتها ، كانوا مبهورين ، ولكنها كانت حساسة بقدر ما كانت متواضعة ، وربما استنتجت أن رواياتها لاتجتذب إلا الأشخاص المحبين لها . والذين كانت لديهم فكرة كبيرة عن الشخصيات التى رسمتها فى رواياتها .

مهما يكن الأمر فقد حدث عام ١٨٠٩ ، عندما استقرت فى تشوتون الهادئة مع أمها وأختها أن شرعت فى مراجعة أصول رواياتها القديمة ، وأخيراً فى عام ١٨١١ ظهرت رواية «الحس والحساسية » . ومنذ ذلك الحين لم يعد شاذاً ، أن تكتب امرأة . وفى محاضرة عن چين أوستن ألقاها البرفسور « سبورجون » فى الجمعية الملكية

للأدب ، ردد ما جاء فى مقدمة « خطابات أصلية من الهند » لإليزافاى .
فقد كان هناك من استحث هذه السيدة على نشر هذه الخطابات عام ١٧٨٢ ،
ولكن الرأى العام كان جد كاره « للكتابة النسائية » لدرجة أنها عدلت عن الفكرة ،
ولكنها كتبت عام ١٨١٦ تقول : « منذ ذلك الحين وثمة تغير كبير قد طرأبالتدريج
على مشاعر الجماهير وتطور هذه المشاعر . واليوم لم يعد لدينا فقط — كما كان الحال
فى الماضى — عدد النساء اللائى يشرفن جنسهن بوصفهن أديبات ، وإنما هناك
أيضاً كثيرات من النساء غير المتظاهرات اللائى لاتهمهن الأخطار الهائلة
التى كانت تصاحب « الرحلة » فى يوم من الأيام ، وأكثر من هذا أنهن
يغامرن ويدفعن بمراكبهن الصغيرة فوق المحيط الرحب الذى يقدمن فيه المتعة
أو الفائدة لجمهرة القراء » .

ونشرت الكبرياء والهوى عام ١٨١٣ وباعت چين أرستن حقوق النشر لقاء
عشرة جنيهات . وإلى جانب الروايات الثلاث التى ذكرتها ، كتبت چين ثلاث
روايات أخرى هى « منتزه مانسفيلد » « وإما » ، « والإغراء » . وعلى هذه الكتب
القليلة قامت شهرتها ، وأن شهرتها لفى أمان . لقد كان عليها أن تنتظر طويلا
قبل أن ينشر لها كتاب ، ولكن ما إن تحقق لها هذا ، حتى أصبحت مواهبها الساحرة
معترفًا بها. ومنذ ذلك الحين اتفقت معظم الشخصيات البارزة على امتداحها . ويكفى
أن أورد هنا ما قاله سير وولتر سكوت فى تلك السطور التى تتميز بسخائها : « إن
هذه السيدة الشابة لديها موهبة فى وصف دروب الحياة العادية وما تزخر به من
مشاعر وشخصيات ، وهذا أروع ما صادفنى ، إن الطنطنة شيء أستطيع أن
أمارسه مثلما يستطيع أى شخص آخر ، أما اللمسة الرقيقة التى تضفى أهمية على
الاشياء والشخصيات العادية بفضل صدق الوصف والمشاعر فشيء لاأستطيعه » .

ومن الغريب أن يغفل سكوت ذكر أغلى موهبة للروائية الشابة. صحيح أن ملاحظاتها
عميقة وأن عاطفتها بناءة ، ولكن كان إحساسها بالفكاهة ، هو الذى أعطى
لملاحظاتها طعماً خلع على مشاعرها نوعاً من الحيوية التى لا تشوبها شائبة .
وقد كان المجال الذى تطرقه محدوداً . فكثيراً ما كتبت نفس القصة فى كل كتبها ،
ولايوجد تنوع كبير فى شخصياتها . وهم إلى حد كبير نفس الأشخاص ولكن
من زاوية مختلفة نوعاً . لقد كانت لديها قدرة كبيرة على الإدراك السليم ، ولم يعرف

أحد عيوبها خيراً منها. وكانت خبرتها بالحياة مقصورة على دائرة صغيرة من المجتمع الريفي ، وكانت قانعة بتناول هذه الدائرة وحدها .

كتبت فقط عما عرفته ، وقد لوحظ أنها لم تحاول مطلقاً أن تكتب حواراً يدور بين رجال فقط . ذلك لأنها لم تكن لتسمعهم بطبيعة الحال فى واقع الحياة .

وكانت تؤمن بالآراء الشائعة فى أيامها ، وبقدر ما يبدو من كتبها وخطاباتها كانت راضية بالأوضاع السائدة ، ولم يكن لديها شك فى أن الفوارق الاجتماعية هامة ، وكانت ترى أنه من الطبيعي أن يكون هناك غنى وفقير ، وأن الابن الأصغر للرجل « الجنتلمان » يؤمن بإعداده لسلك الرهبنه وبمعاش كاف توقفه عليه أسرته وكان الشباب يتقدمون فى حياتهم وينخرطون فى خدمة الملك ، بفضل نفوذ أقربائهم الأقوياء ، وكانت مهمة المرأة تتلخص فى الزواج ، بعد حب بالطبع ، ولكن على أن يتم هذا كله فى ظروف مالية مرضية ، كان هذا هو المتبع ، وليس هناك ما يدل على أن چين أوستن كانت تعترض على شيء منه . لقد كانت أسرتها وثيقة الصلة بالكهنة . والخاصة من الأعيان ، ولم تكن رواياتها تدور حول فئة أخرى .

ومن الصعب أن نقرر أى هذه الروايات أفضل ، لأنها جميعاً جيدة جداً ، ولكل واحدة منها المعجبون بها المخلصون لها ، بل المتعصبون : « فما كولى » يرى أن « منتزه مانسفيلد » ، هو أعظم عمل لها ، غير أن نقاداً آخرين — لايقلون عنه شهرة — يفضلون « إمّا » ، أمّا « دزرائيلى » فقد قرأ الكبرياء والهوى سبع عشرة مرة ، واليوم ينظر الكثير إلى « الإغراء » على أنها أروع وأكمل عمل لها . أما جمهرة القراء ، فأعتقد أنها سلمت بأن الكبرياء والهوى هى أروع أعمالها . وفى هذه الحالة أعتقد أن من الأفضل التسليم بحكمهم . إن ما يجعل الرواية خالدة ، ليس مدح النقاد لها ، أو شرح الأساتذة ودراستها فى الفصول الجامعية ، وإنما وجود جمهرة كبيرة من القراء تتعاقب جيلا بعد جيل ، وتجد فى قراءتها متعة وثراء روحياً .

أما أى هذه الروايات أقيم — فى نظرى — فإننى أرى أن « الكبرياء والهوى » تعد فى مجموعها أكثر الروايات إرضاء وإقناعاً . إننى أتضايق من رواية «إمّا » بسبب تعاظم البطلة . فهى فى الواقع تغالى فى تعاطفها مع الأشخاص الذين تنظر إليهم من عل باعتبارهم فى مرتبة اجتماعية أدنى ، ولا أجدنى مهتماً بقصة الحب الذى كان

بين فرانك تشرشل وچين فيرفاكس . إنها الرواية الوحيدة من روايات مس أوستن التى أراها ملتوية ومتشعبة . أما رواية « منتزه ما نسفيلد» فإن البطل والبطلة، فانى وإدموند، مغروران بدرجة لاتطاق . وأجدنى متعاطفاً كل التعاطف مع هنرى ومارى كروفورد اللذين يتصرفان بتلقائية وحيوية وسحر . أما رواية « الإغراء » فهى ذات سحر فريد ، ولولا حادث « كوب » عند «لايم ريجيس» لاضطررت إلى اعتبارها أكمل الروايات الست . ولم يكن لدى جين أوستن موهبة عظيمة فى ابتكار حوادث ذات طابع غير عادى ، وهذا فى نظرى يجعل عملها غير متقن . فقد ارتقت لويزا مسجروف مرتفعاً عالياً، وكان حبيبها كابتن ونتويرث يساعدها على النزول قفزاً ، ولكنه يخطئها فتسقط على رأسها وتفقد وعيها . فإذا كان سيمد لها يديه — ويقال إنه اعتاد أن يفعل ذلك حين ينزلها قفزاً من مكان مرتفع — فلا يمكن أن تكون على ارتفاع يزيد على ست أقدام ، ونظراً لأنها تقفز إلى أسفل ، فلا يمكن أن تسقط على رأسها. مهما كان الأمر فإنها ستنزل مستندة إلى الملاح القوى. وربما شعرت بالخوف والهلع ، ولكنها لن تصاب بأضرار . وكيفما كان الأمر فقد فقدت وعيها . أما الضجة التى قامت بعد ذلك فلا يمكن تصديقها . فالجميع يفقدون اتزانهم . أما كابتن ونتورث الذى خاض المعارك وجنى ثروة من الجوائز ، فقد شله الرعب ، وبدأ سلوك كل من يعنيهم الأمر — بعد هذا الحادث مباشرة — أحمق للغاية لدرجة « أنه يصعب على أن أصدق أن مس أوستن تلك التى كانت تقابل بثبات ملحوظ مرض وموت أصدقائها وأقاربها لم تنظر إلى هذا السلوك باعتباره سخافة غير مألوفة » .

أما البروفسور « جارود » وهو ناقد مطلع ولماح ، فقد قال إن چين أوستن كانت عاجزة عن كتابة قصة بالمعنى الذى شرحه هو : سلسلة من الأحداث سواء كانت رومانسية أو غير مألوفة. لكن لم تكن لدى چين أوستن الموهبة التى تمكنها من فعل هذا كما أنها لم تحاوله قط . كانت تمتاز بإدراك سليم إلى حد كبير ، وبإحساس لماح بالفكاهة، لايمكن معهما أن تكون رومانسية، ولم تكن تهتم بما هو غير مألوف ، بل بما هو مألوف. وهى تجعله شيئاً غير مألوف بفضل حدة ملاحظاتها، وبفضل سخريتها وفطنتها العابثة . إن القصة تعنى بالنسبة لمعظمنا حكاية مترابطة ومنسقة لها بداية وسط ونهاية . ورواية « الكبرياء والهوى » تبدأ بداية سليمة ، بوصول شابين يعتبر

حبهما لإليزابث بنيت وأختها چين وهو الموضوع الرئيسى للرواية . كذلك تنتهى الرواية فى المكان المناسب بزواجهما . إنها النهاية السعيدة التقليدية . وهذا النوع من النهايات قد أثار احتقار المتحذلقين ، وصحيح بطبيعة الحال أن كثيراً من الزيجات وربما أكثرها ليست بالزيجات السعيدة بل أكثر من ذلك أن الزواج لاينهى شيئاً أو يختمه . إنه مجرد بدء لتجربة من نوع آخر . ونتج عن هذا أن ظهر مؤلفون كثيرون بدأوا رواياتهم بالزواج وتناولوا نتائجه . وهذا من حقهم . ولكن لى رأيا ، خلاصته أن هناك ما يمكن أن يقال دفاعـًا عن الناس البسطاء الذين يرون فى الزواج خاتمة مرضية للعمل الروائى . إننى أعتقد أنهم يفعلون ذلك لأن لديهم شعوراً عميقاً وغريزيـًا ، بأن الرجل والمرأة يستطيعان تحقيق وظيفتهما البيولوجية بفضل الزواج . والاهتمام — ومن الطبيعى أن نشعر به — بالخطوات التى أدت إلى هذه النهاية : مولد الحب ، العقبات ، سوء التفاهم ، الاعترافات . كل هذا يؤتى ثماره وتظهر نتائجه فى الجيل الذى سيعقبهم — إن كل زوجين بالنسبة للطبيعة ، ليسا إلا حلقة فى سلسلة ، والأهمية الوحيدة للحلقة هى أنه يمكن أن تضاف إليها حلقة أخرى . وهذا هو تبرير الروائى للنهاية السعيدة. وفى روايات چين أوستن يزداد رضا القارئ — إلى حد كبير — حين يعرف أن العريس له دخل كبير من الأملاك ، وأنه سوف يأخذ عروسه إلى منزل جميل محاط بحديقة ، مؤثث بأثاث فاخر وجميل .

إن رواية « الكبرياء والهوى » تبدو لى رواية محكمة البناء للغاية ، فالحوادث يتبع بعضها بعضاً بطريقة طبيعية ، كما أن إحساس القارئ بإمكان وقوع هذه الأحداث يظل سليماً . وربما يبدو غريبـًا أن تكون كل من إليزابيث وچين على هذه الدرجة من التربية والسلوك الحسن ، مع أن والدتهما والشقيقات الثلاث الأخريات جد عاديات . غير أن حتمية هذا الوضع كانت ضرورية للقصة التى يتعين على مس أوستن أن تحكيها . ولقد سمحت لنفسى أن أتساءل فى دهشة : لماذا لم تتجنب مس أوستن هذه العقبة الكؤود فتجعل إليزابيث وچين ابنتين من زواج أول لمستر بنيت مثلا ، وتجعل من مسز بنيت ، التى فى الرواية ، زوجة ثانية ووالدة البنات الصغيرات الثلاث ، لقد أحبت چين أوستن اليزابيث أكثر من أى بطلة من بطلات رواياتها ، وقد كتبت تقول : « يجب أن أعترف بأنى أعتبرها أمتع مخلوق ظهر على الورق » ،

وإذا كانت چين أوستن هى ، كما يظن البعض ، الأصل الذى تعد إليزابيث بمثابة صورة له ــ ولقد خلعت عليها بالتأكيد من مرحها ، وروحها العالية ، وشجاعتها ، وفطنتها وخفتها ، وتعقلها وحساسيتها السليمة ــ فقد لانكون متهورين إذا افترضنا أنها عندما رسمت چين بنيت الهادئة العطوفة الجميلة ، إنما كانت تضع فى ذهنها أختها كساندرا . وظهر دارسى بوجه عام بمظهر الوغد المريع . وكان أول خطأ ارتكبه أنه رفض أن يرقص مع أشخاص لايعرفهم ، ولا يريد أن يتعرف عليهم فى حفل راقص عام قصده مع مجموعة من الأصدقاء . ولم يكن بالرجل الشرير جداً . صحيح أنه عندما طلب الزواج من اليزابيث فعل ذلك بقحة لاتغتفر . ولكن الكبرياء بسبب المولد والثروة ، كانت هى السمة الغالبة فى شخصيته ، وبدونها لما كانت هناك قصة تحكى . وأكثر من هذا فإن طريقته فى طلب يدها أتاحت لجين أوستن فرصة كتابة أروع مشهد درامى فى الكتاب ، ومن المفهوم أنه بفضل الخبرة التى اكتسبتها فيما بعد ، كان من الممكن أن تعبر عن مشاعر دارسى بطريقة تثير حفيظة اليزابيث دون أن تحشو فمه بكلام غير معقول ، يمكن أن يصدم القارئ . وربما كانت هناك بعض المبالغة فى رسم شخصية ليدى كاترين ومستر كولنز . بيد أنى أعتقد أن الكوميديا تسمح بشئ من هذا ، إن الكوميديا ترى الحياة فى ضوء أكثر بريقاً ، ولكنه أبرد من ضوء الحياة العادية ، وإن لمسة من المبالغة ، أعنى «الفارْس» لاتكون فى أغلب الأحيان عيباً . ولعل الفارْس إذا مزجت وأضيفت بذكاء مثل قليل من السكر الذى يضاف إلى الفراولة ، قد تجعل الكوميديا أطيب مذاقا . أما بالنسبة لليدى كاترين فيجب أن يذكر المرء أنه فى أيام چين أوستن ، كان المركز والرتبة يعطيان لأصحابهما إحساسا بالسمو وبالتفوق الهائل على أولئك الذين هم فى مرتبة أدنى ، ولم يتعودوا فقط أن يعاملهم من هم أدنى مرتبة باحترام كبير ، وإنما كان ذلك يحدث بالفعل ، وإذا كانت ليدى كاترين تنظر إلى اليزابيث على أنها من سقط المتاع ، فيجب ألا ننسى أن نظرة اليزابيث إلى عمتها فيليس لم تكن بأفضل منها ، لأنها كانت زوجة كيل قضائى . وفى شبابى أنا ، أى بعد مائة سنة من كتابة چين أوستن لرواياتها ، عرفت سيدات ، عظيمات لم يكن شعورهن بأهميتهن ــ وإن لم يكن صارخاً إلى هذا الحد ــ يختلف كثيراً عن شعور ليدى كاترين ،

وبالنسبة لمستر كولنز : من منا لم يعرف ــ حتى فى أيامنا هذه ــ رجالا يجمعون بين التفاخر أو المباهاة والتملق ؟

لم ينظر أحد إلى چين أوستن على أنها صاحبة أسلوب عظيم . وكان هجاؤها للكلمات فريداً ، وكثيراً ما كانت تستخدام قواعد اللغة بطريقة غير سليمة. ولكن كانت لها أذن موسيقية . وأعتقد أنه يمكن أن تدرك تأثير دكتور جونسون فى بناء عباراتها . وهى أقدر على استخدام الكلمة ذات الأصل اللاتينى منها على استخدام الكلمة الإنجليزية البسيطة ، وهى تفضل استخدام المجرد على استخدام الملموس ، ومن شأن هذا أن يضفى على عبارتها طابعاً رسمياً خفيفاً لايؤذى القارئ بل إن هذا الطابع كثيراً ما يجعل الملاحظة الذكية أكثر حدة . ويضفى على الملاحظة الخبيثة نكهة هادئة. ونستطيع أن نقول إن حوارها طبيعى كما ينبغى أن يكون الحوار. والمعروف أن وضع الحوار على الورق بالطريقة التى يقال بها يبعث على الملل . ولذلك لابد من إدخال بعض التعديلات عليه . ولما كان الكثير من الأحاديث قد قيلت كما لوكانت تقال فى أيامنا هذه ، فيجب أن نفترض أنه فى نهاية القرن الثامن عشر كانت الفتيات الصغيرات يعبرن فى أحاديثهن بطريقة تبدو اليوم غير طبيعية . إن چين بنيت تتحدث عن شقيقات حبيبها قائلة : « من المؤكد أنهن لم يبدين مشاعر الود حيال علاقته بى ، وهو أمر لم يثر دهشتى ، نظراً لأنه كان بمقدوره أن يختار بطريقة أفضل فى كثير من النواحى » وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن هذا هو ما قالته ، ولكنى أعترف أنه يحتاج إلى مجهود .

لم أقل ما هى أكبر مزية فى نظرى لهذا الكتاب الساحر : إنه قابل للقراءة بشكل رائع . قابل للقراءة أكثر من بعض روايات أخرى أشهر منه وأعظم . وكما قال سكوت إن مس أوستن تتناول أشياء عادية ، تتناول أحداث الحياة العادية ومشاعرها وشخصياتها . ليست هناك أشياء ذات أهمية ، ومع ذلك عندما تصل إلى نهاية الصفحة فإنك تقلبها بشغف لكى تعرف ماذا سيحدث بعد ذلك ، إن شيئاً ذا أهمية لا يحدث ، ومع ذلك فأنت تقلب الصفحة من جديد ، وبنفس الحماس .

وبعد أن فرغت من كتابة هذا المقال تصادف فى إحدى الأمسيات أن كنت أتناول العشاء بجانب سيدة على صلة بسيدة تنحدر من شقيق چين أوستن : وهذا

الشقيق كما يذكر القارئ قد ورث ممتلكات كبيرة فى كنت وهامشير من أحدأبناء العم ، ونصت الوصية على أن يحمل لقب فارس ، وكانت فانى إحدى بناته ابنة أخ چين أوستن المفضلة . وقد كبرت وبزواجها أصبحت ليدى ناتشبول ، وخلال عشائنا تطرق حديثنا إلى چين أوستن ، وقد أخبرتنى جارتى أن لدى قريبتها هذه خطاباً – لم ينشر – من ليدى ناتشبول إلى أختها الصغرى مسز رايس وفيه تتحدث عن عمتها الشهيرة . وبالطبع كنت شغوفاً كل الشغف لرؤية هذا الخطاب ، وبعد مدة قصيرة بعثت لى السيدة الكريمة بنسخة منه ، كان مدهشاً ويحمل طابع الفترة التى كتب فيها ، مسلياً بطريقة خاصة بحيث شعرت أنه لابد من نشره . وأستطيع أن أنشره الآن بعد أن طلبت الإذن من لورد برابورن وهو أحد أقرباء ليدى ناتشبول المباشرين ، والخطوط الموضوعة تحت بعض الكلمات من وضعها هى .

وقد نستخلص من الطريقة التى بدأ بها الخطاب أن مسز رايس كانت قلقة من بعض الأمور التى سمعتها والتى تنعكس على سلوك چين أوستن الدمث ونبلها وقد كتبت إليها لتستفسر عما إذا كانت هذه الأشياء لسوء الحظ صحيحة . وأجابت ليدى ناتشبول كالآتى :

نعم يا حبيبتى إنها الحقيقة ، إن العمة چين فى أحوال عديدة – من واقع ظروف مختلفة – لم تكن مهذبة كما ينبغى أن تكون بفضل موهبتها . ولو قد عاشت بعد عصرها بخمسين عاماً ، لكانت أنسب فى كثير من النواحى إلى ذوقنا الأكثر تهذيباً . لم يكونوا فى ذلك الوقت أغنياء ، والناس الذين اختلطوا بهم لم يكونوا يتمتعون بتربية عالية ، وبالاختصار لم يتربوا سوى تربية عادية . وبالطبع – رغم أنهم كانوا يتفوقون فى الملكات الذهنية والثقافية – إلا أنهم كانوا على نفس المستوى الذى كان فيه المهذبون ، ولكن اعتقد أنهم فيما بعد عندما اختلطوا فى حياتهم بمسز نايت (التى كانت جد مغرمة بهم وعطوفة عليهم) أصلحت من شأن الشقيقتين ، وكانت العمة چين من الذكاء بحيث نحت جانباً كل مظاهر « العادية » (إن صح هذا التعبير) . وعلمت نفسها كيف تكون أكثر رقة وتهذيباً ، على الأقل عند مخالطة الناس عامة . وكلا العمتين (كساندرا وچين) كانتا قد نشأتا على جهل بالعالم وأساليبه (أقصد

بالنسبة « للمودة » وما شابه ذلك) ولولا زواج الوالد الذى أتى بهم إلى كنت ، وعطف مسز نايت ، التى كثيراً ما اعتادت أن تبقى إحدى الشقيقتين معها ، لظلتا دون مستوى المجتمع المهذب ، وأساليبه ، وإن كان ذكاؤهما ولطفهما لن يتضاءلا . وإذا كان هذا لايرضيك ، فإننى أسألك الصفح ، بيد أنى أحسست أن هذا كله على طرف ريشتى . وقد شاءت هذه الريشة أن تكتب وتقول الحقيقة . لقد حان وقت اللبس . . .

. . . وتقبلى تحيات أختك المحبة

ف . س . ن

إذا كانت هذه الرسالة تدل على شىء ، فإنها تدل على أنك قد تستطيع أن تحدث دوياً فى العالم ، ومع ذلك تفشل – بشكل مؤلم – فى التأثير على أفراد عائلتك .

ستندال
و
الأحمر والأسود

لقد وجدت من المستحيل أن أرسم صورة واضحة بشكل معقول ، لحياة هنرى بايل ، الذى عرف باسم ستندال ، فى مثل هذه الصفحات القليلة المحدودة التى تحت تصرفى . وقد يحتاج الأمر إلى كتاب لسرد قصته، ولابد لكى أعرضها بطريقه مفهومة من أن أعود إلى التاريخ الاجتماعى والسياسى لعصره لأكتب عنه . ومن حسن الحظ أن مثل هذا الكتاب قد كتب ، فإذا كان قارئ رواية « الأحمر والأسود » قد بلغ من اهتمامه أنه يريد معرفة المزيد عن مؤلفها ، مما حرمنى منه ضيق المكان ، فإن خير ما يفعله هو قراءة السيرة الحية المدعمة بالأسانيد التى نشرها حديثاً ما ثيو چوزيفسون تحت عنوان « ستندال أو السعى وراء السعادة ». وبهذا فقط أستطيع أن أقنع نفسى، وأكتفى بذكر الحقائق المجردة فى سيرة ستندال .

ولد ستندال فى جرينوبل عام ١٧٨٣ ، وكان والده وكيل دعاوى يملك العقار ويتمتع بشيء من النفوذ . أما أمه ، ابنة الطبيب الأول بالمدينة ، فماتت وهو فى السابعة من عمره .

وفى عام ١٧٨٩ نشبت الثورة الفرنسية . ونفذ حكم الإعدام فى لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت فى عام ١٧٩٢ .

وصف ستندال حياته فى الطفولة والصبا بإسهاب ، ومن الجدير دراستها لأنه اكتسب فى هذه الفترة أفكاراً متحيزة ظل يعتنقها حتى آخر حياته . وعندما ماتت والدته ، التى كان يحبها ، وعلى حد قوله ، كما يحب الحبيب حبيبته ، ترك فى رعاية والده وخالته . وكان والده رجلا وقوراً ، حى الضمير ، وكانت خالته متزمتة وتقية . وأحس نحوهما بكراهية . ورغم انتمائهما إلى الطبقة المتوسطة إلا أن

ميولهما كانت أرستقراطية ، وقد ألقت الثورة بالرعب فى قلبيهما . ويزعم ستندال أن طفولته كانت تعسة . ولكن لايبدو من قصة حياته التى سردها بنفسه أن كان هناك ما يدعو إلى كبير شكوى . وكان ذكيًّا ، قوى الحجة ، صعب المراس . وعندما وصل الإرهاب إلى جرينوبل أدرج اسم والده فى قائمة المشبوهين ، واعتقد الوالد أن السبب فى هذا يرجع إلى محام منافس له ، يسمى آمار ، كان يحسده على نجاحه فى عمله . وقال له ولده الصغير الخبيث : « ولكن آمار قد وضع اسمك فى قائمة المشكوك فى ولائهم للجمهورية ، ومن المؤكد أنك لاتحبها » إنها الحقيقة بالطبع ، ولكن لم يكن مما يسر رجلا فى منتصف عمره ومهدداً بفقد رأسه أن يسمع ذلك من ابنه الوحيد . واتهم ستندال والده بالبخل والتقتير الشديدين ، ولكن يبدو أنه كان يستطيع دائماً أن يلاطفه ويحصل منه على المال كلما احتاج إليه . وكان محرماً عليه قراءة كتب معينة ، ولكنه قرأها رغم ذلك . وهذا ما حدث للآلاف تلو الآلاف من أطفال العالم كله منذ طبعت الكتب لأول مرة .

وتلخصت شكواه الرئيسية فى أنه لم يكن ليسمح له بحرية الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ولكن حياته لايمكن أن تكون بمثل هذه العزلة التى صورها ، إذ كان له أختان ، كما كان هناك صبية آخرون يشاركونه دروسه على يد معلمه القس اليسوعى . والواقع أنه ربى ، بالطريقة التى ربى بها أطفال الطبقة المتوسطة الميسورة فى تلك الأيام . وكغيره من الأطفال ، نظر إلى القيود العادية على أنها طغيان صارخ ، وعندما كان يضطر إلى تحصيل دروسه ، وعندما كان لايسمح له بأن يتصرف كما يشاء ، كان يعتقد أنه يعامل بقسوة ووحشية .

وهو فى ذلك يشبه معظم الأطفال ، لكن معظم الأطفال عندما يكبرون ، ينسون أحزانهم ، أما هو فقد شذ عن هذه القاعدة ، فعندما كان فى الثالثة والخمسين من عمره ظل يطوى النفس على حنقه القديم . ونظراً لأنه كان يكره معلمه الخاص اليسوعى ، أصبح خصما عنيفاً للكهنوتية ، ولم يكن بمقدوره ، طوال حياته ، أن يقتنع بأن الرجل المتدين قد يكون مخلصًا. لقد صار جمهوريًّا متحمساً لأن والده وخالته كانا من أنصار الملكية المخلصين . ولكنه عندما تسلل ذات ليلة إلى خارج المنزل ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وذهب إلى أحد الاجتماعات الثورية

أصيب بما يشبه الصدمة . لقد ألفى الطبقة العاملة « البروليتاريا» قذرة كريهة الرائحة ، سوقية بذيئة الحديث . وكتب يقول « موجز القول إننى كنت آنذاك مثلما أنا الآن ، إنى أحب الشعب ، وأكره جلاديه ، ولكننى سأتعذب عذاباً أبدياً إذا أنا عشت مع الشعب . . . لقد كنت ، ولازلت ، ذا ميول أرستقراطية للغاية ، إننى على استعداد للقيام بأى شىء من أجل إسعاد الشعب ، ولكننى أفضل ، على ما أعتقد ، أن أقضى أسبوعين من كل شهر فى السجن على أن أعيش مع أصحاب الحوانيت . ولايسع المرء إلا أن يبتسم وهو يذكر كم يشبه هذا موقف الشبان المتمردين المتألقين الذين يقابلهم المرء من حين لآخر فى صالونات الأثرياء .

كان ستندال فى السادسة عشرة من عمره عندما ذهب إلى باريس لأول مرة . وقدمه والده إلى أحد أقربائه ويدعى مسيو دارو وكان لهذا الرجل ولدان يعملان بوزارة الحربية . وكان بيير الابن الأكبر ، مسئولا عن إحدى مصالح الوزارة ، وبعد فترة عين ابن عمه الصغير كأحد سكرتيريه العديدين . وشرع نابليون فى حملته الثانية على إيطاليا ، وتبعهالأخوان دارو ، وبعدها بقليل انضم إليهم ستندال فى ميلانو . وبعد أن أمضى بضعة شهورفى هيئة الكتبة عهد إليه بيير دارو بمهمة فى كتيبة الفرسان ، لكنه ، وقد استمتع بمباهج ميلانو ، لم يبذل أية محاولة للحاق بكتيبته، وإذ انتهز فرصة غياب دارو ، تملق رجلا يدعى الجنرال ميشو حتى جعله ياوره الخاص . وعندما عاد بيير دارو أمر ستندال باللحاق بكتيبته ، ولكنه ظل لستة أشهر يتعلل بعذر أو بآخر ليتجنب تنفيذ الأمر ، وعندما انصاع إلى الأمر فى النهاية بلغ من ضيقه وملله أن حصل على إذن بالعودة إلى موطنه بحجة المرض ، وهناك استقال من مهمته . ولم يشهد أية عملية حربية ، وإن كان هذا لم يمنعه من التفاخر — بعد مضى سنوات — بشجاعته كمقاتل . والواقع أنه عندما أخذ يبحث عن وظيفة عام ١٨٠٤ حرر بنفسه شهادة (وقعها الجنرال ميشو) شهد فيها بشجاعته فى مختلف المعارك التى ثبت أنه لايمكن أن يكون قد اشترك فيها .

ورحل إلى باريس ليعيش على راتب صغير من والده وإن كان كافياً . وكان قد وضع هدفين نصب عينيه . أولهما أن يصبح أكبر شاعر مسرحى فى عصره .

فدرس كتيباً من الكتب التعليمية عن فن كتابة المسرحية ، وكان يذهب إلى المسرح كل يوم تقريباً . ويسجل فى يومياته المسرحيات التى كان يشاهدها ويبدى رأيه فيها . وكثيراً ما ذكر فى هذه اليوميات أن فى مقدوره أن يصيغ من مسرحية شاهدها لتوه مسرحية أخرى خاصة به . ويبدو أنه كان يفتقر إلى الأفكار ، ومن المؤكد أنه لم يكن شاعراً . أما هدفه الآخر فهو أن يصبح عاشقاً كبيراً ، غير أن الطبيعة لم تزوده بما يتطلبه هذا الدور ، إذ كان شاباً أقرب إلى القصر ، قبيحاً ، مكتنزاً ، وكان ضخم الجثة قصير الرجلين . أما رأسه فضخمة تغطيها كتاة من الشعر الأسود ، وكان فمه رفيعاً ، وأنفه غليظا وبارزاً ، ولكن عينيه كانتا بنيتين مليئتين بالحرارة والحماس ، وكانت يداه صغيرتين وقدماه كذلك ، وبشرته رقيقة كما لو كانت بشرة امرأة . وكان يملؤه فخراً أن يعلن أن الإمساك بالسيف يترك فقاقيع فى يده . وكان إلى جانب هذا خجولا مرتبكاً فى تصرفاته . واستطاع ، عن طريق ابن عمه المحارب دارو ، الأخ الأصغر لبيير ، أن يختلف إلى صالونات بعض السيدات اللاتى أثْرت الثورة أزواجهن ، ولكن لسانه كان ينعقد بطريقة محزنة وهو فى صحبة الناس . كان فى مقدوره أن يفكر فى أشياء لماحة يقولها ، ولكنه لم يستطع أبداً أن يستجمع شجاعته ويتفوه بها . كان الخجل يلجم لسانه . وكانت لهجته الريفية تضايقه وتخجله ، وربما كانت الرغبة فى التخلص منها هى التى جعلته يلتحق بمدرسة للتمثيل. وفى المدرسة التى بممثلة تدعى ميلانى جلبيروكانت تكبره بعامين أو ثلاثة أعوام ، وقد قرر بعد شىء من التردد أن يقع فى حبها ، ويرجع تردده إلى أنه لم يكن متأكداً مما إذا كانت عظمة روحها تعادل عظمة روحه ، ويرجع أيضاً إلى أنه كان يشك فى أن تكون مصابة بمرض تناسلى . وإذا بدا أنه تثبت من خطأ الزعمين ، تبعها إلى مرسيليا ، حيث كانت مرتبطة بعمل ، وحيث اشتغل هو فى محل بقالة بالجملة لعدة شهور . وانتهى به التفكير إلى أنها ليست المرأة التى كان يتصورها ، سواء من الناحية الروحية أو الفكرية . ولقد شعر بارتياح عظيم عندما اضطرتها الحاجة إلى المال إلى العودة إلى باريس .

ولايتسع المجال أمامى لتناول مختلف العلاقات الغرامية التى شغلت حياة

ستندال ، ولكنى سأكتفى فقط بعلاقتين أو ثلاث تلقى ضوءاً على شخصيته . كان شديد الحساسية بالجنس، ولكنه لم يكن شهوانيًّا بصفة خاصة ، والحق أنه كان يشتبه فى بروده الجنسى إلى أن تم اكتشاف بعض الخطابات الصريحة جدًّا المرسلة إليه من إحدى عشيقاته الأخيرات . وكانت عواطفه ذهنية ، وكان فى استحواذه على امرأة إشباع لغروره قبل أى شيء آخر . ورغم ما فى أسلوبه من عبارات طنانة إلا أنه ليس هناك ما يدل على أنه كان يتمتع بالرقة . وهو يعترف بصراحة تامة أن التوفيق جانب معظم علاقاته الغرامية ، وليس من الصعب إدراك السبب . كان ضعيف العزم ، وعندما كان فى إيطاليا سأل أخا له كان يعمل ضابطاً عن السبيل الى الفوز بحظوة امرأة ، وفى وقار دوّن النصيحة التى أسديت اليه ، وكان يحاصر النساء وفقاً لقوانين ، مثلما كان يحاول كتابة المسرحيات وفقاً لقوانين، وكم كان يستاء كلما اكتشف أنهن يرونه باعثاً على السخرية ، ويدهش عندما أدركت النساء عدم إخلاصه ، ويبدو أنه ، رغم ذكائه ، لم يخطر بباله قط أن اللغة التى تفهمها المرأة هى لغة القلب ، وأن لغة العقل لاتؤثر فيها . وكان يعتقد أنه يستطيع أن يحقق عن طريق الحيلة والخداع مالا يمكن تحقيقه إلا بالإحساس .

ورجع ستندال إلى باريس بعد أن تركته ميلانى جلبير ببضعة شهور ، وحصل بفضل نفوذ بيير دارو على وظيفة فى إدارة المهمات الحربية . وعين فى برونزويك وتخلى عن مشروع الشاعر المسرحى الكبير ، وقرر أن يهيئ لنفسه مركزاً بين صفوف البيروقراطية ، واعتبر نفسه باروناً فى الإمبراطورية ، أو فارساً فى حرس الشرف ، وأخيراً وزيراً بمرتب ضخم . ورغم اتجاهه الجمهورى المتحمس ونظرته إلى نابليون كطاغية سلب فرنسا حريتها ، إلا أنه كتب إلى والده يطلب منه أن يشترى له لقباً . وأضاف «دى » إلى اسمه ، وأطلق على نفسه اسم هنرى دى بايل . لقد كان إداريًّا كفؤاً ذا دهاء ، وفى عام ١٨١٠ ، وبعد حصوله على ترقية ، وجد نفسه فى باريس مرة أخرى فى مكتب فى جناح فخم بقصر الإنفاليد، وحصل على عربة يجرها جوادان، كما كان له سائق وخادم . وأخذ فتاة صغيرة من فتيات الكورس لتعيش معه ، ولم يكفه هذا ، فقد شعر أن من حق نفسه عليه أن يتخذ عشيقة تكون قريبة إلى قلبه ، ويكون لها من المركز ما يرفع من نفوذه .

أن الكسندرا دارو هى التى تستطيع أن تملأ هذه الخانة . كانت امرأة جميلة ، وزوجة لبيير دارو ، الذى كان قد أصبح كونتا ، ولكنها تصغر زوجها بأعوام كثيرة ، وكانت قد أنجبت منه أربعة أطفال . وليس هناك ما يدل على أن ستندال ألقى بالا إلى العطف والتسامح اللذين أبداهما بيير نحوه ، والذى كلفه الكثير ، ولا إلى أنه من غير اللياقة أو الذوق إغواء زوجة الرجل الذى يدين له بتقدمه والذى اعتمد على مساعيه الطيبة فى الحصول على وظيفة . لم يكن ستندال يعرف فضيلة الاعتراف بالجميل .

وبدأ فى الهجوم متسلحاً بحيله الغرامية ، غير أن حياءه التعس الذى لم يستطع أن يتخلص منه ظل عائقاً فى طريقه . وهو تارة مرح وطوراً حزين ، تارة يغازل وطوراً يبدو بارداً ، تارة يتحمس وطوراً لايبالى ، ويبدو أنه لم يكن هناك جدوى ، ولم يستطع أن يعرف ما إذا كانت الكونتيسة تحبه أم لا . وأحس بالأسى حين خيل إليه أنها تسخر منه ، من وراء ظهره ، بسبب خجله ، وذهب فى النهاية إلى صديق قديم ، وبعد أن حكى له عن متاعبه ، طلب منه أن يدله على الخطة التى ينبغى أن يسلكها ، وأخذا يقلبان الأمر على وجوهه . الصديق يسأل أسئلته وستندال يجيب عليها ، ويسجلها الصديق . وإلى القارئ ما ذكره ستندال بعد أن لخصه ماتثيو چوزيفسون – رداً على السؤال : « ما هى المزايا التى ستعود عليك من إغواء مدام دى ب ؟ » (ومدام دى ب هى الكونتيسة دارو) . . . هذه هى المزايا : سيتصرف حينئذ وفقاً لدواعى شخصيته ، سينعم بمزايا اجتماعية عظيمة ، سيقطع مزيداً من الأشواط فى دراسته للعواطف البشرية ، وسيشبع بذلك شرفه وكبرياءه » وفى أسفل هذه الوثيقة ملاحظة كتبها ستندال « النصيحة المثلى : اهجم . . اهجم اهجم . . » كانت نصيحة جيدة ، ولكن ليس من السهل اتباعها على من نكب بحياء لايمكن التغلب عليه . وبعد بضعة أسابيع دعى للإقامة فى بيشقيل فى منزل دارو الريفى ، وفى صبيحة اليوم التالى وبعد أن قضى ليلة لم يغمض له فيها جفن ، قرر أن يتخذ الخطوة الحاسمة ، وارتدى أفضل ما عنده من السراويل ذات الشرائط ، وأثنت الكونتيسة على زيه . وأخذا يتمشيان فى الحديقة بينما تبعهما على بعد عشرين ياردة إحدى صديقاتها مع أمها والأطفال ، أخذوا يذرعون أرض الحديقة

جيئة وذهاباً ، وكان ستندال يرتجف ولكنه كان قد عقد العزم ، وحدد نقطة معينة سماها (أ) أماهما فكانا لحظتها عند النقطة (ب) ، وأقسم أنه إذا وصلا إلى النقطة (أ) دون أن يبيح لها بسره ليقتلن نفسه . وتكلم ، وأمسك بيدها محاولا تقبيلها. وذكر لها أنه ظل يحبها ثمانية عشر شهراً ، وأنه بذل كل ما فى وسعه لإخفاء هذا الحب ، بل حاول ألا يراها ، ولكنه لم يعد يستطيع أن يتحمل عذابه أكثر من ذلك وأجابته فى غير قسوة ، أنها لاتكن له أكثر من مشاعر الصداقة ، وأنها لاترغب فى خيانة زوجها ، ودعت بقية أفراد المجموعة للانضمام إليهما وخسر ستندال ما أسماه بمعركة بيشقيل ويخيل إلى أنه جرح فى كبريائه أكثر مما جرح فى قلبه .

وبعد شهرين ، وكان لايزال يعانى من مرارة الفشل ، طلب إجازة ورحل إلى ميلانو . التى كان قد عشقها فى زيارته الأولى لايطاليا . فهناك ، منذ عشر سنوات انجذب إلى امرأة تدعى جينا بييترا جروا ، وكانت عشيقة لأخ له يعمل ضابطاً ، ولكنه كان فى ذلك الحين ملازماً بسيطاً مفلساً ولم تعره هى كبير اهتمام . وفكر فى البحث عنها . كان والدها يمتلك متجراً ، وقد تزوجت وهى صغيرة جداً من كاتب حكومى . وهى الآن فى الرابعة والثلاثين من عمرها ولديها صبى فى السادسة عشرة من عمره ، وإذ رآها ستندال للمرة الثانية وجدها امرأة هيفاء رائعة ولا يزال شيء من العظمة ينطق فى عينيها وملامحها وحاجبيها وأنفها (ثم يضيف قائلا) «ولقد وجدتها أكثر ذكاء ، وأكثر نبلا ، وأقل حظا من رواء الشهوانية الكامل » ومن المؤكد أنها كانت ذكية جداً حين استطاعت بمرتب زوجها الضئيل أن يكون لديها شقة فى ميلانو ، ومنزل فى الريف وخدم وعربة وبنوار فى أوبرا الاسكالا .

كان ستندال يدرك بشدة مدى دمامته ، ولكى يتغلب على هذا الشعور قرر ارتداء الثياب الأنيقة العصرية . وكان دائماً بديناً ، ولكنه الآن وقد طاب له العيش صار ضخماً ، ولكن النقود كانت تملأ جيبه والثياب الجميلة تنسدل على جسده . وكان واضحاً أن فرصة إرضاء السيدة النبيلة أصبحت متاحة الآن أكثر مما كانت متاحة عندما كان فارساً معدماً . وقرر أن يسلى نفسه بها أثناء مقامه القصير فى ميلانو ، ولكنها لم تكن بالسهولة التى تصورها . لقد سمحت له برقصة

وظلت متمنعة إلى أن حلت ليلة رحيله إلى روما فوافقت على استقباله فى شقتها فى صباح مبكر . وقد يتراءى أنه وقت غير ملائم لممارسة الحب . وفى ذلك اليوم كتب فى يومياته : « فى الحادى والعشرين من سبتمبر فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، حققت النصر الذى طالما تقت إليه » وكتب أيضاً هذا التاريخ على حمالة بنطلونه. وكان يرتدى نفس البنطلون ذى الشرائط الذى كان يرتديه يوم تصريحه للكونتيسة دارو بحبه .

وفى عام ١٨١٢ استطاع ستندال ، بعد جهد ، أن يقنع الكونت دارو بنقله من وظيفته المريحه فى باريس إلى الخدمة العاملة فى سلاح الإمدادات ، ولحق بنابليون وجيشه فى حملته المفجعة على روسيا ، وقد أثبت ستندال رزانته ، وإقدامه ، وشجاعته أثناء التقهقر من موسكو . وفى عام ١٨١٤ تنازل الإمبراطور عن عرشه ، وانتهت وظيفة ستندال الرسمية . وهو يزعم أنه رفض المناصب الهامة التى عرضت عليه . وإنه فضل أن ينفى نفسه على أن يخدم أسرة البوربون، ولكن الحقائق لم تكن هكذا تماماً ، فقد أقسم يمين الولاء للملك وبذل محاولات للعودة إلى سلك الوظائف العامة وباءت هذه المحاولات بالفشل وعاد إلى ميلانو . وكان لايزال يملك من المال ما يكفى لأن يعيش فى شقة مريحة وأن يذهب إلى الأوبرا كلما شاء ذلك، ولكنه لم يعد ينعم بالرتبة والهيبة والمال الذى كان ينعم به من قبل . كانت جينا فاترة حياله . وأخبرته أن زوجها شعر بالغيرة عندما علم بنبأ عودته وأن المعجبين الآخرين قد ساورهم الشك . وتضرعت إليه أن ينقذ سمعتها ويغادر ميلانو ولم يستطع أن يخفى عن نفسه أن أمرها معه قد انتهى ، ولكن سلوكها لم يفلح إلا فى إلهاب عاطفته ، وفى النهاية خطر له أنه لاتوجد سوى طريقه واحدة لاستعادة حبها.فسحب ثلاثة آلاف فرنك ، وحول هذا المبلغ إليها . ورحلا إلى البندقية ، ورافقتهما والدة جينا ، وابنها وصاحب مصرف متوسط العمر . وقد أصرت جينا على أن يقيم ستندال فى فندق آخر محافظة منها على المظاهر ، وكم كان ضيقه عندما كان الصراف ينضم إليهما وهما على مائدة الطعام . ولم يستطع أن يقنع نفسه بأن من حقه أن يصحبهما . وإليك فقرة ، مكتوبة بالإنجليزية مأخوذه من يومياته : « إنها تتظاهر بأنها قامت من أجلى بتضحية كبيرة حين ذهبت إلى البندقية . وكم كنت غبياً حين

أعطيتها الثلاثة آلاف فرنك تكاليف هذه الرحلة » وكتب بعد عشرة أيام : « لقد نلتها ... ولكنها تحدثت عن شئوننا المالية . لم يكن ثمة وهم بالنسبة لما حدث صباح أمس : إن السياسة تقتل كل ما بى من شهوة ، ويبدو أن ذلك يتم بانسحاب كل العصارة العصبية إلى المخ » .

وفى ١٦ يونيه عام ١٨١٥ هزم نابليون فى معركة واترلو .

وفى الخريف عادت المجموعة إلى ميلانو . وجعلت جينا ستندال يتخذ حجرات له فى ضاحية مجهولة . وعندما حددت له موعداً ذهب متنكراً فى سكون الليل ، مضللا الرقباء بتغيير العربات عدة مرات إلى أن أدخلته الخادمة إلى الشقة . ولكن الخادمة ، بسبب مشاجرة مع سيدتها أو ربما لأن بايل قد أغراها بماله ، كشفت فجأة كشفاً روعه وهو أن زوج السيدة لم يكن غيوراً أبداً ، وأن سيدتها طابت كل هذه السرية لتمنع بايل من مقابلة منافس له ، أو بعبارة أدق ، أحد المنافسين ، لأنهم كانوا كثيرين ، وعرضت عليه الخادمة أن تثبت له صحة ذلك . وفى اليوم التالى أخفته فى حجرة صغيرة مجاورة لمخدع جينا ، ومن هناك ، شاهد بعينى رأسه من خلال ثقب الباب ، الخيانة التى ترتكب فى حقه ، على بعد ثلاث أقدام فقط من مخبئه » . وقال بايل : « ربما تظن أننى اندفعت من الحجرة الصغيرة وأغمدت فيهما خنجرى؟ لم يحدث شئ من هذا القبيل . . . لقد غادرت مخبئى المظلم بنفس الهدوء الذى دخلته به ، وأنا لا أفكر إلا فى الجانب المضحك فى المغامرة ، وأنا أضحك فى سرى ، وكلى شعور بالاحتقار للسيدة ، وقد شعرت ، فضلا عن ذلك ، بالسعادة التامة إذ استعدت حريتى »[1] .

وفى عام ١٨٢١ طلب منه البوليس النمسوى أن يغادر ميلانو لصلته ببعض الوطنيين الإيطاليين واستقر به المقام فى باريس وعاش فيها معظم السنين التسع التالية . وأنشأ علاقة حب أو علاقتين لاقيمة لهما وكان يتردد على الصالونات التى تتذوق بارع الحديث . ولم يعد ستندال معقود اللسان ، وإنما أصبح حاضر

(١) اقتطفها ماتيوجوزيفسون من « ملاحظات وذكريات » Notes et Souvenirs لميريميه Mérimée

البديهة ، لاذع الحديث ، وكان يبلغ ذروته خاصة إذا كان فى حضرة ثمانية أو عشرة أشخاص ، ولكنه كان يميل مثل كثير من المحدثين البارعين إلى احتكار الحديث لنفسه . وكان يحب أن يكون هو الفيصل ، ولم يكن يهتم بإخفاء احتقاره لأى إنسان لايتفق معه فى الرأى . وكان يلجأ إلى لفت الأنظار بالانغماس فى الحديث عن الفجور والدنس بشئ من الحرية ، ورأى النقاد المتسقطون للهفوات أنه كثيراً ما كان يستظرف حباً فى التسلية أو الاستفزاز . ثم نشبت ثورة ١٨٣٠ ، ونفى شارل العاشر وارتقى لويس فيليب العرش . وكان ستندال قد بدد المبلغ المتواضع الذى تركه له والده ، ولم تثمر جهوده الأدبية مالاأو شهرة إذ كان قد عاد إلى طموحه القديم فى أن يصبح كاتباً معروفاً . وكان قد ظهر له عام ١٩٢٢ « مقال عن الحب » وبيع منه فى خلال إحدى عشرة سنة ، سبع عشرة نسخة فقط . وحاول عبثاً الحصول على وظيفة حكومية ، وأخيراً ، وبعد أن تغير نظام الحكم ، عين فى القنصلية بتريستا ، ولكن السلطات النمسوية رفضت قبوله نظراً لميوله التحررية ، ونقل إلى سيفيتا فيكيا فى الولايات البابوية .

ولم يكن يأخذ الواجبات الملقاة على عاتقه مأخذ الجد ، كما كان يقوم برحلات المتعة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان لايمل التجوال وزيارة العالم ، وكون صداقات فى روما أفاد منها الكثير . وكان يشعر بالملل والوحدة بالملل والوحدة فى سيفيتا فيكيا ، وفى سن الواحدة والخمسين عرض الزواج على فتاة صغيرة ، وهى ابنة غسالته ، ووالدها موظف صغير بالقنصلية لكنهم رفضوا عرضه مما جرح كبرياءه . وفى عام ١٨٣٦ أقنع رئيسه بأن يوكل إليه وظيفة صغيرة تتيح له أن يعيش فى باريس لمدة ثلاث سنوات . بينما يشغل شخص آخر وظيفته بصورة مؤقتة . وكان قد استحال إلى شخص بدين جداً ، ذى وجه شديد الحمرة ، وسوالف طويلة ، مصبوغة بأصباغ صارخة ، وكان يخفى صلعته بكثير من الشعر المستعار الذى يجمع بين اللونين الأرجوانى والبنى . وكان يرتدى أحدث الأزياء ، كما لو كان شاباً صغيراً ، وكانت أى ملاحظة تعرض بتفصيلة معطفه أو سرواله بمثابة إهانة بالغة موجهة إليه . وظل يمارس الحب ، ولكن بنجاح ضئيل ، كما استمر فى الذهاب إلى الحفلات والانطلاق فى الحديث .

وفى النهاية اضطر إلى العودة إلى سيفيتا فيكيا ، وهناك ؛ وبعد عامين دهمه المرض . وعندما شفى طلب السماح له بإجازة لاستشارة طبيب معروف فى جنيف . ومن جنيف قصد باريس واستأنف حياته القديمة وفى أحد أيام مارس عام ١٨٤٢ حضر مأدبة عشاء رسمية كبرى فى وزارة الخارجية ، وفى ذلك المساء ، وبينما كان يسير فى الطريق ، حلت به الأزمة من جديد . وحملوه إلى مسكنه حيث مات فى اليوم التالى .

والخاطر الذى لابد أن يرد على ذهن المرء وهو يتمعن الحقائق العارية التى سردتها هو أن تقلبات الحياة التى عاشها ستندال جعلته يمر بخبرات متنوعة لايستطيع التفاخر بها سوى نفر قليل من الروائيين . فقد كان من حظه أن وجد فى فترة بالغة التقلب ، ولقد كتب له أن يختلط — فى عهد تحول كبير — بكافة الأنماط والطبقات ، وبهذا اكتسب من سعة المعرفة بالطبيعة البشرية ما سمح به مزاجه الخاص وطبيعته . ذلك أن أدق دارس لطبائع إخوانه لايستطيع أن يعرفهم إلا من خلال شخصيته . كان ستندال يعانى من عيوب كثيرة . ولكن كانت لديه خصال حميدة أيضاً : كان حساسا مرهفا ، عاطفياً ، حيياً ، أميناً ، موهوباً مجداً فى عمله عندما يكون هناك ما يعمله ، شجاعاً ذا أصالة ملحوظة . وكان صديقاً مخلصاً . ولكن شخصيته كانت تعانى من عيوب كبيرة . فقد كان تحيزه سخيفاً ، وأهدافه عديمة القيمة . وكان عديم الثقة (ومن ثم صار سهل الانخداع) ، ولم يكن متسامحاً ، أو كريماً ، ولم يكن ذا ضمير حى تماماً ، مغروراً بحماقة ، مدعياً ، شهوانياً دون ترفع فاجراً دون عاطفة . ولكن ، إذا كنا نعرف هذه العيوب فيه ، فإنما لأنه هو الذى أخبرنا بها . لم يكن ستندال مؤلفاً محترفاً ، بل لم يكن رجل آداب تماماً ، ولكنه كان يكتب دون انقطاع ، وكل ماكتبه تقريباً يدور حول نفسه . وقد ثابر سنوات على كتابة يوميات وصل إلينا منها أجزاء كثيرة ، ومن الواضح أنه كتبها دون أن يكون فى نيته نشرها . وكتب فى بدايه العقد الخامس من عمره سيرة ذاتية لحياته حتى سن السابعة عشرة (فى ٥٠٠ صفحة) وكان ينوى نشرها ، بالرغم من أنه مات دون مراجعتها . وفى هذه السيرة كان يضفى على نفسه ، أحياناً ، أكثر مما يستحق من أهمية ، ويزعم أنه قام بأشياء لم يكن قد قام بها من قبل ، ولكنه كان صادقاً بوجه عام . ولم يرحم نفسه ، ويخيل لى أن قليلين هم الذين

يستطيعون قراءة هذه الكتب– وليس من السهل قراءتها حيث إن بعض أجزائها ممل، وكثيراً ما يكون بها تكرار دون أن يتساءلوا : هل يمكن أن تبدو هذه الكتب بمظهر خلاب وهى التى بلغ من حماقتها أن ظهرته بمثل هذه الصراحة ؟ .

وعندما توفى لم يشر إلى نبأ موته سوى صحيفتين من صحف باريس . وبدا كما لو كان سيغدو نسياً منسياً ، والحق أن ذلك كان محتملا جداً لولا جهود جلين من أصدقائه القدامى أفلحا فى إقناع مؤسسة هامة للنشر بإصدار طبعة من مؤلفاته الرئيسية . غير أن الرأى العام ظل غير مبال ، رغم أن الناقد الكبير سانت بيف خصص مقالتين عن هذه الكتب ولم تبدأ هذه الكتب فى الذيوع والانتشار إلا بعد ظهور جيل آخر . ولم يكن ستندال نفسه يشك فى خلودها ، غير أنه كان على استعداد للانتظار حتى عام ١٨٨٠ أو حتى عام ١٩٠٠ ليلقى التقدير الذى يستحقه . وكم من مؤلف يعزيه عن إهمال معاصريه يقينه أن المستقبل سوف يعترف له بمزاياه . لكن نادراً ما يحدث ذلك . فالمستقبل مشغول ، ومهمل ، وإذا اهتم بالإنتاج الأدبى الماضى ، فإنه يختار من بين الأعمال التى حققت نجاحاً فى زمانها. إنها مجردصدفة نادرةتلك التى تنقذ مؤلفاً من مهاوىالنسيان الذىظل يعذبه طيلة حياته. وفى حالة ستندال نجد أن أستاذاً –كان من الممكن أن يظل مجهولا بدونه– أثنى بحماس على مؤلفات ستندال خلال محاضراته « الإكول نورمال » ، وتصادف أن كان من بين تلاميذه بعض الشبان الممتازين الذين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم شهرة بعد ذلك . لقد قرأوا مؤلفات ستندال ، وإذ وجدوا فيها شيئاً يتناسب وتيار جو الآراء السائد فى صفوف الشباب آنذاك أصبحوا من المعجبين المتعصبين لها . وكان أقدر هؤلاء الشباب هو هيبوليت تين . ومضت أعوام كثيرة وصارأديباً معروفاً ذا نفوذ ، وكتب مقالة شهيرة قال فيها عن ستندال إنه أعظم سيكولوجى على مر العصور . ومنذ ذلك الحين ظهرت عنه كتابات كثيرة ، وأصبح من المتفق عليه الآن أنه واحد من أعظم ثلاثة روائيين أنجبتهم فرنسا فى القرن التاسع عشر .

وتعتمد شهرته على فقرة واحدة فى « مقال عن الحب» وعلى روايتين . وربما كانت رواية « دير بارم » أكثر متعة فى القراءة، وهى تضم شخصيتين تأخذان بلب القارئ كما أن وصفه لمعركة واترلو جدير بالشهرة التى حظى بها . ولكن رواية

« الأحمر والأسود » أكثر استلفاتا للنظر ، وأكثر أصالة ، وأكثر دلالة . ومن أجل هذا قال زولا عن ستندال إنه أبو المدرسة الطبيعية ، واعتبره بورجيه واندريه جيد مبتدع الرواية السيكولوجية (وهذا غير صحيح) إنه كتاب مدهش بحق . وكان ستندال يهتم دائماً بنفسه أكثر مما يهتم بأى مخلوق آخر ، فكان دائماً يجعل نفسه بطلا لرواياته . وجوليان بطل رواية « الأحمر والأسود » من طراز الرجل الذى ود ستندال لو يكونه. فقد جعله جذاباً فى عيون النساء، قادراً على الفوز بحبهن الخالص، وهو أمر كان ستندال نفسه يودلو ضحى من أجله بكل شئ ، ولكن هيهات . وجعل بطله يقضى منهن وطره بنفس الأساليب التى رسمها لنفسه والتى كان مآلها الفشل المستمر. وجعله محدثاً لبقا لامعا ، رغم أنه لم يورد أبداً نماذج لألمعيته، وكان حكيما فى هذا، كان يؤكد وجود هذه الألمعية فقط. وخلع عليه ذاكرته القوية ، وشجاعته وحياءه ، وعقدة النقص التى كان يعانى منها ، وطموحه ، وحساسيته ، وحسن تدبيره ، وخلع عليه أيضاً شكوكه وغروره ساعة غضبه ، وطيشه وعدم عرفانه بالجميل ، واعتقد أنه لايوجد كاتب وضع نفسه فى إحدى شخصياته فرسم صورة إنسان يمثل هذا الشر ،والدناءة ، والتفاهة ، والكراهية .

ومن الغريب أن ستندال (باستثناء وصفه لمعركة واترلو ، التى لم يشترك فيها) لم يستغل كثيراً تلك التجارب التى مر بها وهو فى خدمة نابليون . والمفروض أن الأحداث العظيمة التى كان ستندال على الأقل شاهد عيان لها لابد أن توحى إليه بموضوع يحس أنه مطالب بمعالجته . ولعل القارئ يذكر أنه عندما أراد كتابة مسرحيات أخذ يبحث عن موضوعاته فى المسرحيات التى كان يشاهدها . ويبدو أن ستندال لم تكن لديه موهبة وضع قصة من خياله ، وقد أخذ عقدة رواية « الأحمر والأسود » من التحقيقات الصحفية لإحدى المحاكمات التى أثارت الاهتمام وقتئذ . ولقد حرصت فى تقديمى للروايات المختلفة ، على ألا أكشف عن العقدة ، ولكنى فى حالة « الأحمر والأسود » لا أملك إلا أن أشير إلى العقدة ولو إشارة عابرة — هذا إذا أردت أن أناقش الرواية على الإطلاق . وإليك الحادثة التى استغلها ستندال : كان أحد طلاب المعاهد العليا ، ويدعى أنطوان بيرتيت يعطى دروسا خصوصية فى منزل السيد ميشو ، ثم فى منزل السيد دى كوردون .

ولقد حاول أو نجح بالفعل فى إغواء زوجة الأول وابنة الثانى . وكان أن رفتوه . وعندئذ حاول استئناف دراساته فى الكهنوت ، ولكن لم يقبله أى معهد نظراً لسوء سمعته . واستقر فى نفسه أن آل ميشو هم المسئولون عن ذلك ، وانتقاماً منهم أطلق الرصاص على مدام ميشو أثناء وجودها فى الكنيسة ، ثم أطلق النار على نفسه . ولم تكن إصابته قاتله وقدم للمحاكمة ، وحاول إنقاذ نفسه على حساب المرأة التعسة ، ولكن الحكم صدر بإعدامه .

جذبت هذه القصة البشعة الدنيئة ستندال ، واعتبر فعلة بيرتيت جريمة جميلة وأنها رد فعل شخصية قوية متمردة على النظام الاجتماعى . وحاول أن يسمو بها بأن جعل ضحايا حقد جوليا يتمتعون بمراكز اجتماعية أفضل منه، وبأن خلع على بطله من صفات الذكاء وقوة الشخصية والشجاعة مالم يكن متوفرا فى بيرتيت التعس . ولكنها ظلت مع ذلك قصة وضيعة وظل جوليان دنيئاً . ومهما يكن من شيء فإنه بدا شخصية نابضة بالحياة، الرواية مثيرة للعواطف. إن جوليان، ابن الطبقة العاملة المليء بالحقد والكراهية لهؤلاء الذين ولدوا فى طبقة أكثر امتيازاً، يمثل نموذجاً يظهر فى كل جيل . وإليك كيف صور ستندال هذه الشخصية ونحن نتعرف على ملامحها لأول مرة : «كان شاباً صغيراً فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة لايلفت النظر ذا ملامح رقيقة غير متناسقة ، وأنف معقوف . أما عيناه السوداوان الواسعتان ، اللتان كانتا توحيان بالتأمل والثورة فى لحظات الهدوء ، فقد كانتا تشعان فى تلك اللحظة بتعبير من أعنف صور الحقد . أما شعره الكستنائى الداكن . فقد نبت على مقربة من حاجبيه مما جعل له جبهة ضيقة تضفى عليه نظرة شريرة فى لحظات الغضب . . . وكان قوامه النحيل المتسق يوحى بالخفة أكثر مما يوحى بالقوة » . ليست هذه بالصورة الجذابة ، ولكنها جيدة لأنها لاتجعل القارئ ينحاز سلفا إلى صف جوليان . ومن الطبيعى أن الشخصية الرئيسية فى الروايات تثير تعاطف القارئ ، وقد حرص ستندال منذ البداية حين اختار بطل شخصية شرير ، على ألا يجعل القراء يتعاطفون معه أكثر من اللازم . ولكن كان عليه من ناحية أخرى أن يثير فيهم الاهتمام به . ولم يكن بوسعه أن يجعله منفراً جداً ، لذلك قلل من حدة تصويره الأول بأن لجأ إلى التركيز مراراً وتكراراً على عينيه الجميلتين ،

وقوامه الرشيق ، ويديه الرقيقتين . وهو يصفه فى بعض الأحوال بأنه جميل بلا جدال . ولكنه لاينسى من حين لآخر أن يلفت نظرك إلى الضيق الذى يثيره فى الأشخاص الذين يتصلون به ، وإلى الشك الذى ينظر به الجميع إليه ، فيما عدا أولئك الذين لديهم سبب قوى للحذر منه .

وكانت مدام دى رينال أم الأطفال الذين عهد إليه بتعليمهم صورة مرسومة ببراعة لشخصية من الصعب تصويرها . فهى زوجة ممتازة وأم ممتازة ، وامرأة ممتازة ، وهى ساحرة ، وفاضلة ، ومخلصة ، وقصة حبها المتزايد لجوليان ، بما فى هذا الحب من مخاوف وتردد ، واستحالته إلى عاطفة مستقرة ، كل هذا ينم عن مهارة وهى من أروع الشخصيات الروائية المؤثرة . أما النبيلة ما تيلد دى لامول فغير مقنعة وستندال لم يألف قط المجتمع الراقى ، ولم يكن يعرف كيف يتصرف أبناؤه . ومحدث النعمة هو الذى يعتقد أن النبلاء مشغولون باستمرار بأصلهم النبيل . وقد اعتقد ستندال أن غطرسة مدموازيل دى لامول من قبيل الأرستقراطية ، والواقع أنها كانت مجرد تصرف سوقى ، إن تصرفاتها نسيج من السخافات .

كان ستندال يكره الأسلوب المزوق فى الكتابة ، ذلك الأسلوب الذى جعله شاتوبريان أسلوب العصر ، فقد دأب مئات من الكتاب الصغار على تقليده . أما ستندال فكان يهدف إلى تدوين أى شىء ويريد أن يقوله فى وضوح ودقة بقدر ما يستطيع دون زخرف ، ودون عبارات خطابية براقة ، أو إطناب خلاب . وقد قال (ويحتمل أنه لم يكن صادقا تماماً) أنه كان يقرأ ، قبل البدء فى الكتابة ، صفحة فى القانون المدنى ، لكى ينقى ويطهر لغته . كما كان يتجنب وصف المناظر وما شابه ذلك من الزخارف التى كانت شائعة فى عصره. ولقد كان الأسلوب البارد ، الواضح ، المتزن الذى استخدمه ببراعة يضاعف من بشاعة القصة ، ويجعلها أكثر استحواذا على انتباه القارئ . ولايمكن أن يكون هناك أروع من الأجزاء التى تناولت حياة جوليان مع أسرة رينال وحياته فى المعهد العالى ، ولكن عندما انتقل مسرح الأحداث إلى باريس وقصر المركيز دى لامول لم أستطع — شخصياً — أن أقتنع بما قرأته . إن المؤلف يطلب منى أن أصدق من الأشياء غير المحتملة الوقوع مالاقبل لى به ، وأن أهتم بأحداث غير متعلقة بالموضوع . لقد نجح ستندال فى الكتابة بطريقة

واقعية ، ولكن ، لايستطيع أحد ، مهما بذل من جهد ، أن ينجو من التأثر بالجو النفسي الذى يسود عصره . وكانت الرومانسية تنتشر بسرعة . وقد تأثر ستندال أيما تأثر بهذا الجو ، بالرغم من تذوقه لدواعى العقل والحضارة الرفيعة ، اللذين سادا القرن الثامن عشر . لقد خلب لبه رجال عصر النهضة الإيطالية الغلاظ القلوب الذين لم يكونوا يتحرجون عن أى شيء أو يشعرون بأى ندم ، ولايترددون فى ارتكاب أية جريمة فى سبيل طموحهم ، أو إشباع شهوتهم ، أو الانتقام لشرفهم . وامتدح ستندال قوة إرادتهم واذدراءهم للتقاليد ، وحرية أرواحهم ، وقد فشل النصف الأخير من رواية « الأحمر والأسود » فى إقناع القارئ بسبب هذا الاتجاه الرومانسى .

غير أن ستندال يرتكب ما يمكن أن أعتبره خطأ كبيراً عندما يقترب چوليان من تحقيق كل ما كان يتوق إليه طموحه ، متوسلا بإخفاء المشاعر ، واللباقة ، وضبط النفس . إن المؤلف يقول لنا إن چوليان ذكى وماكر للغاية ، ومع ذلك يريد أن يزكى نفسه أمام حميه المقبل بأن يطلب منه أن يكتب إلى مدام دى رينال ، وهى المرأة المخلصة التى أغواها ، طالبا منها شهادة حسن سير وسلوك . ألم يخطر بباله أنها إما لابد تكرهه لما سببه لها من ضرر ، وفى هذه الحالة ربما رغبت فى الثأر لنفسها . أو أنها لا تزال تحبه ، وفى هذه الحالة لا يحتمل أن ترحب بنبأ إقدامه على الزواج بإنسانة أخرى ؟ ونحن نعرف عنها أنها امرأة ذات ضمير حى . وربما خطر له أنها قد ترى من واجبها الكشف عن افتقاره إلى المبادئ وهذا ما فعلته . لقد كتبت خطاباً ذكرت فيه حقيقته عارية . وبدلا من أن ينكر ذلك ويرجعه إلى حنق عشيقة ، مهجورة ، يأخذ مسدسات ويستقل سيارة يتجه بها إلى حيث تعيش ، ويطلق عليها الرصاص . وليس هناك أى تفسير للحدث . إنه يتصرف وفق غرائزه . ونحن نعلم أن ستندال يعجب — بصورة متطرفة — بالتصرف الغريزى الذى يعبر عن وجود عاطفة . حسن جداً ، ولكن المؤلف أرانا منذ البداية ، أن قوة جوليان إنما تكمن — بالذات — فى تحكمه البالغ فى أعصابه . فلم تتحكم فيه أبداً عواطفه ، عواطف الحقد ، أو الكبرياء ، أو الغرور ، أما شهوته ، التى هى أقوى عواطفه جميعاً ، مثل الشهوة عند ستندال نفسه ، فلم تكن فى حكم الرغبة الملحة بقدر ما كانت

إشباعاً لغروره . وفى النقطة التى يبلغ عندها الكتاب قمة الأزمة يرتكب چوليان خطأ فاحشاً فى الرواية : إنه يتصرف بما يتنافى مع شخصيته .

وقد سار ستندال وفقًا لقصة أنطوان بيرتيت بدقة بالغة ، وكان فى نيته - بلا شك - أن يتبعها حتى النهاية ، ولكن يبدو أنه لم يلاحظ أنه جعل چوليان أولا : شخصية تختلف كثيراً عن شخصية المزور الذى استخدمه كنموذج ، ثانيا: أن بيرتيت اقتنع بأن مدام ميشو قضت على فرص حصوله على عمل فى المستقبل . كان هناك ضيم وأذى وهو ما لاينطبق على حالة جوليان . وإذا كانت مدام دى رينال قد بددت آماله الطموحة فلايلومن إلا غباءه - ولو أنه كان بعيدا كل البعد عن الغباء . وإلى جانب هذا كانت فى يده أوراق رابحة كان من الممكن أن تساعده فى التصدى لنتائج خطئه الذى لايمكن تفسيره . والواقع أن ستندال كان ضعيف الحيلة، فى ميدان الابتكار، ومن ثم فشل فى استنباط وسيلة يختم بها الكتاب ، وسيلة يتقبلها القارئ ويعتبرها محتملة. ولكن ، ليس هناك رواية مكتملة ، كما سبق أن أشرت ، ويرجع هذا إلى نقص طبيعى فى شكل الرواية ، كما يرجع أيضاً إلى عيوب فى الشخص الذى كتبها . ومع ذلك فإن رواية « الأحمر والأسود » مازالت من أروع الروايات التى كتبت . والقارئ الذى يطالعها إنما يمر بتجربة فريدة .

إميلى برونتيه
و
ويذرنج هايتس

ولد باتريك پرونتيه Prunty فى كاونتى داون عام ١٧٧٧ . وكان لوالده وهو أحد المزارعين عشرة أطفال يطعمهم من محصول عدد ضئيل من الأفدنة التى كان يملكها، وشرع باتريك يعمل بمجرد بلوغه السن المناسبة، فاشتغل أولا كعامل نسيج ثم معلماً فى مدرسة بإحدى القرى ثم أصبح بعد ذلك مدرساً خاصاً لأسرة أحد رجال الدين . وكان طموحاً يحرقه الشوق لأن يصل إلى مكانة مرموقة فى هذا العالم . وبمساعدة رجل الدين الذى كان يعمل لديه استطاع أن يدبر المال الذى يكفيه للذهاب إلى كمبريدج . وكان حينئذ فى الخامسة والعشرين أى أكبر من أن يلتحق بجامعة ، وكان طويلا ، فتيا بالغ القوة ، جميل الطلعة ، يتيه بحسن طلعته. وعندما التحق بكلية سانت چون غير اسمه الدارج پرونتيه Prunty إلى برونتيه Brunty وهو اسم بلدة فى صقلية التى أصبحت أخيراً دوقية منحها فرديناند الرابع لنلسن، ومعها ضيعة كاملة . وحصل باتريك برونتيه على درجته العلمية ، وعين فى الكنيسة، وبعد أن شغل عدة مناصب كمساعد قسيس ، استقر لمدة خمس سنوات فى أحد الأبرشيات فى هارتسهيد . وهناك تزوج من ماريا برانويل ابنة تاجر فى كورن . وأنجب منها طفلين ، هما ماريا وإليزابيث. ثم انتقل إلى أبرشية أخرى بالقرب من برادفورد ، حيث أنجبت مسز برونتيه أربعة أطفال آخرين . كانت أسماؤهم تشارلوت وباتريك برانويل وإميلى وآن . وفى عام ١٨٢٠ عين القسيس باتريك برونتيه فى هاورث وهى قرية بيوركشير لقاء معاش بسيط قدره مائتا جنيه استرلينى فى العام . وهناك استقر حتى مماته ، ويبدو أنه وجد أنه حقق مطمعه . ولم يعد أبداً إلى أيرلندا كى يرى والديه وإخوته وأخواته الذين تركهم وراءه .

وفى عام ١٨٢١ ماتت زوجته ، وبعد حوالى عام – وقد أقدم على محاولتين أو ثلاث محاولات فاشلة للزواج مرة أخرى – أقنع أختها الكبرى اليزابيث برانويل أن تترك بنزانس ، حيث كانت تعيش وتحضر لتعنى بأطفاله .

كانت أبرشية هاورث منزلا حجريًّا صغيراً بالقرب من الكنيسة أقيم على نتوء فى منحدر التل ، تبعثرت عند سفحه بيوت القرية . وكانت الأرضيات والسلالم من الحجر . باردة ورطبة . وكانت مس برانويل تتجول دائماً فى المنزل وهى ترتدى حذاء ذا نعل خشبى (قبقابا) خوفاً من الإصابة بالبرد . كانت هناك فى الطابق الأول قاعة الاستقبال وحجرة ومكتب لمستر برونتيه ، ومطبخ ومخزن وفى الطابق الثانى أربع حجرات للنوم وصالة . ولم تكن هناك سجاجيد إلا فى قاعة الاستقبال وحجرة المكتب ولم يكن هناك ستائر على النوافذ لأن مستر برونتيه كان يخشى أخطار النار . وكان فى مكتب مستر برونتى مناضد من خشب الموجنى وكراسى مغطاة بشعر الخيل ، أما الحجرات الأخرى فلم يشغلها سوى أثاث قليل . ومن خلف المنزل وأمامه حديقة على شريط ضيق من الأرض ، وبنيت المقابر على جانبى المنزل . وحول المنزل من كل جانب وعلى مرمى البصر تمتد الأحراش الجرداء الكئيبة .

وكثيراً ما كان مستر برونتيه يجول خلال هذه الأحراش لمسافات بعيدة . كان رجلا يتجنب الاختلاط فيما عدا أحد جيرانه القساوسة. وكان يأتى عبر التلال ليزوره ، ولم ير أحداً غير العاملين فى الكنيسة وأهالى الأبرشية .

وحتى قبل وفاة زوجته كان يتناول وجباته بمفرده فى حجرة المكتب ، وظل على عادته هذه بقية حياته . وفى الساعة الثانية مساء كان يقرأ صلوات العائلة ، وفى التاسعة يغلق الباب الأمامى ، ويحكم إغلاقه بالمزلاج . وعند مروره بالحجرة التى يجلس فيها الأطفال ينبه عليهم بعدم السهر ، وفى منتصف السلم يقف ليملأ ساعة الحائط . كان حاد المزاج ، أنانيًّا « صارمًا ومتعنتًا » . وما إن تزوج بامرأته حتى عاملها ببرود وإهمال ، لم يكن يحب أطفاله وكان يفقد أعصابه إذا قاطعوه . وكانوا على جانب من الرقة ، ولكنه أراد أن يجعلهم خشنين لايكترثون لمتع المآكل والملبس لم يكن هو نفسه يأكل اللحوم ولم يسمح لهم بأكلها ، وكان غذاؤهم مثل غذائه

أيام الطفولة ، يعتمد أساساً على البطاطس . لم يكن يسمح لهم وهو ابن المزارع الأيرلندى الذى عضه الفقر بأن يختلطوا بأطفال القرية ، وكان يجبرهم على الجلوس فى « حجرة مكتب الأطفال » وهى الردهة الصغيرة الباردة فى الطابق الثانى ، يقرأون أو يهمسون بصوت منخفض حتى لا يزعجوا والدهم الذى إذا ما تكدر أو تضايق التزم الصمت الكئيب . كان يلقنهم دروسهم فى الصباح ، وبعد أن انضمت إليهم مس برانويل أخذت تعلمهم الحياكة وأعمال المنزل .

وكانوا يسلون أنفسهم بالتجوال فى الأحراش وكتابة المسرحيات والأشعار ، والمقالات ، والقصص الرومانسية ، وفى عام ١٨٢٤ التحقت ماريا واليزابيث — ومن بعدهما تشارلوت وإميلى — بمدرسة فى كوان بريدج التى كانت قد أنشئت حديثًا من أجل تعليم بنات القساوسة الفقراء . كانت المدرسة غير صحية ، والطعام رديئًا ، والإدارة ضعيفة . وماتت الفتاتان الكبريان ، وتم إبعاد تشارلوت وإميلى اللتين تأثرت صحتهما ، غير أن هذا لم يتم على الفور ، أما ما تعلموه بعد ذلك من علوم فيرجع الفضل فيه إلى خالتهم . وقد قرأوا الكثير ، وكانت قراءتهم مقصورة على روائع الأدب الإنجليزى . كانت قراءة جادة ، شكسبير وميلتون بالطبع ، وبوب الذى لم تعجب به تشارلوت ، وسكوت وبايرون ووردزورث ، وبوزويل وكتاب چونسون «حياة الشعراء» ، وكتاب مور « حياة بايرون » ، أما الرواية الوحيدة التى قرأوها فكانت لسكوت ، « ذلك أن كل الروايات من بعده لاقيمة لها ، كما قالت تشارلوت .

كانوا ينظرون إلى برانويل على أنه أكثر أفراد العائلة ذكاء ، وكان والده يهتم به أكثر من بناته الثلاث . ولم يرسله إلى المدرسة ولكنه تعهد بتعليمه بنفسه . كانت له موهبة مبكرة ، وكان سلوكه يثير الإعجاب ويصفه صديقه ف . ه. جرندى على النحو التالى : « كان نحيلا لدرجة الضآلة ، وهذه إحدى محن حياته . وكانت له كتلة من الشعر الأحمر التى كان يرفعها عالياً فوق جبهته — حتى يبدو طويلا على ما أعتقد — وكانت له جبهة عريضة بارزة توحى بالذكاء ، يبلغ حجمها نصف وجهه تقريباً ، وله عينان صغيرتان غائرتان تضاعف من إخفائهما نظارة لايخلعها مطلقاً ، وأنف بارز ، أما فمه وذقنه فلم يكن بهما ما يثير

الانتباه ، ولم تتغير نظراته المتكسرة إلا عندما كان يختلس نظرة سريعة على فترات متباعدة . وكان ضئيلا نحيلا ، وكان يبدو لأول وهلة غير جذاب». كانت له مواهب عقلية ، وكانت شقيقتاه تعجبان به وتتوقعان أن يقوم بأعمال عظيمة . كان ذ كيا يبدو متحمساً فى حديثه ، وقد ورث عن أحد أجداده الأيرلنديين موهبة الاختلاط بالناس والثرثرة المقبولة ، أما والده فكان مكتئباً صامتا . وعندما كان يحط المسافر رحاله للمبيت ليلا فى « بلاك بول » ويحس بالوحدة ، كان صاحب المنزل يسأله : « هل تريد يا سيدى من يؤانسك ويسرى عنك ؟ إذا وافقت فسوف أرسل إليك باتريك » . وكان يسعد برانويل أن يؤدى مثل هذه الخدمات .

وعندما بلغت تشارلوت السادسة عشرة ، ذهبت إلى المدرسة مرة أخرى وكانت المدرسة هذه المرة فى روهيد ، وكانت سعيدة هناك ، ولكنها عادت بعد عام إلى المنزل مرة أخرى لتعلم أختيها الصغيرتين . لقد كانت العائلة فقيرة جداً ولم يكن للبنات ما يأملن فيه ، بعد أن تركت مس برانويل النقود القليلة التى كانت تملكها لابن شقيقتها، المسلّى، وبذلك عزمن على أن يدربن أنفسهن ليكن مربيات أو مدرسات كى يحصلن على لقمة العيش . وبلغ برانويل الثامنة عشرة وكان لابد من تقرير نوع التجارة أو المهنة التى سيزاولها . كان يجيد الرسم إلى حد ما، وكذلك شقيقاته، وكان تواقاً إلى أن يصبح رساماً. وقد استقر الرأى على أن يذهب إلى لندن للدراسة فى الأكاديمية الملكية . ولا نستطيع أن نؤكد هل ذهب فعلا أم لا ، ولكن دائرة المعارف البريطانية تقول إنه ذهب وإنه « انغمس لمدة شهر فى الإسراف والبذخ » وعاد بعده إلى بلده مرة أخرى. واستأنف دراساته الفنية فى ليدز لفترة من الزمن ، لكننا نستطيع أن نقرر أن أحداً لم يكلفه بأى عمل ، لكنه فى النهاية أصبح معلماً خاصاً لابن شخص يدعى بوستلثويت فى باروان فورنس . وبعد عشرة أشهر أصبح عاملا يحجز التذاكر بمحطة سوارى بريدج فى سكة حديد ليدو مانشستر ، ثم بعد ذلك لوددندن فوت . ثم فصل لإهماله البشع فى واجباته .

وفى هذه الأثناء عادت تشارلوت إلى المدرسة فى روهيد كمدرسة ، ، وأخذت معها إميلى كتلميذة . ولكن حنين إميلى الجارف إلى موطنها تسبب فى مرضها ،

وكان لابد من إعادتها إلى البلدة . وحلت محلها آن التى كانت أهدأ مزاجاً وأكثر خضوعاً . ولكن صحة تشارلوت انهارت بعد مضى ثلاث سنوات – فبالرغم من جهود مستر برونتى ليجعل أطفاله أشداء إلا أنهم ظلوا ضعاف البنية – وعادت تشارلوت إلى هاورث .

كانت فى الثانية والعشرين من عمرها حينئذ . ولم يكن برانويل مصدر قلق وحسب ، وإنما كان يكلفهم باهظا أيضاً ، وما إن استردت تشارلوت صحتها حتى أحست أن من واجبها أن تعمل كمربية أطفال . ولم يكن ذلك بالعمل الذى تحبه والواقع أنها لاهى ولاشقيقاتها أحببن الأطفال ، مثلهن فى ذلك مثل والدهم ، وقد كتبت إلى صديقة تقول : « إنه لمن العسير على للغاية أن أدفع عن نفسى وقاحة الأطفال فى ألفتهم » . وكرهت أن تكون تابعة لأحد ، وكانت يقظة تتصيد على الدوام أية إهانة موجهة إليها . وإذا كان للمرء أن يحكم من خطاباتها فإنها كانت تتوقع – فيما يبدو – أن يطلب منها رؤساؤها الأشياء التى يعتبرونها من واجباتها وكأنهم يطلبون منها معروفاً . وتركت هذا العمل بعد ثلاثة شهور وعادت إلى الأبرشية ، ولكنها التحقت بعمل آخر بعد عامين تقريباً ، كانت سعيدة إلى حد ما. ولكنها كما كتبت لنفس الصديقة : « لايستطيع أحد غيرى أن يصف مدى قسوة حياة المربية على النفس ، لأنه ليس هناك أحد غيرى يدرك مدى تعارض هذه الوظيفة مع عقلى وطبيعتى تعارضاً تماماً» . وطالما راودتها فكرة إدارة مدرسة لحسابها مع شقيقتيها ، وهاهى الآن تفكر فى ذلك من جديد،وقد شجعها مستخدموها وكانوا كما يبدو فى غاية اللطف والدماثة ، ولكنهم أشاروا عليها بأن تحصل على بعض المؤهلات قبل أن تطمع فى النجاح . ورغم أنها كانت تستطيع القراءة بالفرنسية ، إلا أنها لم تكن تستطيع التحدث بها ، ولم تكن تعرف الألمانية . ولذلك قررت أن تسافر إلى الخارج لتتعلم اللغات ، وقد زودتها خالتها بالمال ، وذهبت إلى بروكسل بمصاحبة أختها إميلى ، وهناك التحقت بمدرسة إيجيه . وبعد عشرة أشهر استدعيت البنتان إلى إنجلترا لمرض مس برانويل .لقد ماتت ، وتركت القليل الذى كانت تملكه لبنات شقيقتها الثلاث بعد أن حرمت برانويل من هذا الميراث لسوء سلوكه . وكان هذا كافياً لكى يقمن بتنفيذ المشروع الذى طالما ناقشنه وهو أن تكون

لهن مدرسة خاصة بهن . ولكن لما كان والدهن طاعناً فى السن . ولما كان بصره أخذ فى الضعف ، فقد قررن أن تكون الأبرشية مقراً لهذه المدرسة . ولم تكن تشارلوت تعتقد أنها مؤهلة بما فيه الكفاية ، ولذلك قبلت العرض الذى قدمه لها مسيو إيجيه للعودة إلى بروكسل لتعليم الإنجليزية .وعملت آن كمربية ، وبقيت إميلى فى البيت . وأمضت تشارلوت عاماً فى بروكسل وعند عودتها إلى هاورث أصدرت الشقيقات الثلاث عدداً من المنشورات وكتبت تشارلوت إلى صديقاتها تطلب منهن تزكية المدرسة التى يزمعن إنشاءها . ولكن لم يلتحق بها تلميذ واحد .

وكن يكتبن من حين لآخر منذ أن كن أطفالا ، وفى عام ١٨٤٦ أصدرت الشقيقات الثلاث مجلداً من الشعر على نفقتهن الخاصة باسم كورار وأكتون بل . وكلفهن ٥٠ جنيهاً ، وبيعت منه نسختان . وبعد ذلك كتبت كل منهن رواية : كانت رواية تشارلوت (التى انتحلت اسم كورار بل) اسمها « الأستاذ » ورواية إميلى (إليس بل) « ويذرنج هايتس » ورواية آن (أكتون بل) « أجنس جراى » . وقد رفضها الناشرون واحداً بعد الآخر ، ولكن عندما أعادت شركة سميث الدر وشركاه رواية « الأستاذ » إلى تشارلوت ، كتبت تقول إنه يسعدها أن تتلقى رواية أطول من تأليفها . وكانت بسبيل الانتهاء من واحدة هذا النوع ؛ وفى خلال شهر واحد استطاعت أن ترسلها إلى الناشرين . لقد قبلوها وكان اسمها « چين إير » . كذلك قبل أحد الناشرين فى النهاية روايتى إميلى وآن وكان اسمه نيوباى ، « وجاء قبوله بشروط مجحفة بالمؤلفتين إلى حدما » . وقد قاما بتصحيح البروفات قبل أن ترسل تشارلوت رواية « چين إير » إلى سميث والدر وشركاه . وبالرغم من أن النقاد لم يرحبوا برواية «چين أير» بشكل ملحوظ ، إلى أن القراء أعجبوا بها وأصبحت فى قائمة الكتب الرائجة . وعلى هذا الأساس حاول مستر نيوباى أن يقنع القراء أن « ويذرنج هايتس» و « آجنس جراى » اللتين نشرهما معاً فى ثلاثة مجلدات ليسا إلا بقلم مؤلف « چين إير » نفسه . ولكن لم يكن لهذا أى تأثير ، والواقع أن عدداً من النقاد رأى أن هاتين الروايتين اللتين كتبهما « كورار بل » هما روايتان مبكرتان تفتقران إلى النضج .

كان ذلك فى عام ١٨٤٨ . والآن لنعد قليلا إلى الوراء : فى عام ١٨٤٢عمل برانويل كمدرس خاص لدى مستر ادموند روبنسون وهو كاهن ثرى . وكانت آن تعمل فى أسرته كمربية آنذاك . وكان مستر روبنسون شيخاً عليلا يعيش مع زوجة متصابية وبرانويل . وبالرغم من أن هذه الزوجة كانت تكبر برانويل بسبعة عشر عاماً فإنه أحبها وأحبته . وليست هناك إشارة صحيحة إلى علاقتهما ، بحيث يستحيل التأكد مما إذا كان قد أصبح عشيقها أم لا ، ومهما كان شأن هذه العلاقة فقد اكتشف أمرهما ، وصدرت الأوامر لبرانويل ليحزم حقائبه . وأمره روبنسون « بألا يرى أم أطفاله مرة أخرى ، وألا تطأ قدماه عتبة بيتها ألبتة ، وألا يكتب إليها أو يتحدث معها » ؛ ولكن برانويل « ثار ، وأرغى وأزبد وأقسم أنه لايستطيع أن يعيش بدونها ، وندد بها لبقائها مع زوجها . ثم دعا الرب أن يموت الرجل المريض سريعاً ، حينئذ تصبح السعادة بين أيديهما » . ولقد كان دأب برانويل أن يفرط فى الشراب ، والآن وقد ألمت به هذه المحنة شرع يتعاطى الأفيون عن طريق الفم.لكن يبدو أنه استطاع أن يتصل بمسز روبنسون وقد تقابلا فى هاروجيت بعد بضعة شهورمن طرده. ويقال«إنها اقترحت عليه أن يهرب بامعامضحية بسمعتها متنازلة عن حياة العظمة والأبهة التى تحياها . بيد أن برانويل هو الذى نصح بالصبر والانتظار لفترة أخرى قصيرة » . وفجأة تلقى خطاباً يعلنه بنبأ وفاة مستر روبنسون « فما كان منه إلا أن أخذ يرقص وهو يسير فى فناء الكنيسة كما لو كان قد فقد عقله ، لشد ما كان مغرماً بهذه المرأة » . هذا ما قاله أحد الناس لمؤرخ حياة إميلى .

وفى الصباح التالى استقيظ ، وتأنق فى ملبسه واستعد للرحلة ولكن قبل أن يخرج من هاورث نفسها أقبل على القرية رجلان يمتطيان الجياد وينهبان بها الطريق. وأرسلا فى طلب برانويل وعندما وصل وهو فى اضطراب شديد ، ترجل أحد الراكبين عن جواده ، واصطحبه إلى حانة « بلاك بول » لقد كان يحمل معه رسالة من الأرملة ترجوه فيها ألا يحوم حولها مرة أخرى ، لأنها لو رأته ولو لمرة واحدة فسوف تفقد ثروتها وحقها فى حضانة أطفالها . وأفرط برانويل فى الشراب حتى الموت . وعندما عرف أن النهاية قد دنت أراد أن يموت واقفاً ، وأصر على أن يقف.

وكان قد ظل فى سريره يوماً واحداً فقط .لقد اضطروا إلى إبعاد تشارلوت لاضطرابها الشديد ، أما أبوها وآن وإميلى فقد جلسوا ينظرون إليه وهو ينهض على قدميه ، وبعد مقاومة استغرقت عشرين دقيقة مات وهو على قدميه كما أراد . ويجب أن أحذر القارئ من أن قصة حب برانويل ووصف موته إنما جاءت على لسان أشخاص ربما عرفوا الحقيقة ، غير أن كاتب مقال آل برونتيه فى «القاموس الإنجليزى الوطنى لسيرة المواطنين» والذى كتب بعد سنوات عديدة من هذا الحادث يزعم أنه لا صحة له وربما لو تمتع بخيال أكبر قليلا وقل تحيزه تجاه برانويل لما ألقى حكمه بمثل هذه الثقة .

مهما يكن الأمر فقد مات برانويل ولم تخرج إميلى من الدار من بعد يوم الأحد الذى تلى موته . فقد كانت مريضة . ولقد كتبت تشارلوت إلى إحدى صديقاتها تقول « إن طبيعتها المتحفظة تسبب لى كثيراً من الانزعاج » ومن العبث أن نوجه إليها سؤالا طالما أنها لاتجيب عليه ، والأدهى من هذا أننا لانستطيع أن ننصحها بعلاج لأنها لن تتبعه . وعندما كنا نرسل فى طلب الطبيب كانت ترفض مقابلته . لم تكن تجاهر بالشكوى ، لم تكن تنشد التعاطف أو العون ، وكانت ترفض أن يقوم لها أحد بأية خدمة ، وإذا حدث وحاول أحد ذلك ، قوبلت محاولته بالرفض . وفى صباح أحد الأيام استيقظت من النوم وارتدت ملابسها وشرعت فى الحياكة ، كانت أنفاسها متلاحقة ، وعيناها ملتمعتين ، ولكنها واصلت العمل . وكانت حالتها تسير من سيئ إلى أسوأ وفى منتصف النهار طلبت الطبيب . ولكن بعد فوات الأوان ، فقد ماتت فى الساعة الثانية وبعدها بشهور قلائل ماتت آن .

كانت تشارلوت تعمل فى رواية أخرى « شرلى » فى الفترة التى تخللت موت برانويل وموت إميلى ، ولكنها تركتها جانباً كى تسهر على آن ولم تنته منها إلا بعد موتها . وذهبت إلى لندن عامى ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ وهناك لاقت كثيراً من الاهتمام فقد تعرفت على ثاكرى ورسم لها چورچ ريتشموند صورة زيتية . وفى خلال عام ١٨٥٢ كتبت روايتها « ڤيليت » وفى عام ١٨٥٤ تزوجت . وكانت عروض الزواج تنهال عليها من قبل وأكثرها من القساوسة الذين يساعدون أباها ، إذ كان لابد من وجود من يساعده فى الأبرشية بسبب صحته التى أخذت فى الانهيار ،

ولكن إميلى رفضت عروضهم (كان أخواتها يسمونها الماچور بسبب الأسلوب الحاسم الذى كانت تتبعه معهم) . وكان والدها يرفض دائماً ، ولذلك رفضتهم جميعاً . ومع ذلك فقد كان قسيساً لأبيها ذلك الذى تزوجته أخيراً . كان على صلة بها لعدة سنوات وبذهاب إميلى واستقالة أبيها قبلت أخيراً . تزوجا فى يونية وما إن حل مارس حتى ماتت ، وذكروا إيجازاً أن سبب وفاتها يرجع إلى « مرض يرتبط بالولادة ».

وهكذا بعد أن انتهى باتريك برونتيه من دفن زوجته وأختها وأطفاله الستة أصبح يتناول وجباته بمفرده . فى ظل الوحدة التى طالما أحبها ، ويسير فى الأحراش بقدر ما تحتمل صحته المعتلة، ويقرأ كتبه ، ويلقى مواعظه . ويملأ ساعة الحائط وهو فى طريقه إلى الفراش . وهناك صورة فوتوغرافية له وهو فى شيخوخته ، يطالعنا فيها رجل يرتدى زياً أسود وحول رقبته ياقة كبيرة بيضاء . له شعر أبيض قصير ، وحاجبان جميلان وأنف ضخم مستقيم ، وفم مزموم . ومن وراء النظارة عينان تنمان عن حدة المزاج . ومات فى هاورث فى سن الرابعة والثمانين .

وليس عن غير قصد أننى قلت الكثير جداً عن والد إميلى برونتيه عند الكتابة عن روايتها « ويذرنج هايتس» ، كما قلت الكثير عن أخيها وأختها تشارلوت ، إذ أن الكتب التى كتبت عن العائلة قد قالت عنهم أكثر مما قالت عن غيرهم وقليلا ما ترد إميلى وآن فى الصورة . كانت آن فتاة رقيقة حلوة لكنها لاتلفت النظر ، وكانت موهبتها محدودة ، أما إميلى فكانت مختلفة تماماً . كانت غريبة وغامضة ، وتبدو لى كما لو كانت خيالا : لاتبدو أبداً بطريق مباشر ، وإنما تنعكس صورتها كما لو كانت فوق صفحة بركة وسط أحراش . وعليك أن تخمن أى طراز من النساء كانت إميلى ، من خلال أنباء وحكايات مشتتة . كانت مخلوقاً منعزلا شرساً لا يريح . وعندما تسمع ما يحكى عنها من أنها كانت تصاب أحياناً بنوبة من الفرح الطاغى عندما تسير وسط الأحراش ، فإنك تحس بالضيق . كان لتشارلوت أصدقاؤها وكان لآن أصدقاؤها أما إميلى فلم يكن لها أحد .

لقد وصفتها مارى روبنسون وهى فى الخامسة عشرة من عمرها بأنها «طويلة ، لها ذراعان طويلتان ، مكتملة النمو ، رشيقة الخطو ، نحيلة ، تبدو وكأنها ملكة عندما ترتدى أحسن ملابسها ، ولكنها تبدو فوضوية وصبيانية عندما تجد قدميها وسط

الأحراش ، وهناك تصفر للكلاب ، وتخطو بخطوات واسعة فوق الأرض الخشنة — كانت فتاة طويلة ، ونحيلة ، رخوة الحركة — وليست قبيحة ولكن ملامحها غير منتظمة ، وبشرتها سميكة وشاحبة . وكان شعرها الأسود جميلا بالطبيعة . وكان يبدو كذلك فى الأيام الأخيرة وكانت ترسله على ظهرها وتشبكه بمشط طويل . ولكن فى عام ١٨٣٣ كانت تمشط بطريقة أخرى : « بوكلات » صغيرة خشنة لا تناسبها . وكان لها عينان عسليتان جميلتان » . وكانت تضع عليهما نظارة شأنها شأن أبيها وأخيها وأخواتها . وكان لها أنف معقوف وفم واسع ، بارز ومعبر ، وكانت ترتدى ملابسها دون مراعاة لما هو سائد فكانت تلبس الأكمام الطويلة المنتفخة حتى بعد أن كف النساء عن ارتدائها منذ زمن طويل ، وجونلة طويلة ملتصقة بجسدها الهزيل . كانت بائسة وهى بعيدة عن المنزل ، وكرهت بروكسل . لقد حاول الأصدقاء أن يكونوا ظرفاء مع الفتاتين ، وكانوا يطلبون منهما قضاء أيام الآحاد والعطلات فى ضيافتهم ، ولكنهما كانتا خجولتين لدرجة أن تلبية دعوة الأصدقاء كانت تعذبهما . وبعد ذلك رأى أصحاب الدعوة عدم دعوتهما رأفة بهما . وكان طبيعياً أن ينتابهما الخجل ، إذ أنهما تربيتا فى عزلة ، وخبرتهما بالحياة الاجتماعية ضئيلة ، ولكن الخجل يعتبر إلى حد ما حالة نفسية معقدة ، إنه ينطوى على الإحجام ، وعلى الغرور أيضاً ، ولم تكن إميلى براء من الإحساس الأخير .

وفى المدرسة وفى خلال ساعات الراحة اعتادت الشقيقتان أن تسيرا معاً وفى صمت عادة . وعندما كان الكلام يوجه إليهما كانت تشارلوت هى التى تجيب . ونادراً ما كانت إميلى تتحدث إلى أحد . وكان مسيو هيجيه يرى أنها ذكية ، ولكنها صلبة لدرجة أنها لا تقتنع بأى سبب إذا تعارض مع رغباتها أو معتقداتها . وقد وجدها هيجيه أنانية ، كثيرة المطالب ومستبدة مع تشارلوت . ولكنه أدرك أن بها ثمة شيئاً غير عادى . وقال إنه كان يجب أن تكون رجلا ، « وإن إرادتها القوية المستبدة لم تكن لتخشى أى معارضة أو صعوبات ولن تستسلم إلا للموت » .

وعادت إميلى إلى هاورث بعد موت خالتها . ولم تغادرها مطلقاً بعد ذلك .

وكانت تستيقظ فى الصباح قبل أى شخص آخر ، وتقوم بأشق الأعمال اليومية قبل أن تحضر تابى الخادمة العجوز الضعيفة . كانت تقوم بأعمال الكى ،

والجزء الأكبر من الطهو . وكانت تصنع الخبز ، وكان خبزاً جيداً ، وأثناء قيامها بعملية العجن كانت تتابع بعينيها الكتاب المفتوح أمامها . « إن الفتيات اللائى كن يعملن معها فى المطبخ واللائى كن يأتين للمعاونة عند ضغط العمل ، يتذكرن كيف كانت تحتفظ بقصاصة من الورق ، وقلم إلى جانبها ، وعندما تأتى اللحظة التى تستطيع أن تتوقف فيها أثناء الطهو أو الكى ، تدون بعض الأفكار الملحة ، وبعدها تستأنف عملها . كانت ودودة ومحبة لهؤلاء الفتيات . كانت لطيفة وفى بعض الأحيان مرحة مرح الصبيان ! كانت بشوشة جداً وعطوفة ، وفيها شىء من الرجولة». هذا ما يقوله الراوى لى.«أما أمام الغرباء فقد كانت جد خجولة ، وإذا حدث وحضر صبى الجزار أو الخباز إلى باب المطبخ ، فإنها تنسل كالطائر إلى الصالة ، أو حجرة الجلوس إلى أن تسمع وقع نعالهم وهم خارجون من الممر» وأعتقد أن كثيراً من سلوكها الذى كان يعتبر غريباً بالنسبة لمعاصريها يمكن أن يفهمه محلل نفسى فى هذه الأيام .

ولقد ذكر شخص ما لمسز جاسكل مؤرخة حياة تشارلوت برونتيه ، أن إميلى « لم تبد مطلقاً أى اهتمام بأى مخلوق ، وكان حبها كله وقفاً على الحيوانات » ، لقد كانت تفضل الشرس الجموح منها . وقد أهدى إليها أحد الأشخاص كلباً « بولدوج » يدعى كيبر وقصت عنه مسز جاسكل قصة غريبة ، سأرويها هنا بكلماتها : «كان كيبر مخلصاً من أعماقه طالما كان مع أصدقاء،ولكن طبيعة الوحش الذى لايلين تظهر إذا ما ضربه أحد بالعصا أو السوط ، وفى الحال يقفز إلى رقبته ، ويتشبث بها إلى أن يقرب أحدهما من الهلاك، وثمة عيب آخر فى سلوك كيبر ، كان يحب التسلل إلى الطابق العلوى ليتمدد بأطرافه الضخمة البنية اللون على الأسرة الوثيرة المغطاة بالملاءات الرقيقة الناصعة البياض ، ولكن نظافة الأبرشية ونظامها ، جعلا عادة كيبر هذه غير مقبولة ، حتى إن إميلى أعلنت إزاء احتجاج تابى أنه إذا عاد مرة أخرى للخطأ فإنها بنفسها — تحدياً للتحذير وما عرف عنه من طبيعة متوحشة — ستضربه بعنف حتى لايضايقها مرة أخرى . وإذا آذنت الشمس بالمغيب فى نهاية يوم من أيام الخريف ، حضرت تابى نصف ظافرة ونصف مرعوبة ، ولكن فى غضب شديد لتخبر إميلى أن كيبر يرقد الآن فوق أحسن سرير متلذذاً

بنعاسه ، ولمحت تشارلوت إميلى وقد شحب وجهها وزمت شفتيها ،ولكنها لم تجرؤ على التدخل بالكلام ،ولم يكن أحد يجرؤ على ذلك عندما تلتمع عينا إميلى بهذه الطريقة وسط وجهها الشاحب وشفتيها المتحجرتين وصعدت إلى أعلى بينما وقفت تابى وتشارلوت فى الممر الأرضى الكئيب وقد غشيته الظلال القائمة لليل أخذ يرخى سدوله . وهاهى إميلى تهبط وقد جرت وراءها كيبر رغم أنفه ، وقد تصلبت ساقاه الخلفيتان فى حركة مقاومة «كانت تمسك بخناقه » ، ولكنه كان يكشر عن أنيابه ويزمجر بصوت منخفض وبوحشية طول الوقت ، واستبدت بالمرأتين الرغبة فى الكلام ، لكنهما لم تجرآ خشية أن ينصرف انتباه إميلى عن الكلب وتضطر إلى الإشاحة برأسها لحظة عن الوحش الهائج وأخيراً أرخت قبضتها وتركته يذهب ، ليقبع فى ركن مظلم أسفل السلم ، ولم يكن هناك وقت للبحث عن عصا أو قضيب خشية أن ينقض على رقبتها — واستخدمت قبضتها العارية وظلت تضرب بها عينيه الحمراوتين الوحشيتين دون أن تتيح له الفرصة ليقفز قفزته ،« وعاقبته » حتى تورمت عيناه ، واقتيد الوحش المذهول وهو نصف أعمى إلى عرينه ، لكى تعنى إميلى نفسها برأسه المتورم وتغسله».

وقد كتبت تشارلوت عنها : « إنها بلاشك نزيهة ونشيطة ، وإذا لم تكن سهلة الانقياد ، وقابلة للاقتناع كما كنت أحب . إلا أنه يجب أن أتذكر أن الكمال ليس من نصيب الإنسانية ».

ومن الواضح أن تشارلوت لم تدر تماماً ماذا تقول فى « ويذرنج هايتس » فلم يدر بخلدها قط أن أختها قد ألفت كتاباً فيه أصاله مذهلة ، وإذا قارنه المرء بما أنتجته هى نفسها لو جد إنتاجها عادياً . وقد أحست أنها مضطرة للاعتذار عن هذا ، وعندما اقترح عليها إعادة نشره تعهدت بتنقيحه « إننى أيضاً مضطرة لقراءته من جديد لأول مرة بعد وفاة أختى لأن قوته تجعل إعجابى يتجدد ، ولكنى مع ذلك مستاءة : فإميلى لا تسمح للقارئ قط بلحظة سعادة خالصة ، فكل شعاع من الشمس إنما ينفذ من خلال كتل سوداء من السحب التى تنذر بالمطر ، وكل صفحة مشحونة بكهرباء أخلاقية ، وقد كانت الكاتبة غير واعية بكل ذلك — فلم يكن هناك ما يجعلها تعى ذلك » . كذلك قالت : « إذا كان المراجع يقشعر عندما يقرأ مخطوطها من جراء التأثير الساحق للطبائع البالغة القسوة ، والعناد ، والأرواح الضائعة

المتردية فى الهاوية . وإذا كانت هناك شكوى من أن مجرد سماع بعض المشاهد الحية والمخيفة يذهب النوم ليلا ، ويعكر صفو الاستقرار النفسى نهاراً ، فإن إليس بل ستتساءل فى دهشة ما معنى كل هذا وتشك فى وجود عنصر من التظاهر . ولو قدرلها أن تعيش — لنما عقلها بنفسه كما لو كان شجرة قوية أكثر ارتفاعاً واستقامة وأكثر فروعاً ولاكتسبت ثمارها المكتملة نضجاً أروع ، وازدهاراً أكثر إشراقاً ، غير أن ذهنها لم يكن يتأثر إلا بالزمن والتجربة ، ولم يكن قابلا للتأثر بالمثقفين الآخرين .

ونحن نميل إلى القول بأن تشارلوت لم تكن تفهم أختها حق الفهم . إن «ويذرنج هايتس » ، رواية رديئة جداً وممتازة جداً ، إنها رواية بشعة ومفزعة ، إنها مليئة بالجمال ، وقد اعتقد البعض أنه من المستحيل لابنة كاهن عاشت حياة انعزالية وروتينية ، وتعرفت بالقليل من الناس ولم تعرف شيئاً عن العالم ، أن تكتبها ، وفى رأيى أن هذه سخافة ، إن رواية « ويذرنج هايتس » رومانسية بشكل صارخ : والرومانسية الآن تهرب وتبتعد عن الملاحظة المتأنية التى تتصف بها الواقعية ، إنها تمرح فى الخيال المنطلق وتنغمس بحماس أحياناً وأحياناً بكآبة فى الرعب والغموض والانفعالات المخيفة وأعمال العنف . إنها هروب من الواقع . وإذا سلمنا بشخصية إميلى برونتيه التى حاولت أن ألقى عليها بعض الضوء ، وإذا سلمنا بوجود هذه العواطف القوية المكبوتة التى يوحى بها ما نعرفه عنها ، وجدنا أن « ويذرنج هايتس» هو الكتاب الذى نتوقع منها أن تكتبه . لكنه يبدو فى ظاهره أقرب إلى الكتاب الذى كان من الممكن أن يكتبه أخوها الضال برانويل، وقد استطاع عدد من الناس أن يقنعوا أنفسهم أنه هو الذى كتب « ويذرنج هايتس» بأكملها ، أوكتب جزءاً منها . وقد كتب أحدهم وهو فرانسيس جراندى : « أفضى إلى باتريك — وما قالته أخته قد أكد لى هذا — أنه كتب بنفسه الجزء الأكبر من « ويذرنج هايتس» ... أن الأوهام الشاذة للعبقرية المريضة والتى اعتاد أن يسليني بها خلال إجازتنا الطويلة فى لدندنفوت ، تظهر مرة أخرى فى صفحات الرواية ، والتى أميل إلى الاعتقاد بأن عقدة الرواية نفسها من اختراعه هو لا من اختراع أخته » . وفى إحدى المناسبات اتفق صديقان لبرانويل هما ديردن وليلاند ، على

مقابلته فى فندق يقع على الطريق إلى كيلى لقراءة انطلاقاتهم الشعرية ، وهذا ما كتبه ديردن بعد نيف وعشرين عامًا إلى هاليفاكس بجريدة « الجارديان » :
« قرأت الفصل الأول من « الملكة الجنية » ولكن عندما أدخل برانويل يده فى قبعته — وهى الوعاء المعتاد لقصاصاته الهائمة — حيث كان يظن أنه قد أودع فيها مخطوط قصيدته ، فوجد أنه قد أخطأ ووضع بدلا منها عدداً من الأوراق المتناثرة فى رواية كان يحاول أن يجرب فيها « يده » . لقد حزن لما سببه من ضيق وهم بإعادة الأوراق إلى قبعته ، ولكن صديقيه ألحا عليه أن يقرأ هذه الصفحات فقد اشتاقا إلى أن يريا كيف يسوس هذا الشاعر قلم الروائى . وبعد شىء من التردد استجاب لطلبهما ، وقد جذب انتباههما لمدة ساعة تقريبًا ، ملقيًا فى القبعة بكل ورقة ينتهى من قراءتها . وانقطعت القصة فجأة فى منتصف جملة ، وأخبرنا بالنتيجة مشافهة مع ذكر الأسماء الحقيقية لأبطال الرواية ، ولكن نظرًا لوجود بعض هؤلاء الأشخاص على قيد الحياة ، فإنى أمسك عن التصريح بها للجمهور ، وقال إنه لم يستقر بعد على عنوان لهذه الرواية ، وكان يخشى ألا يستطيع أن يقابل الناشر الذى لديه الصلابة الكافية لكى ينشرها على العالم . إن المشهد الذى يحكيه الجزء الذى قرأه برانويل ، والشخصيات التى ظهرت فيه — بالقدر الذى وصلت إليه فى تطورها — كانت هى نفس شخصيات « ويذرنج هايتس » ، التى تؤكد تشارلوت برونتيه — بكل ثقة — أنها من صنع أختها إميلى » .

والآن إما أن تكون هذه مجموعة أكاذيب أو أنها الحقيقة . فقد كانت تشارلوت تحتقر أخاها وتكرهه فى حدود ما يسمح به التسامح المسيحى . ولكن التسامح المسيحى كما نعرف يستطيع دائمًا أن يسمح بكثير من الكراهية الشريفة ، لذلك فإن كلمة تشارلوت — التى لاسند لها — لا يمكن التسليم بها . فربما أقنعت نفسها — كما يفعل الناس غالبًا — بما تعتقد فيه . فالقصة مليئة بالتفاصيل ولا يعقل أن يخترع أحد هذه التفاصيل دون سبب معين . فما هو التفسير ؟ ليس هناك تفسير وقد قيل إن برانويل كتب الأربعة فصول الأولى ثم كف عن إكمالها وقد أغرق نفسه فى الخمر والأفيون وعندئذ التقطتها إميلى . والدليل على هذا أن هذه الفصول مكتوبة بأسلوب أكثر بلاغة من أسلوب باقى الرواية . لكنى لا أجد فى الرواية شيئاً من هذا . فالكتاب كله مكتوب بطريقة رديئة جدًا وبطريقة شبه أدبية يتظاهر بها الهاوى .

فعندما يبدأ الهاوى – ويجب أن تتذكر أن إميلى برونتيه لم تكتب قبل ذلك كتاباً – فى الكتابة يظن أنـــه يجب أن يستعمل الكلمات الرنانة بدلا من الكلمات العادية . وبالمران فقط يتعلم الكتابة ببساطة. إن الجزء الرئيسى من القصة تحكيه خادم من يوركشير وهى تعبر عن نفسها بطريقة لايستطيع أن يعبر بها أى إنسان . ربما كانت إميلى برونتيه تدرك أن الكلمات التى تضعها على لسان مسز دين لايمكن أن تخطر ببالها ، ولكى تبرر إميلى ذلك فإنها تجعلها تقول إن عملها بالخدمة قد أتاح لها الفرصة لقراءة عدد من الكتب ، مع ذلك فإن التظاهر البادى فى حديثها شىء بشع ، فهى لا تستخدم كلمة « أحاول » بل دائما تقول « إننى أعمد إلى » ، وهى لا تقول إننى « خرجت من الحجرة » وإنما تقول « زايلت الحجرة » وهى لاتقول إننى « قابلت فلاناً » وإنما تقول « تم بينى وبينه لقاء » وأود أن أقول إن الشخص الذى كتب الفصول الأولى أياً كان هو الذى كتب الباقى ، وإذا كان فى الفصول الأولى شىء من الطنطنة والتفاخر فى أسلوب الكتابة فإنى أرجح أن ذلك يرجع إلى محاولة إميلى – التى نجحت – فى إظهار غباء وغرور لوكوود .

لقد قرأت فى مكان ما عن التكهن القائل بأنه إذا كان برانويل هو الذى كتب بداية الرواية فقد كان مقصده أن يجعل لوكوود دوراً أكبر فى الأحداث ، والواقع أن ثمة إشارة إلى أنه قد انجذب إلى كاترين الشابة ، ومن الواضح أنه لو كان قد وقع فى حبها لازدادت الحبكة تعقيداً ، ولكنها كما هى عليه فإن لوكوود مجرد شخص يبعث على الضيق . والرواية مبنية بطريقة فجة للغاية ، وهل فى ذلك غرابة ؟ إن إميلى برونتيه لم تكتب أية رواية من قبل ، والرواية التى تريد أن تحكيها رواية معقدة تتعلق بجيلين . إنها مهمة صعبة إذ يتعين على المؤلف أن يحقق نوعاً من الوحدة فى الرواية التى تتعلق بمجموعتين من الشخصيات ومجموعتين من الأحداث ، ويجب أن يكون صريحاً بحيث لا يدع الاهتمام بمجموعة منها يطغى على الاهتمام بالمجموعة الأولى . وعليه أيضاً أن يضغط مرور السنين فيحيلها إلى فترة زمنية يمكن أن يتقبلها القارئ ويدركها بنظرة شاملة مثلما يدرك المرء بنظرة واحدة تصويراً كبيراً على حائط ، ولا أظن أن إميلى برونتيه قد فكرت عن عمد كيف تضفى انطباعا موحداً على قصة مشتتة ، ولكنى أعتقد أنها لابد أن فكرت كيف يمكن أن

تجعلها متماسكة ، وربما تراءى لها أن أفضل طريقة لذلك هي أن تجعل شخصيته تروى سلسلة الأحداث المتلاحقة إلى شخصية أخرى ، إنها طريقة مناسبة لحكاية قصة وهى طريقة لم تخترعها . وعيبها كما أشرت إلى ذلك أنه من المستحيل تقريباً أن يحافظ الراوى على مبدأ الحوار حين يتعين عليه أن « يتحدث » عن عدد من الأشياء كأن يصف بعض المشاهد أو المناظر ، وهذا شيء لايفعله أى شخص عاقل . وطبيعى إذا كان لديك رواية (مسز دين) فلا بد أن يكون هناك مستمع (لوكوود) وربما وجد الروائى ذو الخبرة طريقة أفضل لرواية قصة « ويذرنج هايتس » لكنى لا أستطيع أن أقنع نفسى أنه إذا كانت إميلى برونتيه قد استخدمت هذه الطريقة فلكونها كانت تبنى فوق أساس وضعه شخص آخر .

وأكثر من هذا فإننى أعتقد أن أسلوب إميلى برونتيه ليس غريباً عليها إذا نظرت إلى حياتها المفرط الشاذ وانطوائها ، وإلا فأى أسلوب آخر كان يمكن أن تكتب به رواية « ويذرنج هايتس» ؟ من بين الأساليب أن يكتب المرء روايته من خلال وجهات النظر كلها مثلما فعلت مؤلفة ميدلمارش ومؤلف مدام بوفارى ، وأعتقد أن فضيلتها العنيفة التى لا تلين كانت ستصدم لو أنها قصت هذه القصة الفظيعة وكأنها من إبداعها هى ، وزيادة على هذا لو كانت قد فعلت ذلك لكان من الصعب عليها أن تتجنب الحديث عن هيثكليف خلال السنوات التى قضاها بعيداً عن يذرنج هايتس ، وهى السنوات التى حصل فيها على العلم والمال . لم تكن لتستطيع أن تفعل هذا لسبب بسيط ، فهى لم تكن تعرف كيف حصل على ذلك ، والحقيقة التى يطلب من القارئ أن يتقبلها هى حقيقة من الصعب تصديقها ، ولقد اكتفت بذكرها وتركتها عند هذا الحد . وهناك أسلوب آخر وهو أن تحكى مسز دين القصة كلها لأميلى برونتيه ثم تقوم هذه بحكايتها بضمير الشخص المتكلم ، ولكنى أشك أن هذا الأسلوب أيضاً كان سيجعلها على اتصال بالقارئ اتصالا شديداً لا تحتمله حساسيتها المرهفة . إنها بجعلها لوكوود يحكى بداية القصة ، وجعلها مسز دين تفسر الأمر للوكوود ، أخفت نفسها وراء قناع مزدوج . ولقد حكى باتريك برونتيه لمسز جاسكل قصة لها دلالة فى هذا الصدد . فعندما كان أطفاله صغاراً ورغبة منه فى اكتشاف أشياء فى طبيعتهم ، والتى كان يخفيها عنه حياؤهم ، كان يجعل كل واحد

منهم يرتدى قناعاً قديماً وتحت هذا الغطاء يمكنهم أن يجيبوا بحرية أكثر على الأسئلة التى كان يطرحها عليهم . وعندما كان يسأل تشارلوت عن أحسن كتاب فى العالم كانت إجابتها : الإنجيل ، ولكن عندما يسأل إميلى عن أفضل طريقة يعامل بها شقيقها المتعب برانويل كانت إجابتها : «حاول أن تنصحه ، فإذا لم يرعو فاضربه بالسوط» .

ولماذا تحتاج إميلى إلى التخفى وهى التى ألفت هذا الكتاب القوى الرهيب ؟ أعتقد أن السبب يرجع إلى أنها أفصحت فى هذه الرواية عن أعمق أعماق غرائزها . لقد هبطت إلى أعماق بئر الوحدة التى يعيش فيها قبلها، فرأت هناك أسراراً لا يمكن الإفصاح عنها غير أنها أسرار اضطرتها طبيعتها ككاتبة إلى أن تتخفف منها . ويقال إن خيالها اشتعل بالقصص الخيالية الغامضة التى اعتاد أبوها أن يقصها ويحكى فيها عن إيرلندا كما رآها فى شبابه ، كذلك اشتعل خيالها بحكايات هوفمان الذى تعلمت قراءته عندما ذهبت إلى المدرسة فى بلجيكا ، ويقال إنها استمرت فى قراءته عندما عادت إلى الأبرشية ، وهى تجلس بجانب المدفأة وذراعها ملتف حول عنق الكلب كيبر . ولقد بذلت تشارلوت كل ما فى وسعها كى تؤكد أنه مهما كان من أمر الأشياء التى سمعتها إميلى عن الناس الذين عاشوا من حولها والذين قد يظن أنهم أوحوا لها بشخصيات روايتها، إلا أنها لم تكن تتصل بهم . وأنا أميل إلى تصديق قول تشارلوت كما أميل إلى الإيمان بأن إميلى وجدت فى قصص الرعب والإثارة التى ألفها كتاب ألمانيا الرومانسيون شيئاً يتجاوب مع طبيعتها العنيفة، بيد أننى أعتقد أنها عثرت على هيثكليف وكاترين ايرنشو فى الأعماق الخفية من روحها . وقد يبدو أن الشخصيات الثانوية — لنتون وشقيقته ، وكذلك زوجتى كل من ايرنشو وهيثكليف — تثير ازدراءها نظراً لضعفها واهتزازها، ويبدو أنها وجدت لمحات من هذه الشخصيات فى أناس عرفتهم حتماً ، بيد أن القراء نادراً ما يرجعون إلى الكاتب فضل اختراع شخصيته ، ومن المحتمل أنها خلقت هذه الشخصيات الثانوية أيضاً من خيالها القوى الساحر ، وأعتقد أن إميلى برونتيه نفسها، هى كاترين ايرنشو بوحشيتها وضعفها ، وجموحها ، وأعتقد أن إميلى برونتيه هى هيثكليف أيضاً .

أغريب أن تضع إميلى برونتيه نفسها فى شخصيتين رئيسيتين فى روايتها ؟ ليس هذا بالأمر الغريب بالمرة. فليس فينا من هو فرد واحد، هناك ما هو أكثر من شخص واحد يربض فى أعماقنا وكثيراً ما يعايش الآخرين وهو غير مستريح ، والخاصية التى يتميز بها كاتب الرواية أن لديه القدرة على أن يجسم الأشخاص المتنوعين الذين يتألف منهم ويحولهم إلى شخصيات مستقلة قائمة بذاتها ، لكن من سوء حظه أنه لا يستطيع أن يجسد فى روايته شخصيات ليست جزءاً من نفسه ، بالرغم من أن قصته قد تكون فى مسيس الحاجة إلى هذه الشخصيات . وليس غريباً أن نجد الكاتب الذى يؤلف روايته الأولى — وهذا ينطبق على ويذرنج هايتس — ليس غريباً أن نجده يجعل من نفسه الشخصية الرئيسية فى الرواية ، وليس غريباً أيضاً أنه يحقق فى روايته أشياء لم يحققها لنفسه فى واقع الحياة . وهكذا تصبح الرواية بمثابة اعترافات بأحلام اليقظة التى راودته خلال سيره وحيداً أو أثناء أرقه فى الليل ، وهى لحظات يتصور فيها نفسه قديساً أو مذنباً ، عاشقاً كبيراً أو سياسياً كبيراً ، جنرالا بطلا ، أوسفاكاً للدماء بلا رحمة ، ولأن أحلام معظم الناس تنطوى على حماقات كثيرة ، فإننا نعثر على هراء كثير فى بعض الروايات الأولى التى يؤلفها الكتاب . وإنى لأعتقد أن ويذرنج هايتس تدخل فى باب هذه الاعترافات .

بل أعتقد أن إميلى برونتيه صبت وجودها فى هيثكليف وأعتقد أنها أضفت عليه هياجها العنيف ، وحسها الجنسى ، حسها العنيف الذى لا يجد الإشباع ، كذلك أضفت عليه عاطفة حبها الجائع ، وغيرتها ، وكراهيتها واحتقارها للبشر وقسوتها وساديتها ، ولعل القارئ يذكر ما حدث عندما استخدمت قبضتها العابثة — بلا مبرر كبير — لتضرب بها وجه الكلب الذى أحبته كما لم تحب أى إنسان فيما يبدو . وثمة حادثة أخرى تحكيها إلين نوسى صديقة تشارلوت : « كان يلذ لإميلى أن تقود تشارلوت إلى حيث لا تجرؤ هى بوحى إرادتها الحرة . وكانت تشارلوت تخاف الحيوانات المجهولة أشد الخوف . وكان يلذ لإميلى أن تقود تشارلوت إلى منطقة قريبة من البيت ثم تحكى لها عما فعلت وكيف فعلت ، ضاحكة منتشية بسبب ما تسببه لتشارلوت آنذاك من رعب » وأعتقد أن إميلى أحبت كاترين ايرنشو حباً رجولياً ، شهوانياً خالصاً ، تماماً كما أحبها هيثكليف ، كما أعتقد أنها ضحكت كما كانت تضحك من مخاوف

تشارلوت – عندما فعلت ما فعله هيثكليف ، فضربت كاترين الصغيرة على وجهها وصبت عليها موجة من الإذلال ، ، وأعتقد أنها كانت تحس بنشوة الانطلاق عندما كانت تنهر وتستبد وتشتم وتخيف الشخصيات التى خلقتها ، ذلك أنها كانت تعانى – فى الحياة الحقيقية – الأمرين فى صحبة الآخرين ، وأعتقد أنها آمنت بما آمنت به كاترين ، فبالرغم من أنها حاربت هيثكليف وبالرغم من أنها احتقرته وبالرغم من أنها عرفت شروره إلا أنها أحبته بجسدها وروحها . وكانت تنتشى لسلطانها عليه ، وكانت تشعر بأن كاترين وهيثكليف صنوين (وأعتقد أنهما لكذلك إذا كنت محقاً فى قولى أنهما يجسدان معاً إميلى برونتيه) ونظراً لأن السادى كثيراً ما ينطوى على سمات ماسوشية ، فإن إميلى أعجبت بعنفه ووحشيته وطبيعته الضارية .

لكنى قد قلت ما فيه الكفاية . ليس ويذرنج هايتس بالكتاب الذى يتحدث عنه المرء وإنما هو كتاب يقرأه المرء . ومن السهل أن تجد فيه عيوباً ، إنه بعيد كل البعد عن الكمال ، ومع ذلك فإنه يتمتع بشيء قلما استطاع الروائيون أن يقدموه لك ، وهو القوة . ولا أعرف كتاباً وصف الألم والنشوة ، والضراوة ، واستبداد الحب ، بمثل الروعة التى وصف بها « ويذرنج هايتس » هذه الأشياء . إن « ويذرنج هايتس » تذكرنى بإحدى لوحات الجريكو العظيمة ، وفيها يتبدى منظر طبيعى كئيب وقاحل تحت سحب قاتمة مثقلة بالرعد ، وسط هذا كله تتبدى شخصيات طويلة نحيلة متشنجة ، وكأنما مستها أرواح شريرة فعقدت أنفاسها . وثمة برق يلتمع وسط السماء القاتمة ، فيضفى على المشهد مسحة أخيرة من الرعب الغامض .

جوستاف فلوبير

مدام بوڤارى

كان جوستاف فلوبير رجلا غير عادى . ويرى الفرنسيون أنه كان عبقرياً . غير أن كلمة العبقرية تستخدم اليوم بصورة غير دقيقة: فقاموس أكسفورد يصفها بأنها قدرة غريزية خارقة تمكن صاحبها من الإبداع التخيلى ، أو التفكير الأصيل ، أو الاختراع أو الاكتشاف . . . ويقارنها القاموس بالموهبة ويرى من وراء ذلك إلى أنها تحقق أغراضها بالفهم الغريزى والنشاط التلقائى أكثر مما تحققه عن طريق العمليات التى يمكن تحليلها بوضوح . وبهذا المقياس لا يحتمل أن ينجب القرن الواحد أكثر من ثلاثة أو أربعة عباقرة . وستفقد الكلمة قيمتها حين نطلقها على مؤلف ألحان مستحبة أو كاتب كوميديات حية أو رسام صور خلابة . . إنها أعمال ممتازة فى مجالها ، وقد يتمتع مؤلفوها بموهبة وما أجمل أن يتمتع المرء بهذه الموهبة التى تعتبر شيئا نادراً ، غير أن العبقرى يعيش فى مجال آخر . ولو اضطررت إلى اختيار العبقرى الذى أنجبه القرن العشرون فربما كان « البرت أينشتين » هو الاسم الوحيد الذى يرد إلى ذهنى . وقد كان القرن التاسع عشر أكثر خصوبة . أما إدراج فلوبير بين هؤلاء الذين يتمتعون بهذه الموهبة الخاصة أو عدم إدراجه فشىء يقرره ، لنفسه ، القارئ الذى يطالع هذه المقدمة واضعاً تعريف القاموس نصب عينيه .

على أن هناك شيئاً واحداً ليس فيه مجال كبير للشك : لقد اصطنع فلوبير الرواية الواقعية الحديثة ، وتأثر به بطريق مباشر أو غير مباشر كل كتاب الرواية منذ ذلك الحين . وعندما كتب توماس مان « بودنبروكز Buddenbrooks » وعندما كتب آرنولد بنيت « حكاية الزوجات العجائز » ، وعندما كتب تيودور درايزر « الأخت كارى » فإنما كانوا يهتدون بالشرارة التى أشعلها فلوبير .

ولا نعرف كاتباً غيره كرس نفسه لفن الأدب بمثل هذا النشاط العنيف الذى لايخبو. لم يكن الأمر معه ، كما هو بالنسبة لمعظم المؤلفين الآخرين الذين يرون أن الأدب وإن كان نشاطاً على جانب كبير من الأهمية، إلا أنه يسمح لهم بمزاولة أوجه نشاط أخرى تريح الذهن أو تنعش الجسد أو تثرى التجربة . لم يكن يعتقد أن العيش هو الغرض من الحياة ، وانما الغرض من الحياة فى نظره هو الكتابة : ولم يوجد راهب فى صومعته ضحى مختاراً بلذات الدنيا حباً فى الله أكثر مما ضحى فلوبير بثراء الحياة وتنوعها فى سبيل طموحه لخلق عمل فنى .

ويتوقف نوع الكتب التى كتبها المؤلف على طبيعته كرجل . ولهذا كان من الأفضل إذا كان كاتباً مجيداً أن نعرف بقدر ما نستطيع تاريخ حياته الشخصية . وهذا له أهميته بوجه خاص بالنسبة لفلوبير . ولد فلوبير فى روان Rouen سنة ١٨٢١ وكان والده يعمل مديراً للمستشفى ، ويعيش هناك مع زوجته وأولاده ، وكانت أسرته سعيدة محترمة ميسورة الحال . وتربى فلوبير مثل أى ولد فرنسى من طبقته ، فذهب إلى المدرسة وأنشأ صداقات مع أولاد آخرين ، وكان يعمل قليلا لكنه يقرأ كثيراً . وكان عاطفياً وخيالياً . وكغيره من الأطفال والصبية أمضه ذلك الشعور بالوحدة الداخلية التى يحملها معهم ذوو الحساسية طوال حياتهم .

كتب يقول : « ذهبت إلى المدرسة عندما كنت فى العاشرة فقط وسرعان ما شعرت بمقت شديد للجنس البشرى » . ولم يكن يمزح وإنما كان يعنى ما يقول . كان متشائماً منذ صغره وظل هكذا ومن الحق أن الرومانسية كانت فى أوج ازدهارها وقتئذ وكان التشاؤم هو شعور العصر السائد أن أحد تلاميذ مدرسة فلوبير صوب الرصاص إلى رأسه وفتها بينما شنق آخر نفسه برباط عنقه، ولكن أحداً لا يستطيع أن يعلل تماماً لماذا كان فلوبير مع ما ينعم به من منزل مريح ووالدين حنونين عطوفين وأخت ودودة وأصدقاء هام بهم شغفاً ، لماذا حقيقة والحال هكذا وجد أن الحياة وأن إخوانه من البشر بغيضون لا يحتملون . لقد كان فى صحة جيدة قوياً سليم البنية . وقصصه الأولى التى كتبها عندما كان صبياً خليط من أسوأ المبالغات الرومانسية . وربما كان من العدل أن نعتبر التشاؤم الذى اصطبغت به هذه القصص مجرد افتعال أدبى . ولكن من المؤكد أن فلوبير لم يكن يتصنع التشاؤم ، لا ولم يكن ذلك

راجعاً إلى تأثير خارجى ، فقد كان متشائماً بطبيعته . وإذا سأل امرؤ عن السبب تحتم عليه أن يرجع إلى شذوذ تكوينه الجسمى .

فعندما كان فى الخامسة عشرة وقع حادث أثر فى حياته كلها . فقد ذهبت عائلته فى الصيف إلى تروفيل ، وكانت وقتئذ قرية متواضعة على البحر وبها فندق وحيد ، وهناك فى ذلك العام وجدوا موريس شلزنجر ، وهو ناشر موسيقى مغامر ، مقيماً مع زوجته ، ويجدر بنا أن ننقل الصورة التى رسمها فلوبير لهذه الزوجة فيما بعد « كانت طويلة القامة ، حمراء اللون ذات شعر أسود رائع تتهدل خصلاته على كتفيها ، ولها أنف إغريقى وعينان متأججتان وحاجباها مرتفعان بشكل رائع ، وكانت بشرتها تلتمع وكأن غشاء ذهبياً يلفها وكانت نحيفة ورائعة . وكان فى مقدور المرء أن يرى العروق الزرقاء وهى تتعرج فوق عنقها البنى الأرجوانى ، أضف إلى هذا زغباً جميلا يضفى ظلالا على شفتها العليا ويكسب وجهها تعبيراً رجولياً قوياً يزوى بجمال الشقراوات الفاتنات . كانت تتكلم على مهل وكان صوتها إيقاعياً ، موسيقياً وناعماً » لقد ترددت فى ترجمة كلمة Pourpré إلى كلمة أرجوانى Purple التى لاتخلب القارئ ولكنها الترجمة . واعتقد أن فلوبير استخدمها متأثراً بقصيدة رونسارد الشهيرة جداً دون اعتبار للأثر الذى يمكن أن تحدثه عندما تستخدم لوصف عنق سيدة .

وجن فلوبير بحبها . وكانت فى السادسة والعشرين ، تربى طفلا . لكن فلوبير كان خجولا . . وربما لم يكن ليجرؤ على التحدث إليها لولم يكن زوجها مرحاً وصديقاً ودوداً تسهل مصادقته . وكان شلزنجر يصطحب الصبى معه فى الركوب . وذات مرة قام ثلاثتهم بنزهة بحرية . وجلس فلوبير وإليزا جنباً إلى جنب وقد تلامس كتفاهما وثوبها يلامس يده ، وكانت تتكلم فى صوت خفيت عذب ولكنه كان تائهاً فى دوامتها إلى حد لم يستطع أن يذكر كلمة مما قالته . وانتهى الصيف ورحلت عائلة شلزنجر وعادت عائلة فلوبير إلى روان ورجع جوستاف إلى مدرسته . لقد ولج أعتاب تلك العاطفة الخالدة التى استغرقت حياته . وحينما عاد إلى تروفيل بعد عامين قيل له إنها كانت هناك ورحلت . وكان فى السابعة عشرة من عمره ، لقد بدا له حينئذ أنه لم يكن مصقولا بحيث يستطيع أن يحبها بحق ، وهو الآن يحبها بصورة أخرى ،

يحبها برغبة رجل، وصار مجرد غيابها يؤجج عاطفته . وعندما عاد إلى البيت تناول من جديد كتاباً كان قد شرع فى كتابته هو « مذكرات رجل مجنون » وروى قصة الصيف الذى وقع خلاله فى حب إليزا شلزنجر.

وعندما بلغ التاسعة عشرة أراد أبوه أن يكافئه على تخرجه فأرسله مع طبيب يدعى كلوكيه فى رحلة إلى البيرنيز وكورسيكا . وكان قد اكتمل نموه وقتئذ . وقد وصفه معاصروه بأنه كان كالعملاق، مع أن طوله كان لايتعدى خمس أقدام وثمانى بوصات ولو كان فى كاليفورنيا أو تكساس لقالوا عنه رجل ضئيل ، وكان نحيلا رشيقاً، وأهدابه السوداء تظلل عينين فى خضرة مياه البحر وشعره الطويل الجميل يتهدل على كتفيه وكانت هناك امرأة تعرفه فى ذلك الحين قالت عنه بعد مضى أربعين عاماً إنه كان فى جمال آلهة الإغريق . وفى طريق العودة من كورسيكا توقف المسافرون فى مارسيليا وذات صباح لمح فلوبير وهو عائد من الاستحمام امرأة تجلس فى فناء الفندق.كانت شابة وكانت جذابة فى ضعفها الحسى. وخاطبها فلوبير وجرى بينهما الحديث . وكانت تدعى ايولالى فوكود وكانت تنتظر زوجها الذى كان يعمل موظفاً فى غينيا الفرنسية . وقضى فلوبير وايولالى تلك الليلة معاً ، ليلة كانت كما وصفها ملتهبة بالعاطفة ، ليلة تحاكى فى جمالها غروب الشمس فى الجليد . وغادر مرسيليا ، ولم يرها بعد ذلك مطلقاً . كانت تجربته الأولى فى هذا السبيل وقد تركت فى نفسه أثراً عميقاً .

وبعد هذا الحديث بفترة قصيرة ذهب إلى باريس لدراسة القانون ، لا لأنه ريد أن يصبح محامياً ، وإنما لأنه كان عليه أن يتخذ مهنة ما. ولكنه أحس بيالضيق فى باريس . ضاق بكتب القانون ، كما ضاق بحياة الجامعة ، وشعر بالازدراء نحو زملائه الطلبة لتفاهاتهم وأوضاعهم المصطنعة وأذواقهم البورجوازية . وفى أثناء هذه الفترة كتب روايته القصيرة « نوفمبر » وفيها صور مغامرته الخاطفة مع أيولالى فوكود. غير أنه أعطاها من أليزا شلزنجر عينيها البراقتين وحاجبيها المرتفعين المقوسين وشفتها العليا بزغبها المائل للزرقة وجيدها المستدير الأبيض.

وقد عادت الصلة بينه وبين عائلة شلزنجر ثانية عندما زار الناشر فى مكتبه ، ودعا فلوبير إلى حضور إحدى حفلات العشاء التى كان يقيمها بشقته كل يوم أربعاء . وكانت إليزا جميلة كالعهد بها دائماً، وعندما رأت فلوبير فى آخر مرة كان

غراً ، أما الآن فقد أصبح رجلا حاراً عاطفياً وسيماً. وسرعان ما اكتشفت أنه وقع فى حبها . وما أسرع أن أصبح وثيق الصلة بالزوج والزوجة واعتاد على تناول العشاء معهما فى أيام الأربعاء . وكانوا يخرجون معاً فى رحلات قصيرة ولكن فلوبير كان لايزال خجولا ، ومضى وقت طويل دون أن يجرؤ على أن يبوح لها بحبه. وعندما باح لها أخيراً لم تغضب كما كان يخشى ولكنها رفضت أن تصبح عشيقته . كانت قصتها غريبة. فعندما التقى بها فلوبير أول مرة سنة ١٨٣٦ كان يعتقد كما يعتقد الكل أنها زوج موريس شلزنجر. والواقع أنها لم تكن زوجته ، فقد كانت متزوجة من رجل يدعى إميل جوديه الذى وقع فى ورطة فتقدم شلزنجر يعرض المال اللازم لإنقاذه من الإدانة على شرط أن يغادر فرنسا ويتخلى عن زوجته . وفعل جوديه ذلك . وعاش شلزنجر وإليزا جوديه معاً ، إذ لم يكن هناك طلاق فى فرنسا وقتئذ ، إلى أن أتاح لهما موت جوديه فى عام ١٨٤٠ أن يتزوجا . ويقال إن إليزا ظلت على حب إميل جوديه رغم بعده وموته. كان ذلك الحب القديم وإحساسها بالولاء لذلك الرجل الذى فتح لها بيتاً وكان أباً لابنها هو الذى جعلها تتردد فى الانصياع لرغبات فلوبير . ولكنه كان لحوحاً وفى النهاية استطاع أن يقنعها بالحضور يوماً إلى شقته حيث كان ينتظرها بقلق محموم . وبدا أنه سيكافأ فى النهاية على ولائه الذى استمر طويلا غير أنها لم تحضر .

ومرة أخرى فى عام ١٨٤٤ وقع له حادث كان له أعمق الأثر فى نفسه . ففى إحدى الليالى الحالكة كان يقود مركبته عائداً إلى روان مع أخيه ، بعد أن زارا أحد أملاك أمهما . وكان أخوه الذى يكبره بتسع سنوات قد احترف مهنة أبيه . وفجأة وبدون سابق إنذار وجد فلوبير نفسه محمولا « فى تيار جارف من اللهب وسقط كالحجر على أرض المركبة » وعندما ثاب إلى رشده كان غارقاً فى الدم . كان أخوه قد حمله إلى منزل مجاور وقصده ، وأخذوه إلى روان حيث قصده والده ثانية وأعطوه جرعة من الوليرين والنيلج . ووضعوا خزاماً فى عنقه ومنعوه من التدخين أو الشرب أو تناول اللحوم. واستمر لفترة من الزمن يعانى من نوبات عنيفة جداً . وظهرت عليه أعراض بصرية وسمعية وتشنجات أعقبها فقدان الوعى . وبعد ذلك خارت قواه وصار جهازه العصبى فى هياج وتوتر . وأحاط هذا المرض الشىء الكثير من الغموض وناقش الأطباء هذا

المرض من وجهات نظر مختلفة . وصرح بعضهم بأنه الصرع وذلك ما كان يعتقده أصدقاؤه . ولم تتعرض ابنة أخته فى كتابها (ذكريات) لهذا الموضوع ، أما رينيه دومسنيل وهو طبيب ومؤلف لكتاب هام عن فلوبير فقد ادعى أنه لم يصب بالصرع وإنما بالصرع الهستيرى . وأعتقد أنه قال ذلك وهو يشعر فى قرارة نفسه أن الاعتراف بأن إصابة كاتب مرموق بالصرع ينتقص من قيمة عمله الفنى .

وربما لم تفاجأ أسرة فلوبير كثيراً بهذه النوبات إذ يقال إنه ذكر لموباسان أنه تعرض لأول مرة لتخيلات سمعية وبصرية عندما كان فى الثانية عشرة من عمره . وعندما ذهب فى رحلة وهو فى سن التاسعة عشرة. كان ذلك بصحبة طبيب ولما كان تغيير المناظر جزءاً من العلاج الذى وصفه والده فيما بعد فليس من المستبعد أنه كان قد تعرض بالفعل لشىء من النوبات العصبية . ولم يشعر فلوبير حتى وهو صبى أنه مثل الناس الذين يلتقى بهم. أليس من الجائز أن ذلك التشاؤم الغريب فى شبابه المبكر ترجع علته إلى هذا المرض الغامض الذى لابد أنه كان يؤثر حينذاك على جهازه العصبى ؟ وعلى كل حال فقد جوبه الآن بتلك الحقيقة وهى أنه أصيب بمرض رهيب لايمكن التنبؤ بنوباته . وكان لابد من تغيير طابع حياته . ويبدو أنه قرر عن طواعية هجر القانون وعدم الزواج على الإطلاق .

وفى عام ١٨٤٥ مات أبوه وبعد شهرين ماتت أخته كارولين — التى كان يعبدها — بعد أن وضعت مولودة . لم يكن يفترق عن كارولين فى طفولته وظلت حتى زواجها صديقته الحميمة الأثيرة .

وكان الدكتور فلوبير قد اشترى قبل وفاته بزمن قصير ضيعة تسمى كرواسيه على ضفاف نهر السين وبها منزل حجرى جميل يرجع إلى مائتى عام ، تتقدمه شرفة وجناح صغير يطل على النهر . وفى هذا المكان استقرت الأرملة مع ابنها جوستاف والطفلة ابنة كارولين . أما ابنها الأكبر أخيل فقد تزوج ، ولما كان جراحاً مثل أبيه فقد خلفه فى مستشفى روان . وقدر لكرواسيه أن تكون مأوى لفلوبير بقية سنى حياته. كان يكتب ويكتب منذ سن مبكرة جداً والآن وقد حرم من الحياة التى يحياها معظم الناس عزم على أن يكرس نفسه كلية للأدب. كانت له حجرة للعمل فى الطابق الأرضى تطل نوافذها على النهر وعلى الحديقة، وانتهج لنفسه نظاماً رتيباً .

فكان يستيقظ فى حوالى العاشرة صباحاً فيقرأ خطاباته والصحف وتناول وجبة خفيفة فى الحادية عشرة ويظل حتى الواحدة مسترخياً فى الشرفة أو جالساً يقرأ فى الجناح . وفى الساعة الواحدة يشرع فى العمل ويظل يكتب حتى ميعاد العشاء فى السابعة ثم يتمشى ثانية فى الحديقة، ثم يعود إلى العمل حتى ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن يرى أحداً سوى صديق أو اثنين يدعوهما من حين لآخر إلى الإقامة معه لبضعة أيام حتى يتسنى له أن يناقش معهما ما كتبه . وفيما عدا ذلك فقد حرم نفسه أى نوع من الراحة .

ولكنه كان يدرك أن الكتابة تتطلب الخبرة بالعالم وأنه لا يستطيع أن يحيا حياة التنسك الكامل . لهذا قرر الذهاب إلى باريس لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام . وبمرور الوقت وقد صار مشهوراً تعرف بمفكرى عصره . ولقد وجده رفقاؤه مفرطاً فى الحساسية ومثيراً للانزعاج الشديد فهو لا يسمح بأن يعارضه أحد وقد حرصوا على ألا يخالفوه فى الرأى، إذ لو جرأوا على مخالفته لاستشاط غضباً بصورة مروعة. وكان ناقداً قاسياً لأعمال الآخرين ويتوهم كما يحدث لمعظم المؤلفين أن العمل الذى لم ينتجه هو بنفسه لا قيمة له . ومن ناحية أخرى كان يلتهب غضباً من أى نقد يوجه لأعماله الفنية ويرجعه إلى الغيرة أو اللؤم أو الغباء . وهو فى ذلك أيضاً لا يختلف عن الكثيرين من المؤلفين البارزين الآخرين . ولم يكن يحتمل الكتاب الذين يبغون كسب معيشتهم من أقلامهم أو يبذلون أى جهد للارتقاء بمراكزهم . وكان يرى أن الفنان ينتقص من نفسه بتكسبه من الفن . وكان من السهل عليه أن يتخذ هذا الموقف مادامت لديه الثروة التى تكفيه فى هذه الفترة .

ولكننا نسبق الحوادث بعض الشىء . فى عام ١٨٤٦ خلال إحدى زياراته لباريس قابل فى استديو براديه المثال شاعرة اسمها لويز كولت . وكان هيبوليت كولت زوجها مدرساً للموسيقى . أما عشيقها ڤيكتور كوزان فكان فيلسوفاً. كانت واحدة من هؤلاء الكتاب الذين يكتظ بهم عالم الأدب الذين يظنون أن الدفع والجذب عوض كاف عن الموهبة . وساعدها جمالها على أن تحتل ما يشبه المكانة فى الأوساط الأدبية . كان لديها صالون يتردد عليه المشهورون وعرفت باسم ربة الآداب والفنون. وكانت تصفف شعرها الأشقر فى دوائر تحيط بوجهها المستدير وكان صوتها عاطفياً

جامحاً رقيقاً . ولم يمض شهر حتى أصبح فلوبير عشيقها غير أنه لم يحل بالطبع محل الفيلسوف الذى كان عشيقها الرسمى وعندما أقول إنه أصبح عشيقها فأنا لاأعنى هذا بالضبط إذ أن اضطرابه أو حياءه جعل من الصعب عليه فى ذلك الحين أن يحقق التمازج الكامل . وأصابه هذا بغم شديد . وعاد إلى كرواسيه وكتب إلى لويز كولت أول خطاب من سلسلة طويلة من خطابات غرامية غريبة كانت أغرب خطابات يمكن أن يرسلها عاشق لعشيقته .

لقد أحبت ربة الفنون والآداب فلوبير ولكنها كانت قاسية وغيورة . ولم يكن هو كذلك وأعتقد أنه يمكن القول بأنه أحس بالفخر لكونه عشيق امرأة جميلة محط أنظار الجميع . ولكنه كان رجلا يعيش حياة غنية بالخيال . وكغيره من الذين يحلمون أحلام اليقظة وجد أن الواقع يختلف بصورة مؤلمة عن الأحلام . واكتشف أنه يحب الربة عندما يكون فى كرواسيه أكثر مما يحبها وهو فى باريس . وقد ذكرلها ذلك . وكانت تريد منه أن يحضر ليعيش فى باريس فأخبرها بأنه لايستطيع أن يفارق أمه . وعندئذ طلبت منه أن يكثر من حضوره إما إلى باريس أو إلى مانتس حيث التقيا مرات نادرة فأخبرها أنه لايستطيع أن يبعد عن منزله إلا إذا كان هناك عذر معقول . فأجابته غاضبة : « هل أفهم من هذا أنك تخضع للرقابة مثل الفتيات؟» واقترحت عليه أن تحضر هى إلى كرواسيه ولكنه لم يكن ليدعها تفعل ذلك مهما كانت الظروف .

وكتبت إليه تقول « إن حبك ليس حباً ، وعلى أية حال فأنت لاتهتم كثيراً بالحب فى حياتك » فرد عليها — « تريدين أن تعرفى ما إذا كنت أحبك ؟ حسن ، نعم . أحبك بأقصى ما أستطيع ومعنى هذا أن الحب لا يحتل المكان الأول فى حياتى بل المكان الثانى » . والحق أنه كان يفتقر إلى الكياسة : فقد طلب من لويز كولت ذات مرة أن تعرف من صديقة لها تعيش فى كايبه أخبار ايلولى فوكود موضوع مغامرته فى مرسيليا ، بل لقد طلب منها أن تحمل لها خطابا ، ودهش لأنها قبلت القيام بهذه المهمة فى شىء من الضيق . وذهب إلى أبعد من هذا . فذكر لها لقاءه بالعاهرات اللاتى كان يميل إليهن حسب روايته وكان يشبع هذا الميل . ولكن ليس هناك شىء يكذب فيه الرجال أكثر من حياتهم الجنسية . وإنى لأتساءل

عما إذا لم يكن فلوبير يتفاخر هنا برجولة يفتقر إليها إلى حد ما . إن أحداً لا يعرف كم عدد النوبات التي أصابته وتركته ضعيفاً قانطاً . ولكنه كان يقع باستمرار تحت تأثير المسكنات . وربما كان سبب عدم موافقته على رؤية لويز كولت إلا نادراً – علماً أنه كان وقتئذ في العشرينيات من عمره – أن رغباته الجنسية لم تكن تلح عليه .

واستمرت العلاقة على ما كانت عليه مدة تسعة أشهر . وفي عام ١٨٤٩ قام فلوبير برحلة إلى الشرق الأدنى مع مكسيم دى كامب . وزار الصديقان مصر وفلسطين وسورية واليونان . وعاد إلى فرنسا في ربيع عام ١٨٥١ . واستأنف فلوبير علاقته مع لويز كولت ، وانهمك مرة أخرى في مراسلات تزداد شراسة على مر الأيام . وظلت تلح عليه بالمجىء إلى كرواسيه ، وظل ينتحل الأعذار لعدم الذهاب إلى باريس أو السماح لها بالحضور . وفي النهاية ، في عام ١٨٥٤ كتب لها ينبئها أنه لن يراها مرة ثانية . وأسرعت إلى كرواسيه فطردت في خشونة . وكانت هذه آخر علاقة حادة في حياة فلوبير . كان فيها خيال أكثر مما كانت فيها حياة ، وكان التمثيل فيها يغلب على العاطفة . والمرأة الوحيدة ، التي أحبها فلوبير بإخلاص وتفان هي إليزا شلزنجر . وقد انتهت مضاربات زوجها بكارثة ورحلت عائلة شلزنجر مع الأطفال للإقامة في بادن . ولم ير فلوبير إليزا ثانية لمدة عشرين عاماً . وفي هذه المدة كان كل منهما قد تغير كثيراً . لقد صارت نحيلة وفقدت بشرتها أطيافها الرقيقة ، وابيض شعرها . أما هو فقد ترهل جسمه ، وكان له شارب ضخم ، وتعود أن يضع على رأسه قلنسوة سوداء يخفي بها صلعته . وتقابلا ، وافترقا . وفي عام ١٨٧١ مات موريس شلزنجر وكتب فلوبير أول خطاب غرامي لها بعد أن ظل يحبها خمسة وثلاثين عاماً ، وبدلا من أن يبدأ خطابه كما يفعل دائماً بقوله – سيدتي العزيزة . بدأه بقوله « يا حبي القديم ، يا محبوبتي الأبدية » . وكان عليها أن تحضر إلى فرنسا لقضاء بعض الأعمال . وتقابلا في كرواسيه . والتقيا في باريس . وكل ما نعرفه أنهما لم يتقابلا ثانية بعد ذلك .

كان فلوبير يفكر ، أثناء رحلته إلى الشرق ، في رواية تكون بالنسبة إليه نقطة تحول جديدة تماماً . وكانت هذه الرواية هي « مدام بوفاري » . أما كيف انتهى إلى

كتابتها فتلك حكاية غريبة . فى إحدى رحلاته إلى إيطاليا شاهد فى جنوة لوحة لبروغل عن إغراء القديس أنطونى فتأثر بها تأثراً كبيراً . وعند عودته إلى فرنسا اشترى حفراً أعده كالوت لنفس الموضوع . ثم شرع يقرأ كل المواد المتعلقة بالموضوع . وعندما حصل على المعلومات التى يحتاج إليها وضع الكتاب الذى أوحت به إليه هاتان الصورتان . ولما انتهى منه أرسل إلى أعز صديقين له ليحضرا إلى كرواسيه وقرأ الرواية عليهما . واستمر يقرأ أربعة أيام لأربع ساعات بعد الظهر وأربع ساعات فى الليل . وكان قد اتفق معهما على عدم إبداء الرأى فى الكتاب إلى أن ينتهوا من سماعه كله . وعند منتصف الليل فى اليوم الرابع وبعد أن وصل فلوبير إلى الخاتمة ، ضرب بقبضة يده على المنضدة قائلا — حسن ،، وأجابه أحدهما — « نعتقد أنه ينبغى عليك أن تلقى بها فى النار وألا تتحدث عنها ثانية » فكانت ضربة قاصمة . وفى اليوم التالى قال له نفس الصديق محاولا تخفيف الصدمة « لماذا لاتكتب قصة ديلامار ؟ » وانتفض فلوبير وأشرق وجهه وقال — ولم لا ؟ . كان ديلامار طبيب امتياز فى مستشفى روان وكانت قصته معروفة . كان يمارس الطب فى بلدة صغيرة بالقرب من الرون وبعد وفاة زوجته الأولى — وكانت أرملة تكبره بكثير — تزوج من ابنة أحد جيرانه الفلاحين . وكانت شابة جميلة . كانت تحب المظاهر والإسراف . وسرعان ما ضاقت بزوجها المتبلد واتخذت لنفسها سلسلة من العشاق . وكانت تنفق على ملابسها بما فوق طاقتها ، ووقعت فريسة الديون . وفى النهاية تجرعت السم . وتتبع فلوبير هذه القصة القصيرة التافهة بكل أمانة وإخلاص .

كان فى الثلاثين من عمره عند ما شرع فى كتابة «مدام بوفارى» ولم يكن قد نشر شيئاً . وباستثناء « إغراء القديس أنطونى » نجد أن أهم أعماله الأدبية الأولى كانت ذاتية جداً ، فهى فى الحقيقة صياغة روائية لتجاربه الغرامية . أما الآن فهو لا يهدف إلى الواقعية فحسب ، بل والموضوعية أيضاً . وصمم على أن يروى الحقيقة دون ما تحيز ، وألا يقحم نفسه فى القصة بأى شكل من الأشكال . وعزم على أن يضع الوقائع التى يريد ذكرها ويعرض الشخصيات التى يريد أن يعالجها دون تعليق منه ، سواء بالمدح أو الذم . فإذا شعر بالتعاطف مع إحدى الشخصيات فعليه ألا يبدى ذلك ،

وإذا ضاق بغباء شخصية ثانية أو أثار خبث شخصية ثالثة، فعليه ألا يبدى ذلك،
وإذا ضاق بغباء شخصية ثانية أو أثار غضبه خبث شخصية ثالثة، فعليه ألا يدع لقلمه فرصة الإفصاح عن هذا . وذلك ما فعله . وربما كان هذا هو السبب فى أن الكثيرين من القراء شعروا بشىء من البرود فى الرواية . ليس هناك ما يجعل الدفء يسرى إلى القلب فى موقفه المتباعد الذى اختاره فى دقة وعناد . وقد يكون من قبيل الضعف الكامن فينا ، أن نحس ، كقراء ، براحة حين نعرف أن الكاتب يشاركنا الأحاسيس التى جعلنا نشعر بها .

على أن محاولة تحقيق الموضوعية الكاملة فشلت مع فلوبير كما فشلت مع كل روائى ، لأن الموضوعية المطلقة أمر مستحيل . جميل أن يدع الروائى شخصياته تتحدث عن نفسها ، وأن يجعل تصرفاتها نتيجة منطقية لطبيعتها، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن السهل أن يجعل الكاتب من نفسه مدعاة إلى الضيق عندما يلفت نظرك إلى سحر بطلته أو إلى دناءة شريرة ، وحين يلقى المواعظ أو يخرج عن الموضوع بصورة تخالف المنطق ، فى حين أن المؤلف نفسه — هو أحد شخصيات القصة التى يحكيها . غير أن المسألة لاتعدو أن تكون مسألة منهج ، وهو منهج استخدمه بعض الروائيين المبرزين . وإذا كان قد أصبح منهجاً قديماً فى الوقت الحالى إلا أن هذا لا يعنى أنه منهج ردىء . على أن المؤلف الذى يتجنبها إنما يبعد شخصيته عن الرواية ظاهرياً فقط . ويكشف عنها ، أراد أولم يرد ، فى اختياره للموضوع والشخصيات ووجهة النظر التى يصف عن طريقها هذه الشخصيات. وكان فلوبير كما نعلم متشائماً ، ولم يكن يطيق صبراً على الغباء . كان يضيق بكل ما هو بورجوازى وتافه وعادى . ولم يكن رحيما أو عطوفاً . لقد ظل طوال فترة النضوج رجلا مريضاً يمضه الإذلال الذى جره عليه المرض . وكانت أعصابه فى حالة دائمة من الاضطراب. ولم يكن متسامحاً بصورة عنيفة ، كما كان رومانتيكياً يخشى رومانتيكيته . وقذف بنفسه فى القصة الدنيئة ، قصة مدام بوفارى ، بحماس رجل يثأر لنفسه من الحياة عن طريق التمرغ فى الوحل . ذلك لأن الحياة لم تشبع فيه جنوحه إلى المثل الأعلى. لم يحتفظ فلوبير بشخصيته بعيداً عن الرواية عندما قرر كتابة قصة ديلامار ، ولا عندما بنى الشخصيات التى ستشترك فى أحداث الرواية .

لقد تعرفنا إلى شخصيات كثيرة خلال الرواية التي تبلغ الخمسمائة صفحة، فظهر أنه باستثناء الدكتور لاريفيير – تلك الشخصية الصغيرة – لاتوجد شخصية تتمتع بملامح تعوضها عن عيوبها . إنها شخصيات وضيعة حقيرة غبية تافهة سوقية . هناك أناس كثيرون من هذا الصنف ، ولكن ليس كل الناس كذلك . ونحن لانفهم كيف لانجد شخصاً عطوفاً كريماً إن لم يكن شخصين أو ثلاثة كيف لانجد هذا فى مدينة ، مهما صغر حجمها .

لقد تعمد فلوبير اختيار عدد من الشخصيات العادية ، واصطناع أحداث تنبثق بالضرورة من طبيعة هذه الشخصيات والظروف التى تعيش فيها . ولكنه اكتشف أنه قد لا يجد شخصاً يهتم بمثل هؤلاء الأشخاص المتبلدين ، وقد تكون الأحداث التى سيسردها مثيرة للملل . كيف عمل على معالجة هذا الأمر ؟ سأوضح ذلك فيما بعد . وقبل أن أفعل ذلك ، أريد أن أرى إلى أى حد نجح فى محاولته .

أريد أولا أن أشير إلى أن الشخصيات رسمت بمهارة بالغة . إنها تغرينا بتصديق وجودها ، وما إن نلتقى بها حتى نعترف بها كمخلوقات حية تقف على أقدامها فى العالم الذى نعرفه . ونحن نسلم بوجودها مثلما نسلم بوجود سباكنا وبقالنا وطبيبنا . ولا يخطر ببالنا أبداً إنها شخصيات فى رواية . فشخصية هومياس على سبيل المثال شخصية مرحة مثل مستر ميكوبر . لقد أصبح مألوفاً للفرنسيين مثلما أصبح مستر ميكوبر مألوفاً للإنجليز . ونحن نؤمن بوجوده مع أننا لانؤمن تماماً بوجود ميكوبر . كما أنه يختلف عن مستر ميكوبر فى أنه باستمرار غير متناقض مع نفسه .

ولكنى لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن « إمّا » بوفارى هى ابنة فلاح عادى . أما أنها تشترك مع كل امرأة ومع كل رجل فى شىء فهذا صحيح . وعندما سئل فلوبير عن النموذج الذى رسمها على منواله أجاب – إن مدام بوفارى هى أنا . إننا جميعاً نستسلم للأحلام الجامحة الشاذة التى نرى فيها أنفسنا أغنياء وسيمين ناجحين ، أبطالا وبطلات فى مغامرات رومانسية ، ولكن معظمنا أعقل أو أجبن أو أكثر بعداً عن الميل إلى المغامرة من أن ندع أحلامنا تؤثر على سلوكنا بصورة خطيرة . وقد شذت مدام بوفارى عن هذا إذ حاولت أن تعيش أحلام عمرها . وكانت فريدة فى جمالها . وليس لأحداث الرواية تلك الحتمية التى سعى إليها فلوبير . فعندما

يتخلى الحبيب الأول عن إمّا بوڤارى تنتابها حمى فى المخ تقودها إلى أبواب الموت ، وتستمر ثلاثة وأربعين يوماً . والذى أعرفه أن حمى المخ — ذلك المرض الذى ظل لفترة طويلة مفضلا عند الروائيين الذين يريدون التخلص من الشخصية المريضة فترة من الزمن — هذا المرض ليس معروفًا لدى الأطباء . وإذا كان فلوبير قد تركها تعانى من هذا المرض بهذه الصورة القاسية فلأنه يريد أن يجعلها تعانى مرضًا طويلا يكلفها الكثير . هذا الحدث لايغرى بالتصديق . وكذلك الأمر فى موت بوڤارى فقد مات لمجرد أن فلوبير أراد إنهاء كتابه .

وكما هو معروف رفعت دعوى ضد المؤلف والناشر بتهمة أن « مدام بوڤارى » عمل غير أخلاقى : ولقد اطلعت على ما قاله كل من المدعى العام والدفاع . قرأ المدعى بعض الفقرات مدعيًا أنها فاضحة ، وهى الآن لاتثير أكثر من ابتسامة ، وتعد مهذبة جداً بالنسبة لأوصاف عملية ممارسة الحب ، التى عودنا عليها كتاب الرواية المحدثون . ولكن لايمكن أن نصدق أن المدعى العام — حتى فى عام ١٨٥٧ — شعر بأذى من هذه الفقرات . وأصر مجلس الدفاع على أن هذه الفقرات ضرورية . وأن العظة التى نخرج بها من الرواية طيبة لأن مدام بوڤارى دفعت ثمن سوء سلوكها . وقبل القضاة هذا الرأى وبرئت ساحة المتهمين . ويبدو أنه لم يخطر على بال أحد آنذاك أنه إذا كانت مدام بوڤارى قد انتهت إلى نهاية سيئة ، فلم يكن ذلك بسبب فسقها ، وإنما لأنها أسرفت فى الديون ولم يكن لديها المال الذى تسدد به هذه الديون . فلو كان لديها غريزة الاقتصاد التى تتصف بها الفلاحة الفرنسية — كما قيل لنا إنها كذلك — لما تعرضت للأذى وهى تنتقل من عشيق إلى آخر .

وأود ألا يعتقد القارئ أننى أحرص على إظهار عيوب طفيفة فى كتاب عظيم . والفكرة التى أريد أن أوضحها هى أن فلوبير لم ينجح تماماً فى العمل الذى حاول أن يفعله ، ذلك لأنه حاول المستحيل : فالعمل الروائى عبارة عن ترتيب أحداث اصطنعها الروائى لاستعراض عدد من الشخصيات أثناء تحركها ، والهدف منها إمتاع القارئ . إنها ليست نسخة من الحياة كما هى فى الواقع ، وكما أن الحوار لايمكن نقله إلى الرواية كما هو فى الحياة الواقعية ، وإنما يختزل فلا تنقل إلا النقاط الهامة وبوضوح وإيجاز لانجده فى الحياة الواقعية ، يجب أن يصيب الحقائق بعض التشويه حتى تتسق مع

خطة المؤلف ، وتجتذب انتباه القارئ. يجب حذف الأحداث التى ليس لها علاقة بالقصة . ويجب تجنب التكرار ، ويعلم الله كم تمتلئ الحياة بالتكرار . كما أن الأحداث والوقائع الغير مترابطة التى قد تفصل بينها فى الحياة الواقعية فترة من الزمن ، قد نضطر كثيراً إلى التقريب بينها فى العمل الفنى . ولا توجد رواية متحررة تماماً من الأحداث غير المحتملة الوقوع ، حتى إن القراء اعتادوا قبول العادى من هذه الأحداث إلى حد أنهم يسلمون بوجودها كشىء طبيعى . إن الروائى لا يستطيع أن يقدم نسخة طبق الأصل من الحياة . إنه يرسم لك صورة يحاول فيها ، إذا كان واقعياً ، أن يجعلها شبيهة بالحياة . فإذا صدقته فمعنى ذلك أنه نجح فى مهمته. وقد نجح فلوبير . فرواية مدام بوفارى توحى لنا بوجود واقع عميق ، ولا يرجع هذا على ما اعتقد إلى أن شخصياته نابضة بالحياة فقط ، وإنما لأنه قد وصف بما عرف من دقة الملاحظه كل التفاصيل الضرورية لهذه الغاية بدقة فائقة . ويمتاز الكتاب بأنه رائع فى بنائه . ولقد عاب بعض النقاد على فلوبير أنه بالرغم من أن « إمّا » هى الشخصية الرئيسية إلا أنه يبدأ الكتاب بوصف شباب بوفارى المبكر وزواجه الأول وتنتهى الرواية بانهياره وموته. لكنى أعتقد أن فلوبير كان يهدف إلى تغليف قصة إمّا داخل قصة زوجها ، مثلما تضع لوحة فى إطار . وأعتقد أنه لابد قد شعر أنه بذلك أحكم القصة وأضفى عليها وحدة العمل الفنى . فإذا كان هذا هدفه فربما غدا أكثر وضوحاً لو لم يسرع فى إنهاء الرواية ووضع خاتمة متعسفة .

وبالكتاب قسم لم يشر إليه النقاد فيما أعلم ، ولكنى أود أن ألفت انتباه القارئ إليه ، لأنه مثال رائع على مهارة فلوبير فى الصياغة . فقد قضت إمّا الشهور الأولى من حياتها الزوجية فى قرية اسمها توستس . وكانت تشعر هناك بالملل البالغ ، ولكن من أجل تحقيق التوازن فى الكتاب ، تم تصوير هذه الفترة بنفس الإيقاع ، وبنفس التفاصيل التى صورت بها بقية أجزاء الكتاب . وإنه من الصعب جداً تصوير فترة مملة دون إدخال الملل على القارئ ، ولكنك تقرأ هذا الجزء الطويل بشغف ، وكنت متلهفاً لمعرفة كيف أمكن تحقيق ذلك ، فقرأت الجزء ثانية . ووجدت أن فلوبير قد روى سلسلة طويلة من الأحداث التافهه جداً ، كل منها جديد وغير متكرر ، وأنت لا تسأم لأنك تقرأ شيئاً جديداً طوال الوقت ، وإنما

لأن كل حادثة صغيرة كانت عادية، بلغت من التفاهة والبعد عن الإثارة ما يجعلك تحس بما تحسه إما من ملل، إحساساً واضحاً حياً، بل ومدمراً. وهناك وصف واحد جامد ليونفيل تلك المدينة الصغيرة التى استقرت فيها عائلة بوفارى بعد أن غادرت توستس؛ ولكنه الوصف الوحيد، وفيما عدا هذا نجد الريف أو المدينة وقد وصفا وصفاً جميلا، وصفاً يندمج مع الأحداث. وكل هذه الأوصاف توفى بالغرض؛ ألا وهو السير بالقصة قدماً. إن فلوبير يقدم شخصياته وهى تتصرف، ونعرف مظهرهم وطريقة حياتهم وأوضاعهم فى عمليات الحياة المستمرة، تماماً كما نعرف الناس فى الحياة الواقعية.

أشرت منذ قليل إلى أن فلوبير كان يعرف أنه إذ يشرع فى كتابة رواية تدور حول أناس عاديين فإنه بذلك يغامر بكتابة رواية مملة جداً؛ غير أنه صمم على ابتداع عمل فنى، وشعر أنه فى إمكانه التغلب على الصعوبات التى تخلقها طبيعة موضوعه الوضيع وسوقية شخصياته عن طريق جمال الأسلوب وحده. وأنا لا أدرى إذا كانت هذه القدرة توجد بالفطرة فى الكاتب، ولكن من المؤكد أن فلوبير لم يكن كذلك، فأعماله الأولى التى لم تنشر أثناء حياته كانت أقرب إلى الخطابة، وكانت مليئة بالحشو واللغو، وخطاباته التى كتبت بفرنسية رديئة قلما تدل على أنه يتمتع بالإحساس برشاقة لغة بلاده وتفردها. لكنه استطاع بكتابه « مدام بوفارى » أن يهىء لنفسه مكاناً بين أعظم كتاب الأساليب فى فرنسا. وهذا أمر قد لا يستطيع القارىء الأجنبى أن يكون حكماً عادلا فيه حتى ولو كان يجيد إحدى اللغات، فقد تخفى عنه النقط الدقيقة، كما أنه من الواضح أن الموسيقى والعمق، والدقة، والإيقاع الموجودة فى الأصل ستضيع فى الترجمة. ومع ذلك يبدو لى أن من المهم اطلاع القارىء على هدف فلوبير، وكيف شرع فى تحقيق هذا الهدف، لأننا نستطيع أن نتعلم الكثير من فنه سواء فى النظرية أو التطبيق مما يفيد أى كاتب فى أى بلد.

لقد اعتنق فلوبير حكمة بوفون التى تقول إنه لكى يجيد الإنسان الكتابة فعليه أن يجيد الإحساس والتفكير والحديث. وكان يتبع الرأى القائل بأنه لا توجد طريقتان لقول الشىء، إنما هناك طريقة واحدة، وأن اللفظ يجب أن يناسب الفكرة مثلما يناسب القفاز اليد. وكان يرغب فى كتابة نثر منطقى، دقيق، رشيق، متنوع.

وكان يتطلع إلى أن يجعله إيقاعياً ، رناناً ، وموسيقياً كالشعر ، وأن يحتفظ له مع ذلك بمزايا النثر . وكان على استعداد لاستخدام كلمات الحياة اليومية ، والألفاظ السوقية إذا اقتضى الأمر ، طالما أنه يستطيع استخدامها بحيث يخلق شيئاً جميلا .

لاشك أن هذا كله رائع . وقد يصح لنا أن نقول إنه كان يجمح أحياناً . وقد قال «عندما أعثر على لفظ متنافر أوتكرار فى إحدى عباراتى فمعنى ذلك أننى وقعت فريسة لشيء زائف ». ولم يكن يسمح لنفسه بأن يستخدم نفس الكلمة مرتين فى الصفحة الواحدة . وهذا شذوذ فيما يبدو ولأنه إذا كان ينبغى وضع الكلمة الصحيحة فى موضعها فمن الواجب استخدام هذه الكلمة ولايغنى عنها أبداً كلمة مترادفة . وكان حريصاً على ألا يدع إحساسه بالإيقاع يسيطر عليه (كما حدث لجورج مور فى مؤلفاته الأخيرة) ولكنه حرص على أن ينوع فى الإيقاع . وكان يتمتع بقدرة غريبة على الربط بين الكلمات والأصوات لإعطاء الشعور بالسرعة أو التراخى ، بالاسترخاء أو العنف ، كان يتمتع فى الواقع بالقدرة على خلق أى حالة يريد تصويرها . ولا يتسع المجال هنا ، حتى لو كنت أملك المعرفة ، للتوسع فى تلك المميزات الخاصة فى أسلوب فلوبير ،ولكنى أود أن أتكلم قليلا عن السبيل الذى سلكه حتى استطاع أن يصبح أستاذ الأسلوب المبرز .

وأول هذه الأشياء أنه كان يعمل بجد واجتهاد . كان قبل الشروع فى تأليف أى كتاب يقرأ كل ما يعثر عليه ويكون له صلة بالموضوع . وكان يدون العدد الهائل من الملاحظات . وعندما يكتب يعد مسودة لما يود أن يقوله وبعدئذ يعيد النظر فيما كتبه فيضيف أو يحذف أو يعيد الكتابة حتى يتوصل إلى التأثير الذى يزيده . وعندما ينتهى من ذلك يخرج إلى الشرفة وينطق بالعبارات التى كتبها بصوت عال ، مقتنعاً بأنه إذا لم تكن حسنة الوقع فى الأذن، وإذا كانت صياغتها ثقيلة على اللسان فلابد أن فيها خطأ ما . وفى هذه الحالة يعود بالأوراق إلى غرفته ، ويعيد كتابتها إلى أن يشعر فى النهاية بالارتياح والرضا . وقد جاء فى أحد رسائله : « ضاع يوما الاثنين والثلاثاء بطولهما فى البحث عن سطرين » ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أنه كتب سطرين فقط فى يومين ، إذ ربما كتب عشر صفحات

أو اثنتى عشرة صفحة ، وإنما يعنى أنه مع كل هذا الجهد نجح فقط فى كتابة سطرين فيهما الكمال الذى ينشده . فلا عجب أن تستنفد منه « مدام بوڤارى » فى كتابتها خمسة وخمسين شهراً .

لم يعد لدى سوى القليل لأقوله . فبعد أن كتب « مدام بوڤارى » ألف رواية سلامبو التى يعتبرها الجميع فاشلة ، وبعد ذلك أعاد كتابة « التربية العاطفية » وهى رواية كان قد كتبها منذ عدة سنوات ، ولم يكن قد رضى عنها . وفى هذه الرواية صور ثانية حية لإليزا شلزنجر ، وتعد فى نظر كثير من النقاد الممتازين فى فرنسا قمة إنتاجه . ولاشك أن القارئ الأجنبى يجد صعوبة كبيرة فى قراءتها ، لأن هناك أجزاء كبيرة منها تتعلق بأمور لا أهمية لها بالنسبة إليه اليوم . وبعد ذلك كتب للمرة الثالثة « إغراء القديس أنطونى » . ومن الغريب أن نلاحظ أن مثل هذا الكاتب العظيم كان لديه هذه القلة من الأفكار ، لكتب يبذل فيها الجهد الكافى تمهيداً لكتابتها . ومن الواضح أنه كان قانعاً بتناول الموضوعات التى سيطرت عليه فى شبابه ، لكنه لا يستطيع إزاحة عبئها عن كاهله إلا بعد أن يصبها فى قالب معين .

ومرت الأيام ، وتزوجت كارولين ابنة أخته . وبقى فلوبير وأمه وحيدين وماتت أمه ، وبعد هزيمة فرنسا فى عام (١٨٧٠) وجد زوج كارولين نفسه واقعاً فى أزمات مالية ، وفى النهاية قام فلوبير من أجل إنقاذه من الإفلاس بتسليمه كل ثروته . واحتفظ لنفسه فقط بالمنزل القديم الذى لم يستطع تحمل التخلى عنه . ولكن عندما افتقر نسبياً بعد أن أقدم على هذا التصرف النزيه ، حمل إليه القلق مرة أخرى نوبات المرض الذى كان قد شفى منه لعشر سنوات . وعندما كان يمكث فى باريس ، ويخرج لتناول العشاء ، كان يخرج جى دى موپاسان للبحث عنه ويصحبه إلى البيت سالماً . وبالرغم من الحظ العاثر على العموم فى علاقاته الغرامية ، كان له دائماً قلة من الأصدقاء المخلصين ، الذين كانوا يكنون له الحب والولاء . ومات معظمهم الواحد تلو الآخر ، فقضى السنوات الأخيرة من حياته وحيداً . وكان نادراً ما يغيب عن كرواسيه . وكان يفرط فى التدخين ، ويفرط فى شرب براندى التفاح .

وكان آخر ما نشره جزء يضم ثلاث قصص . وانشغل فى كتابة رواية اسمها

« بوفار وبيكوشيه » وفيها صمم على أن يقذف بسهمه الأخير الموجه لحماقة الجنس البشرى ، وأقبل بكل كيانه ، كالعهد به دائماً ، على قراءة ألف وخمسمائة كتاب ليزود نفسه بالمعلومات التى يعتقد أنها ضرورية . وكان يزمع إخراج الرواية فى مجلدين وقد أتم تقريباً المجلد الأول . وفى صباح ٨ مايو سنة ١٨٨٠ دخلت الخادمة إلى المكتبة فى الساعة الحادية عشرة لتقدم له الغداء . ووجدته ملقى على المقعد الكبير وقد راح يهمهم بكلمات غير مفهومة . وأسرعت تستدعى الطبيب وأحضرته معها . غير أن الطبيب لم يكن يملك أن يفعل شيئاً . وفى أقل من ساعة كان جوستاف فلوبير قد مات . . .

ومضى عام . وكان صديقه القديم مكسيم دى كامب يقضى الصيف فى بادن ، وفى أحد الأيام . وقد خرج للصيد ، وجد نفسه بالقرب من مصحة عقلية فى الينوه ، وإذا بالأبواب تفتح ويخرج المرضى لنزهتهم اليومية . ومن بين هؤلاء انحنت له امرأة ، كانت هذه المرأة هى إلزا شلزنجر ، التى طالما أحبها فلوبير دون جدوى .

تشارلز ديكنز
و
ديڤيد كوبر فيلد

كان تشارلز ديكنز رغم ضآلة جسمه جميل الطلعة، وهناك صورة له رسمها ما كلير عندما كان فى السابعة والعشرين ، وهى فى المتحف الوطنى للصور الشخصية بلندن ، ويبدو فيها جالساً على مقعد كبير جداً ، وأمام منضدة للكتابة ويده الصغيرة الرقيقة مسندة إلى صفحات مكتوبة ، وقد بدا أنيقاً فى ملبسه يرتدى رباط عنق كبيراً من الحرير ، وشعره البنى مجعد يتدلى على جانبي وجهه فى سخاء إلى ما بعد الأذن بكثير . أما وجهه فطويل وشاحب وعيناه جميلتان ، أما التفكير والتأمل المرسومان على قسمات وجهه ، فهما كما يتوقع جمهور المعجبين ممايبدو عليهما مؤلف شاب ناجح . كان دائماً على جانب من الأناقة وكان فى شبابه يحب المعاطف المصنوعة من القطيفة، والصديريات الزاهية، وأربطة العنق الملونة والقبعات البيضاء ؛ ولكنه لم يصل قط إلى التأثير المنشود ، إذ كان الناس يدهشون بل يصدمون من ملابسه التى كانوا يصفونها بالرثاثة والبهرجة معاً .

بدأ جده وليام ديكنز حياته كخادم ، وتزوج إحدى الوصيفات وأصبح أخيراً رئيساً للخدم فى كروهول ، دائرة چون كرو عضو البرلمان عن تشستر . وكان له ولدان وليام وچون. ولكن الذى يعنيناهو چون، أولا لأنه كان والد أعظم روائيى إنجلترا ، وثانياً لأنه كان نموذجاً صاغ عليه ابنه أعظم ما أبدع ، وهو شخصية المستر ميكوبر . وقد توفى وليام الكبير عندما ولد چون ، وظلت أرملته وصيفة فى كروهول لخمسة وثلاثين عاماً . أحيلت بعدها إلى المعاش . وقد قامت أسرة كرو بتعليم الولدين ووفرت لهما سبل الحياة وكان لهم الفضل فى حصول چون على وظيفة فى صندوق مرتبات البحرية ، حيث توثقت عرى الصداقة بينه وبين زميل له يعمل

كاتباً ، وسرعان ما تزوج أخته إليزابيث بارو، وهناك من وصف چون ديكنز بأنه كالتيس العجوز الذى يرتدى أجمل الملابس، وينقر بأصابعه على الدوام على مجموعة الأختام الكبيرة المربوطة بساعته . ويبدو أنه كان ذواقة للخمر الجيد ، فعندما قبض عليه للمرة الثانية كان ذلك وفاء لدين استدانه من شركة لتجار الخمر ، وكان يبدو عليه منذ أول عهده بالحياة الزوجية أنه يعانى من ضائقة مالية ، وكان على استعداد دائماً لأن يقترض المال من أى شخص بلغ من حمقه أن يقرض ديكنز المال .

وقد ولد تشارلز الابن الثانى لجون وإليزابيث ديكنز عام ١٨١٢ فى بورتسى ولكن حدث بعد عامين أن انتقل والداه إلى لندن ثم إلى تشاتام بعد ثلاث سنوات وهناك ألحقا الصبى بالمدرسة وهناك بدأ يقرأ . وكان لدى والده مجموعة صغيرة من الكتب : توم چونس ، قس ويكفيلد ، جيل بلاس دون كيشوت ، رودريك راندم ، برجرين بكل ، وقد قرأها تشارلز وأعاد قراءتها ، ويبدو فى رواياته هو إلى أى حد أثرت فيه هذه المجموعة .

وفى عام ١٨٢٢ عاد چون ديكنز الذى كان له فى ذلك الوقت خمسة أطفال إلى لندن ولكنه ترك تشارلز فى تشاتام لمواصلة الدراسة ولم يلحق بأسرته عدة شهور . وقد استقروا حينذاك فى كامدن تاون ، عند أطراف المدينة، وذلك فى منزل وصفه فيما بعد باعتباره بيت آل ميكوبر . ورغم أن چون ديكنز كان يزيد دخله قليلا عن ثلاثمائة جنيه فى العام (وهو ما يعادل فى أيامنا هذه خمسة آلاف دولار تقريباً) إلا أنه من الواضح أنه كان فى ضائقة أكثر من المعتاد ، كما بدا أنه لايوجد من المال ما يكفى لإرسال تشارلز الصغير للمدرسة مرة أخرى . وقد أثار امتعاضه وسخطه تكليفه برعاية الأطفال وتنظيف الأحذية والملابس والقيام بأعباء المنزل . ولكنه فى أوقات الراحة كان يهيم على وجهه فى كامدن تاون « مكان موحش تحيط به الحقول والقنوات » وسومرس تاون المجاورة وكنتش تاون ثم استطاع فيما بعد أن يذهب إلى أبعد من ذلك حتى عرف سوهو ولا يمهاوس .

وقد ساء الحال بالأسرة لدرجة أن مسز ديكنز اعتزمت أن تفتح مدرسة لتعليم

الأولاد الذين يعيش آباؤهم فى الهند . واقترضت المال لاستئجار منزل ، وطبعت إعلانات صغيرة للتوزيع ، وكلفت الأطفال بتوزيعها على صناديق البريد فى الضاحية ، ولكن تلميذاً واحداً لم يحضر . وأثقلتهم الديون ، وأرسلوا تشارلز ليرهن كل ما يمكن أن يأتى بنقود قليلة ، فقد بيعت الكتب ، والكتب الثمينة التى كانت تعنى الكثير بالنسبة إليه لأحد باعة الكتب . وبعد ذلك عرض چيمس لامرت وهوابن زوج أخت مسز ديكنز على تشارلز وظيفة بستة أو سبعة شلنات فى الأسبوع وذلك فى مصنع صباغة كان شريكاً فيه . وقبل الوالدان هذا العرض شاكرين ، وقد نزعت هذه الوظيفة من تشارلز كل أمل . وآلمه وحز فى نفسه أن يظهر والداه ارتياحهما إذ نفضا أيديهما عنه ، كان فى الثامنة عشرة من عمره ، كما كان متحمساً ذكيًّا « وغمره إحساس عميق بالضياع » .

ولم تمض فترة طويلة حتى جاءت الضربة التى طال انتظارها . فقد ألقى القبض على چون ديكنز بسبب الديون وأرسل إلى مارشالسى ، وهناك لحقت به زوجته مع أطفالها بعد أن رهنت القليل الذى يمكن رهنه . وكان سجنا مارشالسى وفليت هما سجنى الديون فى لندن . كانا قذرين غير صحيين ومزدحمين ، فلم يكن يشغلهما المسجونون فحسب ، بل والعائلات التى قد يصطحبها المسجونون معهم إذا أرادوا ذلك ، لكننى لا أعرف ما إذا كانوا يسمحون بذلك للتخفيف من قسوة الحياة فى السجن ، أم لأن هذه المخلوقات التعسة لم تكن تجد مكاناً آخر تأوى إليه . وإذا كان لدى المدين مال ، فإن أسوأ ما يتعرض له من متاعب ، هو أن يفقد حريته ، ويمكن فى بعض الحالات تخفيف هذه الخسارة : إذ كانوا يسمحون لبعض المسجونين تحت شروط معينة من الرقابة بأن يظلوا خارج أسوار السجن . والويل له إذا كان مفلساً . وقد يهم القراء الأمريكيين أن يعرفوا أن جنرال أوجلثورب كان أول من بذل مجهوداً لتحسين الأحوال القاسية التى وجدها تسود السجن . ويبدو أن أحد أصدقائه سُجن ، ولم يكن لديه المال لدفع الكفالة فأودعوه فى منزل تفشى فيه مرض الجدرى ، فمرض به ومات . وقد نجح الجنرال أوجلثورب فى التأثير على البرلمان لتقديم استجواب . كشف عن أن الحراس اعتادوا القيام بتعذيب المسجونين وغالباً ما عاملوهم بقسوة وحشية . وقد تم القضاء على أبشع التصرفات ، وفى الوقت الذى

ذهب فيه چون ديكنز إلى السجن، استطاع أن يجعل من السجن مكاناً مريحاً له . وأحضرت مسز ديكنز خادمة صغيرة معها ؛ كانت تعيش خارج السجن ولكنها تحضر كل يوم لمعاونة الأطفال وإعداد وجبات الطعام للعائلة ، وكان چون ديكنز لا يزال يحصل على مرتبه وقدره ستة جنيهات فى الأسبوع ، ولكنه لم يحاول أن يسدد ديونه ، ونستطيع أن نفترض أنه لم يكن يهتم بأن يطلق سراحه ما دام بعيداً عن باقى الدائنين . وقد احتار كتاب سيرته فى تفسير كيفية استمرار تقاضيه راتبه فى هذه الظروف . ويبدو أن التفسير الوحيد لذلك هو أن موظفى الحكومة كانوا يعينون من قبل أصحاب النفوذ مما يجعل مثل هذا الحادث وهو السجن بسبب الدين أمراً لا تصل خطورته إلى حد يستدعى إجراءاً قاسياً مثل قطع المرتب ، وربما كان هناك أيضاً قسم آخر غير القسم الذى كان يعمل فيه چون ديكنز هو الذى كان يدفع المرتب ، وأن هذا القسم لم يكتشف أبداً أنه لم يكن يقوم بالعمل الذى يستحق عنه هذا المرتب .

وكان تشارلز يقيم فى كامدن تاون عندما سجن أبوه ، ولما كانت هذه المنطقة بعيدة عن مصنع الصباغة الذى يقع فى هنجفور ستيرز فى تشارنج كروس ، فقد انتقل إلى ساوثورك ، وبذلك أصبح فى إمكانه أن يتناول إفطاره وعشاءه مع العائلة فى مارشالسى ، ولم يكن العمل شاقاً ، فهو عبارة عن غسل الزجاجات ووضع البطاقات عليها واختبارها . وفى المساء يتجول فى أنحاء لندن، يتخذ طريقه إلى الأماكن الغريبة والغامضة حول التيمز ، وبذلك تشبع لاشعورياً بإحساس رومانسية هذه المدينة العظيمة ، وهو الإحساس الذى لم يفقده أبداً بعد ذلك . وفى أبريل عام ١٨٢٤ ماتت مسز وليام ديكنز مدبرة منزل كرو العجوز ، وتركت مدخراتها القليلة لابنها ؛ وسدد شقيق چون ديكنز ديونه واستعاد حريته واستقر بعائلته فى كامدن تاون مرة أخرى ، وعاد للعمل فى مكتب رواتب البحرية . واستمر تشارلز لفترة يغسل الزجاجات فى المصنع ، ولكنه فصل بناء على مكاتبة أرسلها چون ديكنز إلى چيمس لامرت ، وعاد إلى البيت « ينتابه إحساس بالارتياح ، بلغ من عظمه أنه بات يشبه الإحساس بالعذاب . كما كتب بعد ذلك بسنوات عديدة : وحاولت أمه أن تهون عليه الأمر حتى يعود إلى وظيفته ، وإلى الشلنات الستة التى يتقاضاها أسبوعياً ،

وهو ما كانت فى حاجة إليه بدون شك ، ومن أجل هذا لم يصفح عنها أبداً .
وقال « إننى لم أنس على الإطلاق ولن أنسى أبداً ، ولا يمكن أن أنسى أن فكرة عودتى للعمل كانت تثلج صدر أمى » غير أن چون ديكنز لم يصغ إلى هذا وأرسل ابنه إلى المدرسة .

ومن الصعب أن نعرف كم أمضى الصبى فى مصنع الصباغة : فقد ذهب إليه مبكراً فى فبراير عام ١٨٢٤ وعاد مع أسرته فى يونيو . لذا يبدو من ظاهر الأمر أنه لم يمكث فى المصنع أكثر من أربعة أشهر ، وقد كتبت السيدة أونابوب — هنسى فى كتابها الممتاز عن تشارلز ديكنز أنه لم يمكث هناك أكثر من ستة أسابيع . وعلى أى حال فقد تركت فيه هذه الفترة أثراً عميقاً ، ورأى فى هذه التجربة إذلالا له . بحيث لم يكن يحتمل الحديث عنها . وعندما أشار إليها چون فورستر الذى كتب سيرة حياته تلميحاً ، أخبره ديكنز أنه أشار إلى أمر مؤلم للغاية « لدرجة أنه حتى فى الساعة الحاضرة » — وكان ذلك بعد مضى خمسة وعشرين عاماً — « لا يستطيع أن يهرب من ذكراها طالما لم تخنه الذاكرة » .

وقد اعتدنا تماماً أن نسمع سياسيين مبرزين أو أقطاباً فى الصناعة يفاخرون بأنهم كانوا فى شبابهم يغسلون الأطباق أو يبيعون الجرائد بحيث يصعب علينا أن نفهم ، لماذا يدفع تشارلز ديكنز بنفسه إلى الاعتقاد بأنه كان ظلماً شديداً من والديه أن يرسلاه إلى مصنع الصباغة وسر مخجل يجب كتمانه . وقد كان صبياً مرحاً شقياً خفيف الحركة . وقد يبدو أنه يعرف طرفاً من الجانب السيئ من الحياة ، وكان والداه من أصل متواضع وقد شاهد منذ طفولته المبكرة كيف أدى إسراف والديه إلى وقوع الأسرة فى ضائقة . وفى كامدن تاون كان عليه أن يكنس وينظف ، وكانوا يرسلونه لرهن الأدوات لشراء طعام العشاء ، ولابد أنه قد لعب مع أقرانه فى الشوارع مثل أى صبى آخر . ومن العسير أن نفهم لماذا يعتبر مشاركته للصبيان الآخرين الذين يعملون معه فى المصنع أمراً مهيناً . إن الصبى فى هذه السن لايعى الكثير عن الفروق الاجتماعية . وظنى الخاص أنه لم يعان بالصورة التى صورها لنفسه فيما بعد عندما بات مشهوراً أو محترفا وشخصاً اجتماعياً ومعروفاً . كان يعيش فى عصر كانت فيه « مهنة الخدمة » تحط من الكرامة ، وكثيراً ما اتهم بالسوقية وعدم الحساسية بالنسبة

لأسلافه . كانت فترة يعتبر فيها الجنتلمان من مخلوقات الله المختارة .

وبينما كان چون ديكنز لا يزال فى مارشالسى بلغ من جرأته أن التمس من رئيس القسم الذى عمل فيه ليوصى بمنحه معاشاً لسوء حالته الصحية . وفى النهاية ونظراً لخدمته التى استغرقت عشرين عاماً ، ومن أجل أولاده الستة منح معاشا على «أساس الرأفة» ويقدر بمائة وخمسة وأربعين جنيهاً فى العام . وقد كان هذا المبلغ لايكفى لإعالة أسرة مما حتم عليه أن يجد مورداً آخر لزيادة دخله . وكان قد ألم بالاختزال ربما فى السجن ، كما تقول السيدة أونا وبمساعدة شقيق زوجته الذى كانت له صلات بالصحافة استطاع أن يحصل على وظيفة محرر برلمانى . وظل تشارلز فى المدرسة حتى بلغ الخامسة عشرة عندما اشتغل لدى أحد مكاتب المحامين كصبى يقوم بمختلف (المشاوير). وظل على هذه الحال لأسابيع قلائل استطاع والده بعدها أن يدبر له وظيفة كاتب فى مكتب آخر لقاء أجر خمسة عشر شلناً فى الأسبوع . وفى أوقات فراغه تعلم الاختزال وأصبح بعد ثمانية عشر شهراً كفؤا لأن يشغل وظيفة صحفى فى مجلس الأطباء . وما إن بلغ العشرين حتى تقدم لوظيفة محرر برلمانى ، والتحق بوظيفة فى إحدى الصحف لنقل الخطب التى تلقى فى مجلس العموم . واشتهر بأنه أسرع وأدق رجل فى المكان .

وأثناء ذلك وقع فى حب ماريا بيدنل ، ابنة مدير لأحد البنوك ، كانت فتاة شابة لعوباً ، ويبدو أنها شجعته . وربما كانت هناك خطبة سرية بينهما ، غير أنها لم تكن لتأخذها مأخذ الجد لوكان هناك فعلا أى خطبة . وأطربها وسرها أن يكون لها عشيق ، ولكن تشارلز كان مفلساً ، ولم تكن تنوى مطلقاً الزواج منه . وما إن مضت سنتان حتى انتهت العلاقة ، وبطريقة رومانسية تماماً أعاد كل منهما هدايا الآخر ، وظن تشارلز أن قلبه سوف ينفطر . وبعد أن كتب رواية ديڤيد كوبرفيلد التى ظهرت فيها فى شخصية دورا ، سألته ذات مرة إحدى الصديقات عما إذا كان قد أحبها حقاً فأجاب « ما أكثر ما أكثر ما أحببتها ، لاتوجد امرأة فى العالم تستطيع أن تدرك إلى أى حد أحببتها ، وقليل من الرجال من يدرك ذلك » . ولم يتقابلا مرة أخرى إلا بعد سنوات عديدة عندما تناولت العشاء — وكانت متزوجة منذ مدة طويلة — مع مستر ديكنز الشهير وزوجته . لقد غدت

سمينة ، غبية . وأصبحت نموذجاً لشخصية فلورا فينشنج فى رواية « دوريت الصغيرة » .

فى سن الثانية والعشرين كان تشارلز ديكنز يتكسب خمسة جنيهات فى الأسبوع . ولكى يكون قريباً من مكتب عمله فى الصحيفة ، استأجر مسكناً فى أحد الشوارع القذرة المتفرعة من ستراند، ولكنه وجد السكن غير مريح ، فاستأجر بعض حجرات غير مفروشة فى فندق فورنيفال . غير أنه قبل أن يتمكن من فرشها قبض على والده من جديد بسبب الاستدانة ، وبات لزاماً عليه أن يمده بالمال – لكى ينفق عليه أثناء إقامته فى الحجز – ولما كان سيبقى معتقلا لبعض الوقت . فقد استأجر تشارلز سكناً رخيصاً للعائلة ، وعسكر هو وأخوه فردريك ، الذى كان مسئولا عنه ، فى مكان متواضع بفندق فورنيفال . ونظراً لأنه كان سليم الطوية وسخيا ، ويبدو أنه كان قادراً على علاج مثل هذه المشاكل بسهولة . أصبح من عادة أسرته ، ثم أسرة زوجته من بعد، أن يتوقعوا منه أن يجد المال والوظائف لأية مجموعة معوزة من الناس * .

وبعد عام أو نحوه فى اشتغاله برواق مجلس العموم ، بدأ ديكنز يكتب صوراً للحياة فى لندن ، ونشرت الأولى منها فى « مونثلى مجازين » وما تلاها فى «مورننج كرونيكل» ولم يتقاض أجراً عنها ، ولكنها لفتت إليه الأنظار ، فلقد شاعت فى ذلك الحين الروايات التى تحكى الحوادث على لسان شخصية فكاهية ، والتى كانت تنشر على أجزاء شهرية مصورة بصور هزلية لقاء شلن واحد ، وكان الناشرون يتعاقدون مع الكتاب المشهورين لإمداد المطبعة بها . كانت هذه الروايات هى البذور الأولى للهزليات التى نعرفها فى أيامنا ، وكان لها نفس الشيوع الكبير . وذات يوم زاره أحد الشركاء فى شركة «تشابمان وهول » يطلب منه أن يكتب قصة عن أحد نوادى الرياضيين الهواة لكى يستخدمها مع الرسوم التوضيحية لأحد الفنانين المشهورين . وعرض عليه أربعة عشر جنيها فى الشهر ونسبة إضافية على النسخ المباعة ، واعترض ديكنز لأنه لايعرف شيئاً عن الرياضة ولا يعتقد أنه يستطيع الكتابة تبعاً للطلب ، ولكن العرض كان مغريا لدرجة يتعذر معها مقاومته . ولست بحاجة إلى أن أقول إن النتيجة تمثلت فى « أوراق نادى بكويك الراحل » ولم يكن من الممكن أن تظهر رائعة أخرى

* أونا بوب – هنسى تشارلز ديكنز

غيرهافى مثل هذه الظروف . ولم تلق الأعداد الخمسة الأولى نجاحاً كبيراً، ولكن بظهور سام ويلر قفز رقم التوزيع . وعندما ظهر هذا العمل فى شكل كتاب ، كان تشارلز ديكنز الذى كان حينذاك فى الخامسة والعشرين قد أصبح مشهوراً . وبالرغم من تحفظ النقاد، أصبحت شهرته حقيقة واقعة . وجدير بالذكر أن مجلة « كوارترلى ريڤيو » قالت وهى بمعرض الحديث عنه « لم يكن الأمر بحاجة إلى موهبة التنبؤ لتحديد مصيره . لقد ارتفع ارتفاع الصاروخ وسيهبط هبوط عصاة »ولكن الواقع أنه فى خلال حياته العملية بينما كان الجمهور يلتهم مؤلفاته كان النقاديندددون بها وينتقدونها ، وهنا تتمثل ضحالة النقد المعاصر .

وقبل ظهور أول عدد من « أوراق بكويك » بيومين ، وكان ذلك فى عام ١٨٣٦ تزوج تشارلز ديكنز من « كيت » . وهى الابنة الكبرى لجورج أحد زملائه فى زيارة الجريدة التى كان يعمل بها حينذاك . وكان چورچ هو جارث أباً لستة أولاد وثمانى بنات . كانت البنات صغيرات ، ممتلئات ، ناضرات ، زرقاوات العيون. وكانت كيت هى الوحيدة من بينهن التى يؤهلها سنها للزواج. ويبدو أن هذا كان سبب اختياره لها دون غيرها من الشقيقات للزواج . وبعد قضاء فترة قصيرةمن شهر العسل استقرا فى فندق فورنيڤال . . ودعيا أخت كيت الجميلة مارى هوجارث وكانت فى السادسة عشرة من عمرها لتعيش معها . وارتبط تشارلز بها، ولما وجدت كيت نفسها وقد أصبحت حاملا، الأمر الذى يقعدها عن مرافقته، أصبحت مارى رفيقاً دائما له. وقد وقع عقداً لكتابة رواية أخرى «أوليڤرتوسيت» ، وبدأ فيها وهو لايزال يكتب فى أوراق بكويك وكانت الخطة تقضى بأن تظهر هذه الرواية فى أعداد شهرية ، وكان يخصص لهذه أسبوعين ولتلك أسبوعين آخرين . إن معظم الروائيين يندمجون عامة فى الشخصيات التى تشغل بالهم فى لحظة معينة حتى إنهم ليدفعون بما قد تجمع فى عقولهم من أفكار أدبية أخرى إلى عقولهم الباطنة ، أما أن ينتقل ديكنز بسهولة واضحة من قصة إلى أخرى فهذه مهارة خارقة للعادة .

وولدت كيت طفلا ، ولما كان متوقعاً أن تنجب المزيد ، انتقلوا من فندق فورنيڤال إلى منزل بشارع دوتى . وأخذت مارى تزداد روعة وسحراً يوماً بعد يوم . وفى إحدى أمسيات شهر مايو أخذ ديكنز كلا من كيت ومارى لمشاهدة مسرحية ،

وقضوا وقتاً طيباً وعادوا إلى البيت وهم فى نشوة .وفجأة مرضت مارى ، وأرسل فى طلب أحد الأطباء . وبعد ساعات قلائل كانت قد فارقت الحياة ، وخلع ديكنز الخاتم من أصبعها ووضعه فى أصبعه وظل فى إصبعه إلى أن مات . وهدّه الحزن ولم تمض مدة طويلة حتى كتب فى يومياته : « لو قدر لها أن تكون معنا الآن ، ذلك الرفيق الجذاب السعيد ، المحبوب الذى يتعاطف مع كل أفكارى وأحاسيسى أكثر من أى شخص آخر عرفته على الإطلاق أو سأعرفه ، فإننى أعتقد أننى لن أتمنى لحظتها أى شىء سوى أن تستمر مثل هذه السعادة . ولكنها راحت ، وإننى أطلب من الله أن يشملنى برحمته فيلحقنى بها يوماً من الأيام » . وقد رتب الأمر على أن يدفن بجوارها .

وتسببت الصدمة التى أحدثها موت مارى فى إجهاض كيت ، وعندما تحسنت حالتها أخذها تشارلز معه فى رحلة قصيرة إلى الخارج عسى أن يجددا من روحهما المعنوية . وما إن حل الصيف حتى بدا أنه قد جدد روحه بدرجة جعلته يشرع فى فى علاقة صاخبة مع امرأة تدعى إليانور .

إن حياة الأديب الذى أحرز النجاح ليست مشوقة بالضرورة . فهى تسير على نسق واحد ، إن مهنته تلزمه بتخصيص عدد معين من ساعات النهار لعمله ، وهو يكتشف نظاماً ثابتاً يناسبه . وهو يتصل بالقوم المشهورين فى عصره من أدباء ، وفنانين وأشخاص مهذبين ، كما أن كرائم العقيلات يطاردنه ، وهو يقصد الحفلات ويقيمها ، كما يسافر ويظهر أمام الجمهور. هذه هى الخطوط العريضة لحياة ديكنز. وقد تمتع بنجاح لم يتمتع به إلا القليل من الكتاب. وكان المسرح يفتنه دائماً ، ولقد فكر فى وقت ما أن يعتلى خشبته ، وقد حفظ أجزاء عن ظهر قلب ، وتلقى دروساً فى الإلقاء على يد ممثل ، وتدرب أمام المرآة كيف يدخل الحجرة ، ويجلس على كرسى وكيف ينحنى . وأفادته كل هذه الأشياء عندما أخذ يغشى المجتمعات ، ورأى المنتقدون له ، أنه سوقى نوعاً ما ، وأن ذوقه فى الملابس يميل إلى ما هو زاه ، ولكنه كان جذاباً بنظراته ، وبريق عينيه ، ومرحه وضحكته المرحة الحية . وبهره التعلق الذى أحاط به ، لكن هذا لم يسكره فقد ظل متواضعاً .

ومن الغريب حقاً أنه بالرغم مما له من قوة ملاحظة هائلة ، وبالرغم من أنه ألف بمرور الوقت أولئك الأشخاص ذوى المراتب العالية فى المجتمع ، فإنه لم ينجح

مطلقاً فى أن يجعل هذه الشخصيات فى رواياته تبدو معقولة . كما أن شخصيات القساوسة والأطباء لم تكن حية حياة المحامين وكتبة المحامين الذين عرفهم فى أحد المكاتب أو عندما كان مراسلا عن هيئة الأطباء، أوبين التعساء الذين أنفق معهم صباه ، ويبدو أن الروائى لا يستطيع أن يعرف عن كثب شخصيات يستخدمها بنجاح كنماذج لمخلوقات من خلقه ، إلا الأشخاص الذين ارتبط بهم فى سن مبكرة . إن عاماً واحداً فى حياة طفل وعاماً واحداً فى حياة صبى لأطول بكثير جداً من عام فى حياة الرجل المكتمل ، وهكذا ينطبع بما يجعله واعياً بغرائز الناس الذين يشكلون بيئته ، إنه يتعرف عليهم من الداخل ، بينما لا يعرفهم فيما بعد إلا من الخارج فقط ، وبذلك يفلت منه ما يجعله قادراً على أن يخلق منهم شخصيات حية . إن من عيوب النجاح أنه قد ينقل الكاتب إلى عالم غير عالمه ، عالم لا يمكن أن يعرفه مثل أولئك الذين ولدوا وعاشوا فيه ، ويفصله عن عالمه الخاص ، ومن ثم يحرمه المنبع الحقيقى للإلهام . وكان ديكنز محظوظاً إذ استطاع ، لما تجمع لديه من خبرة فى سنوات حياته الأولى ، أن ينتقى دوماً من الرجال والنساء الذين قابلهم فى الحياة فيما بعد شخصيات استغلها أدبياً بطريقته المميزة .

كان يعمل بجد ، وظل لسنوات عديدة يبدأ فى كتابة رواية جديدة قبل أن ينتهى من كتابة الرواية القديمة بوقت طويل ، وكان يكتب من أجل الإمتاع ، وظل يتابع عن كثب مدى استجابة الجماهير للأعداد الشهرية التى ظهرت فيها معظم رواياته ، ومن الطريف أن نفهم أنه لم يكن لديه أية نية لإرسال «مارتن تشازلويت» إلى أمريكا إلى أن هبطت المبيعات دليلا على أن الأعداد لم تعد جذابة . ولم يكن من طراز المؤلفين الذين ينظرون إلى ذيوع مؤلفاتهم بين الشعب على أنه شئ مخجل . وجدير بالذكر أن المجهود الذى استلزمه إنتاجه الكبير لم يستنفد طاقته ، فقد أسس وحرر ثلاث مجلات أسبوعية طوال حياته . غير أن حماسه للهو لم يكن يقل عن حماسه للعمل ، ولم يكن يبالى بالسير عشرين ميلا فى اليوم ، وركب الخيل ، ورقص وقام بدور المهرج بكل حماس ، وكان يؤدى كثيراً من الألعاب السحرية لتسلية أطفاله ومثّل فى مسارح الهواة ، وواظب على حضور المآدب وألقى المحاضرات ، وكان ينفق عن بذخ فى إقامة الحفلات .

وبمجرد أن سمحت الظروف انتقلت عائلة ديكنز إلى منزل جديد فى حى قريب عصرى ، واشتروا من محال مشهورة جهازاً كاملا لحجرات الاستقبال والنوم . وفرشوا سجاجيد سميكة على الأرض ، وزينوا النوافذ بالستائر المطرزة . كما ألحقوا بخدمتهم طاهياً ماهراً وثلاث خادمات ، وخادما ، وجهزوا عربة وأقاموا مآدب العشاء التى دعت إليها النبلاء وعلية القوم . لقد صعق هذا الإسراف زوجة توماس كارليل إلى حدما ، وكتب لورد چيفرى لصديقه لورد كوكبرن يقول إنه تناول العشاء فى المنزل الجديد ، « وهو عشاء فاخر أكثر من اللازم بالنسبة لرجل له عائلة ، وفى بداية عهده بالثراء » . وكان هذا يكلفه كثيراً ، غير أنه إلى جانب ذلك كانت هناك مصاريف أخرى . فأبوه وعائلة أبيه الذين كان يعولهم جميعاً ظلوا يستنزفونه . ومن بين الأشياء التى أحرج بها المتأنق العجوز ابنه المشهور أنه اقترض مالا اعتماداً على نجاحه وباع دفتر الإمضاءات ، وصفحات من مخطوطاته . وقرر ديكنز أخيراً أنه لن يجد الطمأنينة إلا إذا نقل العائلة بأكملها بعيداً عن لندن . وكم كان مبلغ امتعاضهم عندما استأجر لهم منزلا فى الفينجتون بالقرب من اكستر وتركهم يقيمون هناك . وكانت أحد الأسباب التى دفعته لتأسيس أولى مجلاته وهى مجلة « ماستر همفريز كلوك» أن يوفى بنفقاته الباهظة ، ونشر فيها «متجر الغرائب العتيق » لكى يضاعف من توزيعها ، وصادفت نجاحاً هائلا . وقد تأثر بها جداً كل من ديڤيد أوكنل وسارا كولريدج ، ولورد چيفرى وكارليل ، لأنها تمس شغاف القلوب وتحرك العواطف . وتجمعت الجماهير فى ميناء نيويورك تصيح وهى تستقبل إحدى السفن الداخلة « هل ماتت « نيل » الصغيرة ؟ » .

•

وفى عام ١٨٤٢ ذهب ديكنز وزوجته إلى أمريكا بعد أن تركا أطفالهما الأربعة فى رعاية جورجينا هوجارث أخت كيت . وسلطت الأضواء على تشارلز ديكنز كما لم تسلط على مؤلف من قبله أو من بعده . ولكن الرحلة لم تكن ناجحة تماماً . ومع أن شعب الولايات المتحدة كان منذ مائة عام على استعداد لتحقير كل ماهو أوربى ، إلا أنه كان شديد الحساسية إزاء أى نقد يرجه له ، وكانت الصحافة فى الولايات المتحدة منذ مائة عام تقتحم فى قسوة ، عزلة وسر الشخص المنحوس الطالع ، وتجعل من قصته خبراً ، ومنذ مائة عام كان الساعون وراء

« الخبر » ينظرون إلى الأجنبي المرموق على أنه فرصة أتاحها الله لهم . وكانوا يعتبرونه مغروراً إذا أبدى اعتراضاً على معاملته كقرد فى حديقة الحيوان . ومنذ مائة عام كان الكلام يقال بحرية فى الولايات المتحدة طالما أنه لا يثير الإحساس أو يضر بمصالح الآخرين . وكان من حق أى شخص أن يعتنق آراءه الخاصة طالما أنها تتفق مع الآخرين . كل ذلك كان يجهله ديكنز ، وارتكب أخطاء كثيرة . ونظراً لأن حقوق النشر لم تكن عالمية ، فإن المؤلفين الإنجليز حرموا من الربح عند بيع كتبهم فى الولايات المتحدة (قال واشنطن إرفنج إن من العدل أن يسمح للذين يحملون أكاليل الغار على جباههم أن يتغذوا على هذه الأكاليل) ، يضاف إلى هذا أن الكتب الإنجليزية أساءت إلى المؤلفين الأمريكيين إساءة بالغة . فقد كان طبيعياً أن يفضل الناشرون نشر المؤلفات الإنجليزية بلا مقابل على نشر كتب لمؤلفين أمريكيين يضطرون إلى دفع أجرها ، ولكن ليس من شك فى أن ديكنز لم يكن حصيفاً إذ أقحم هذا الموضوع فى الخطب التى كان يلقيها فى المآدب التى أقيمت له عند وصوله . وقد كان رد الفعل عنيفاً ووصفته الصحف بأنه « ليس مهذباً بل هو وغد مأجور » ، وبالرغم من احتشاد المعجبين حوله ، وبالرغم من أنه ظل لمدة ساعتين فى فيلادلفيا يصافح الجماهير التى أرادت أن تستقبل الرجل العظيم ، وبالرغم من أن هواة التذكارات مزقوا قطعاً من فراء معطفه الجديد ، إلا أن نجاحه الشخصى لم يكن كاملا : صحيح أن كثيراً من الناس قد سحرهم شبابه ومظهره وخفة روحه ، ولكن كثيرين أيضاً اعتبروه مخنثاً ، فملبسه وخواتمه ودبابيسه الماسية ، كل ذلك بدا لهم مبتذلا ، كما وجدوا سلوكه يفتقر إلى التهذيب . ومع ذلك استطاع أن يكسب أصدقاء طيبين ظلت تربطه بهم علاقة حب ومودة حتى مماته .

وعادت أسرة ديكنز إلى إنجلترا بعد أربعة أشهر مليئة بالحوادث والوقائع ، ولكنها مضنية . لقد تعلق الأطفال بعمتهم چورچينا . ولذلك طلب منها المسافرون المنهكون أن تعيش معهم . وكانت حينئذ فى السادسة عشرة من عمرها وهى سن مارى عندما ذهبت إلى فندق ڤورنيڤال لتقيم فيه ، وقد بلغ من تشابههما أن الناظر إليها من بعيد كان يخطئها . وكانت كيت ديكنز فى انتظار مولود آخر . وكانت

چورچي هوجارث جميلة – وجذابة وغير متكلفة . وقد وهبت القدرة على التقليد لدرجة أنها كانت تجعل ديكنز ينفجر ضاحكاً . وبعد فترة وجيزة ، وكان ديكنز يفكر دائماً فى مارى ، وكأنها جزء منه كما لوكانت نبض قلبه ، بدأ ديكنز يرى روح مارى تشع فى چورچينا . وبدأ الماضى يعود « حتى أصبح من العسير أن ينفصل الماضى عن الحاضر »

لقد ظل ديكنز فقيراً لمدة طويلة جداً، لدرجة أنه رحب بالعيش المنعم عندما أصبح قادراً على ذلك ونتج عن هذا أن وجد نفسه وقد وقع فى الديون بشكل مزعج ، وقرر أن يؤجر منزله ، ويذهب لإيطاليا توفيراً للنفقات ، وقضى هناك عاماً معظمه فى چنوا وشاهد الكثير فى شبه الجزيرة . ولكنه كان جد محصور ، غير واسع الاطلاع ، وبذا لم يكن للتجربة أى أثر روحى فى نفسه . وظل نموذجاً للسائح الإنجليزى . ومن جهة أخرى نشأت بينه وبين مسز دى لارو صداقة . وهى زوجة لأحد رجال البنوك السويسريين وكان يعيش فى چنوا . وكانت فيما يبدو تعانى من الوساوس . وكان ديكنز الذى شغف بالتنويم المغناطيسى يعتقد أنه يستطيع شفاءها . وكان الاثنان يلتقيان مرة ، وفى بعض الأحيان مرتين فى اليوم لكى يتابع العلاج . وضايق هذا كيت للغاية ، وكان آل دى لارو يتنزهون مع آل ديكنز فى كل مكان يذهبون إليه ، وجاءت خدمات تشارلز بالأثر المطلوب وشفيت مسز دى لارو . غير أن كيت استراحت عندما عادوا إلى إنجلترا .

كانت هادئة الطبع وحزينة ، ولم تكن لتتكيف أو تتأقلم ، ولم تكن تروقها الرحلات التى صحبها فيها تشارلز ، وكذلك المآدب التى كان يصحبها إليها أو التى كانت تقوم فيها بدور المضيفة .وكانت سطحية ، ويبدو أنها كانت غبية ، وأغلب الظن أن الشخصيات الكبيرة المهمة التى كانت حريصة على التمتع بصحبة الكاتب الشهير كان يضايقها اضطرارها إلى احتمال زوجته المملة . وكان بعضهم يعاملها وكأن لاوجود لها ، الأمر الذى ضايقها . والواقع أنه ليس من السهل أن تكون المرأة زوجة لرجل مرموق . إذ لن تستطيع فى أغلب الأحيان أن تقوم بدورها خير قيام ما لم تكن لبقة أو مرحة . ولما كان هذا ينقصها (وليس هناك ما يدل على أنها كانت تنعم بإحدى الصفتين) فإنه يتعين عليها أن تحب زوجها . لكن يبدو أن كيت لم تحب ديكنز قط . وهناك خطاب كان قد كتبه إليها خلال فترة

خطبته وفيه يعاتبها على فتورها . وقد يبدو أنها تزوجته لأن الزواج فى ذلك الوقت كان هو العمل الوحيد للمرأة ، أو ربما لأنها كانت أكبر الثمانى بنات . فضغط عليها والدها لقبول الزواج كضمان لمستقبلها. كانت عطوفة ، وكريمة ، ورقيقة ، ولكنها غير قادرة على تلبية المطالب التى فرضتها عليها منزلة زوجها الرفيعة .

فى تلك الآونة كانت هناك چورچى لتحل محل مارى ، و بمضى الوقت أصبح ديكنز يعتمد عليها أكثر وأكثر . كانا يسيران معاً لمسافات طوال ، وكان يناقش معها مشروعاته الأدبية وكانت له بمثابة السكرتيرة . ولما كان ديكنز قد تعلم مرة أن السفر إلى الخارج ممتع (واقتصادى) فقد شرع يقضى فترات طويلة فى القارة . وذهبت معهم چورچى باعتبارها من الأسرة إلى إيطاليا ثم فيما بعد إلى لوزان وبولونيا وباريس . وذات مرة عندما عزموا على الاستقرار فى باريس لمدة طويلة ، ذهبت مع تشارلز بمفردها للبحث عن شقة ، بينما انتظرت كيت فى إنجلترا إلى أن يصبح كل شيء معداً لها ، وبينما كانت كيت فى شهور الحمل ، كانت چورچى ترافق ديكنز فى النزهات التى كان مغرما بها ، كما كانت تذهب إلى الحفلات ، وكثيراً ما كانت ترأس مائدته بدلا من كيت . وقد يتوقع المرء أن تستاء كيت من هذا الموقف . ولكن يبدو أنها لم تفعل .

ومرت السنون . وفى عام ١٨٥٧ كان تشارلز ديكنز . قد بلغ الخامسة والأربعين. وكان أشهر مؤلف فى إنجلترا . كذلك اشتهر باعتباره مصلحاً اجتماعيا، وعاش فى أعين الناس ، وهو ما كانت تتطلع إليه غريزته المسرحية ، وكبر أطفاله ، ولكن وقع حادث لم يكن فى الحسبان . كان ديكنز شغوفاً بالتمثيل دائماً ، وقد سبق أن أعطيت له أكثر من مرة أدوار فى تمثيليات لفرق هاوية خيرية . وقد طلب منه فى ذلك الوقت أن يؤدى بعض الأدوار فى مانشستر فى مسرحية « الأعماق المتجمدة » التى كتبها ويلكى كولنز بمعونته ، والتى مثلت بنجاح عظيم أمام الملكة والأمير زوجها وملك بلچيكا . وأطلق ديكنز لحيته ليمثل دور أحد المكتشفين الذى يضحى بنفسه لكشف القطب . وهو دور لعبه ديكنز بكل متعة وبانفعال يحرك المشاعر بحيث لم تكن هناك عين لم تدمع فى الدار . ولكن عندما وافق على إعادة المسرحية فى مانشستر قرر أن تقوم بأدوار البنات ممثلات محترفات ، إذ ظن أن بناته وقد سبق

أن قمن من قبل بهذه الأدوار ، لن يستطعن إسماع أصواتهن فى هذه الدار الكبيرة . وكانت هناك امرأة شابة تدعى إلن ترنان ، اختيرت لتأدية أحد هذه الأدوار . وكان قد رآها قبل ذلك بشهور فى مسرحية تسمى اتلانتا وقد دخل عليها الحجرة التى ترتدى فيها الملابس فوجدها تبكى لأن الدور يقتضى منها أن تعرض جزءاً كبيراً من ساقها ، فسحره حياؤها .

كانت إلن ترنان فى الثامنة عشرة ، كانت صغيرة شقراء ، زرقاء العينين ، وكانت البروفات تجرى فى منزل ديكنز الذى كان يقوم بدور المخرج . وقد أثلج صدره إعجاب ألن به وتحمسها المثير لإرضائه ، وقبل أن تنتهى البروفات كان قد أحبها حباً عميقاً ، وقد أهداها سواراً ، ولكنه سلم إلى زوجته بطريق الخطأ ، وكان طبيعياً أن تثور ثائرة الزوجة ، ولكن يبدو أن تشارلز قد اتخذ موقف البرىء المظلوم ، وهو الموقف الذى يلجأ إليه كل زوج يقع فى مثل هذا المازق . وظهرت المسرحية ، وهز أداؤها المتفرجين .

لم تكن كيت قد منحته كل ما كان يتوقعه منها ، والآن وقد فتنته إلن ترنان ، ازداد ضيقاً بأخطاء زوجته ، وكتب يقول « إنها لطيفة ومطيعة ، ولكن ليس هناك فى هذا العالم ما يجعلها تفهمنى » وبدأ يفكر كيف أنها لم تكن فى وقت مامناسبة له . وأخبر چون فورستر « إن من الخطأ أن يتزوج المرء فى سن مبكرة جداً يضاف إلى هذا أن مرور السنين لايسهل الأمر » . لقد تطور هو ، بينما ظلت هى كما كانت عليه فى البداية . وكان ديكنز مقتنعاً تماماً بأنه ليس هناك ما يلوم نفسه عليه . إن الطريقة التى أكد بها لنفسه أنه كان أبا طيباً وأنه عمل كل ما فى وسعه لأطفاله ، تذكرنا بـ « بكسنيف» . وبالرغم من أنه لم يكن سعيداً جداً باضطراره لإعالة هذا العدد الكبير الذى بدا أنه اعتبر كيت وحدها مسئولة عنه إلا أنه كان يحب أطفاله عندما كانوا صغاراً . ولكن ما إن شبوا حتى فقد اهتمامه بهم ، وعند حلول السن المناسب كان يرسل معظم الفتيان إلى جهات نائية من العالم .

وخلال تلك الفترة كان متقلب المزاج ، قلقا ، عصبياً مع كل شخص إلا چورچى ، وانتهى آخر الأمر إلى أنه لم يعد يستطيع الحياة مع كيت ، ولكن

وضعه أمام الجمهور جعله يخشى الفضيحة التى قد يتسبب فيها حدوث انفصال علنى . وهذا الخوف من جانبه مفهوم . فقد ظل لعدة سنوات هو الداعية المؤثر للمدفأة والبيت ، وفعل ما لم يفعله أحد غيره ليجعل من « الكريسماس » مهرجاناً رمزيا يحتفل فيه بالفضائل العائلية ، وجمال الحياة الأسرية المتآلفة السعيدة . ومن ثم كانت هناك ثمة اقتراحات منها أن يكون لكيت جناحها الخاص المناسب بمعزل عن جناحه هو ، وأن تقوم بدور المضيفة فى مختلف الحفلات التى يقيمها وأن يظهر بها فى المجتمعات . أما الاقتراح الآخر فهو أن تظل مقيمة فى لندن ، بينما يقيم هو فى جادزهيل (منزل فى كنت كان قد اشتراه مؤخراً) وتقيم فى جادزهيل عندما يكون هو فى لندن . والاقتراح الثالث أن تقيم فى الخارج . وقد رفضت كل هذه العروض ، وأخيراً تقرر الانفصال التام . وأقامت كيت فى منزل صغير عند أطراف كامدن تاون ، وعاشت على دخل قدره سمائة جنيه فى السنة . وبعد فترة قصيرة أرسل إليها تشارلى أكبر أبناء ديكنز ليعيش معها .

إنه ترتيب يثير الدهشة ، وإن المرء ليعجب كيف سمحت كيت لنفسها أن تطرد من منزلها الخاص بها ، ولماذا وافقت على أن تترك وراءها أطفالها . لقد عرفت أن تشارلز مفتون بإلن ترنان ، وكان المفروض أن تلعب بهذه الورقة الرابحة التى فى يدها وتملى ما تشاء من شروط . ولما كانت وديعة ، وربما غنية أيضاً ، فإن التفسير الوحيد لاستكانة كيت ، يكمن فى إشارة ديكنز الغامضة إلى إصابة زوجته باضطراب عصبى « جعلها تعتقد أن ابتعادها عنه سيشفيها » . وقد فسر الناس هذا — ولا أدرى على أى أساس — على أنه إشارة لبقة إلى إغراق كيت فى احتساء الخمر ، فإذا كانت قد أصبحت سكيرة مدمنة ، فهذا يفسر لماذا كان يتعين على چورچى أن تدير البيت وأن تعنى بالأطفال ، ولماذا كان يجب أن يظل الأطفال بالبيت عندما تركته أمهم . وأن تكتب چورچى « إن عدم قدرة كيت المسكينة على العناية بالأطفال لم يكن خافياً على أحد » وربما كان الهدف من إرسال تشارلى إليها ليعيش معها هو الحد من إفراطها .

كان ديكنز قد اشتهر بغرامياته الخاصة لدرجة كبيرة مما أثار حوله الشائعات ، وظن كثير من أصدقائه أن سلوكه كان سيئاً ، وبذلك استثار عداوته المريرة .

وانتشرت الإشاعات الفاضحة فى الخارج لاعن إلن ترنان كما قد يتوقع المرء بل عن چورچى . وقد ثارت ثائرة ديكنز ، واعتقد أن مصدرها عائلة هوجارث ، وهى أسرة كيت وچورچى ، وأجبرهم – مهدداً بطرد كيت من منزلها دون « بنس » واحد – على التوقيع على بيان يعلنون فيه إيمانهم بعدم وجود ما يشين فى علاقته مع أخت زوجته . وترددت عائلة هوجارث أسبوعين قبل أن يوطنوا أنفسهم على الرضوخ لهذا التهديد . ولابد أنهم كانوا يعلمون أنه إذا نفذ تهديده فإن كيت تستطيع أن تلجأ إلى القانون ولديها ما يعضد موقفها . ولأنهم لم يجرؤوا على ترك الأمور تصل إلى هذا الحد ، فلا بد أن يكون هناك أخطاء وعيوب فى كيت لايريدون إفشاءها .

وچورچى هى اللغز المبهم فى القصة . ووصلت الشائعات إلى أبعاد جعلت ديكنز يحس بأن من واجبه أن يفسر للجمهور أمر الطلاق كما يراه هو . وفى خطاب نشر فى « نيويورك تربيون » ثم فى الصحف الإنجليزية بعد ذلك ، كتب چورچى يقول « أقسم بحياتى وشرفى أنه لايوجد على الأرض من هو أعف وأطهر » وكان يريد من وراء ذلك بالطبع أن ينكر وجود علاقة جنسية معها . ويحتمل جداً أن يكون صادقاً فى قوله . وقد يكون صحيحاً أن چورچى أحبته وكانت تغار من كيت لدرجة جعلتها تحذف كل عبارات المديح لها بعد ممات تشارلز حين نشرت مجموعة من خطاباته ، ولكن الموقف الذى اتخذته الكنيسة والدولة نحو الزواج من أخت لزوجة متوفية ، قد أسبغ عليه صفة الزواج غير الشرعى . وربما لم يدر بخلد چورچى مطلقاً أنه يمكن أن يكون بينها وبين الرجل الذى عاشت فى بيته خمس عشر سنة ، ما هو أكثر من التعلق والحب الذى قد تحس به أخت نحو أخيها ، وهو أمر مشروع بسبب رابطة الدم . وعلاوة على ذلك فإن تشارلز كان مفتوناً للغاية بإلن ترنان . وربما قنعت چورچى بأن تكون موضع سر رجل مشهور مثل ديكنز ، وأن تبسط عليه سيطرة كاملة. وأغرب ما فى القصة كلها أنها رحبت بإلن ترنان – فى جادزهيل – وأصبحت صديقة لها .

وتحت اسم تشارلز ترينجام ، استأجر ديكنز منزلا لإلن فى بكهام ، وكان الزوار إلى عهد ليس ببعيد يشاهدون الشجرة التى كان يحب ترينجام ، ذلك الرجل الأديب ،

الجلوس تحتها . وهنا عاشت حتى مات ، وهنا حملت له إبنا . ولم يكن من العسير الوصول من جادزهيل إلى بكهام . وقد كان ديكنز يقضى ليلتين وأحيانا ثلاثاً مع إلين. وفى إحدى المناسبات ذهبا إلى باريس معاً .

وكان ديكنز فى الوقت الذى وقع فيه الانفصال قد بدأ فى قراءة مؤلفاته للجمهور ومن أجل هذا سافر إلى جميع الجزر البريطانية ، وذهب إلى أمريكا مرة أخرى . وقد خدمته موهبته المسرحية، وكان نجاحه باهراً . ولكن المجهود الذى بذله والرحلات المستمرة أرهقته، وبدأ الناس يلاحظون أنه بالرغم من أنه لا يزال فى الأربعينات، إلا أنه كان يبدو كرجل عجوز ، ولكن هذه القراءات لم تكن نشاطه الوحيد : ففى خلال الاثنتى عشرة سنة . منذ انفصاله حتى مماته كتب ثلاث روايات طويلة ، وأدار مجلة تسمى « على مدار العام » كانت ناجحة للغاية ، وليس غريباً أن تتدهور صحته . وكان الأطباء قد نصحوه بأن يعتنى بنفسه ، ولكنه أصر على أن يقوم بجولة أخيرة بعد أن أسكره الترحيب الحار الذى قوبل به من الجمهور ، واشتد به المرض خلال هذه الرحلة مما اضطره إلى عدم إكمالها . وعاد إلى جادز هيل وشرع يكتب « لغز إدوين درود». لكن كان عليه أن يعوض متعهديه عن القراءات التى اضطر إلى قطعها ، ومن ثم عزم على تقديم اثنتى عشرة حلقة أخرى من القراءات فى لندن . كان ذلك فى يناير عام ١٨٧٠. كان المستمعون فى صالة سانت چيمس يؤلفون عدداً ضخما ، وكانوا فى بعض الأحيان يقفون وقفة رجل واحد، ويهللون عندما يدخل القاعة أو يخرج منها • وعند عودته إلى جادزهيل استأنف العمل فى إدوين درود . وفى أحد أيام يونيه لاحظت چورچى –التى كان يعيش معها آنزاك بمفرده– أثناء العشاء أنه مريض جداً . فقالت : « تعال وارقد » فأجاب : « نعم على الأرض » وكانت هذه آخر كلمات تفوه بها . وانزلق من بين ذراعيها وسقط على الأرض وأرسلت چورچى فى طلب ابنتيه اللتين كانتا فى لندن ، وفى اليوم التالى بعثت المرأة الذكية المنافسة كيتى ، وهى إحدى الابنتين، كى تعلن النبأ للزوجة . وعادت كيتى إلى جازد هيل مع إلن ترنان . ومات هو فى اليوم التالى : التاسع من يونيو عام ١٨٧٠ ودفن فى وستمنستر آبى .

• أونا بوب – هنسى : تشارلز ديكنز

فى هذه الصورة السريعة لحياة ديكنز لم أقل شيئاً عن اهتمامه الدائب الناجع بالإصلاح الاجتماعى ، ودفاعه عن الفقراء والمظلومين . لقد قصرت كلامى قدر المستطاع على حياته الخاصة . إذ بدا لى أن معرفة شيء ما عنها لابد وأن يدفع إلى مزيد من الاهتمام بقراءة الكتاب الذى أدعو القارئ إلى مطالعته . إن رواية « ديڤيد كوبرفيلد » هى فى معظمها سيرة ذاتية ، غير أن ديكنز إنما كان يكتب رواية لأسيرة ، وبالرغم من أنه أخذ الكثير من مادتها من حياته الخاصة ، إلا أنه أحسن استغلالها على هذا النحو لتفى بغرضه . أما بالنسبة للباقى فقد اعتمد على خياله الخصب . إن مستر ميكوبر ودورا شخصيتان مستمدتان كما سبق أن أشرت من أبيه وحبه الأول ماريا بيدنل ، أما آجنس فجزء منها مستمد من ذكرياته المثالية عن مارى هوجارث وجزء آخر عن أختها چورچى . كان ديڤيد كوبرفيلد قد أجبر على العمل وهو فى العاشرة من عمره ، وكان ذلك على يد زوج أمه الشرير ، كما حدث لتشارلز ديكنز على يد أبيه ، كذلك عانى بنفس الطريقة من « المهانة » لاضطراره إلى الاختلاط بصبية من سنه يعتبرهم غير متكافئين معه اجتماعياً .

ويروى ديڤيد كوبرفيلد قصة حياته بنفسه . وهذه طريقة كثيراً ما استخدمها الروائيون . ولها مزاياها وعيوبها . من مزاياها أنها تجبر المؤلف على أن يلتزم بخيط السرد ، ومن ثم لا يستطيع أن يخبرنا إلا بما شاهده هو بنفسه أو سمعه أو فعله . وقد خدمت هذه الطريقة ديكنز تماما لأن عقد روايته كانت خليقة بأن تتشابك وتختلط ، كما أن اهتمام القارئ فى بعض الأحيان يتحول إلى شخصيات وأحداث ليست بذات دلالة بالنسبة لمجرى القصة . وفى رواية ديڤيد كوبرفيلد ليس هناك سوى انحراف واحد كبير ، وهو وصف علاقات دكتور سترونج بزوجته وأمها وابن عم زوجته : فهى لاتخص ديڤيد كما أنها مملة فى ذاتها . كما أن لهذه الطريقة مزية أخرى وهى أنها تضفى على القصة طابع المطابقة للواقع ، وتجعلك تتعاطف مع الراوى . وقد توافقه أولا توافقه ، ولكنه يركز اهتمامك على نفسه ومن هنا يجبرك على التعاطف معه .

ولكن من عيوب هذه الطريقة أن الراوى وهو البطل فى نفس الوقت ، لايستطيع أن يخبرك أنه وسيم وجذاب إلا إذا كان غير متواضع ، وهو خليق بأن يبدو مغروراً

إذا حكى أعماله البطولية وغبياً إذا فشل فى رؤية ما هو واضح للقارئ ، وهو أن البطلة تحبه.
وهناك عيب أكبر ، وهو عيب لم يستطع أحد من المؤلفين لهذا النوع من الروايات أن يتغلب عليه تماماً ، ذلك أن البطل الراوى ، وهو الشخصية الرئيسية ، يحتمل أن يبدو باهتاً إذا ما قورن بالأشخاص المتصلين به. وقد سألت نفسى لماذا يجب أن يكون الأمر كذلك ، والتفسير الوحيد الذى أخمنه هو أن المؤلف البطل فى نفس الوقت يرى نفسه من الداخل ، بالطريقة الذاتية وهو عندما يروى لايجد إلا التخبط والضعف والتردد الذى يحس به فى نفسه ، بينما يرى الشخصيات الأخرى من الخارج رؤية موضوعية عبر خياله ، فإذا كان مؤلف له مالديكنز من مواهب خاصة ، فإنه يرى هذه الشخصيات فى حدة درامية وبإحساس من الدعابة لايخيب وبعين ترى عيوب هذه الشخصيات ، ومن هنا يجعلها تبرز فى حيوية ، بحيث تطغى على صورته هو نفسه.

وقد فعل ديكنز كل ما فى مقدوره لإثارة تعاطف القارئ مع بطله ، والواقع أنه فى رحلته المشهورة إلى دوفر ، عندما هرب ليلوذ بحمى عمته بتس تروتوود ، وهى شخصية تثير الإعجاب ، فإنه يلعب لعبته بطريقة مبالغ فيها بعض الشيء ، طريقة تدهشنا كيف أن الصبي الصغير يكون أبله إلى حد يجعل أى شخص يقابله يسرقه ويغشه . وأياً كان الأمر فقد ظل بالمصنع عدة شهور وتجول فى أنحاء لندن صباحاً ومساء ، وعاش مع آل ميكوبر ، ورهن لهم سقط متاعهم وقام بزيارتهم فى مارشالسى . وقد كنا نتصور أنه لو كان ولداً ذكياً كما ورد فى وصفه لاستطاع حتى فى هذه السن المبكرة أن يلم بعض الشيء بأمور العالم ، ويكتسب من الصلابة ما يكفل له الحماية . ولكنه يبدو طوال الرواية عاجزاً بطريقة تدعو للحزن . وهو يستمر فى ترك الآخرين يسرقونه ويخدعونه ، ولا يبدو أبداً أنه قادر على أن يجابه مشكلة ما . وضعفه إزاء دورا ، وافتقاره إلى الإدراك السليم فى معالجة المشاكل العادية للحياة العائلية ، هى فى الواقع أكثر من أن يحتمله المرء ، كما أنه خامد الذهن لدرجة أنه لايدرك أن آجنس تحبه ، ولا أستطيع أن أقنع نفسى بأنه قد أصبح فى النهاية الروائى الناجح كما وصفته الرواية . فاذا كان قد كتب روايات فإننى أظن أنها أشبه بروايات مسز هنرى وودمنها إلى روايات تشارلز ديكنز . ومن الغريب أن مبدعه لم يمنحه من ذات نفسه بما فيها من إيجابية وحيوية ومرح. كان ديفيد نحيلا جميل الطلعة

جذابا ، وإلا لما اكتسب محبة كل من التقى به تقريباً ، كان نزيهاً ، عطوفاً ، ذا ضمير حى ، ولكن من المؤكد أنه كان أبله بعض الشيء ، وظل أقل الشخصيات إثارة للاهتمام فى الكتاب .

ولكن هذا لايهم . فالرواية مليئة بشخصيات متنوعة إلى حد يثير الدهشة كما أنها على قدر هائل من الحيوية والأصالة . إنها ليست شخصيات واقعية ولكنها مع ذلك فياضة بالحياة . ليس هناك أشخاص مثل آل ميكوبر وبيجوتى وباركيس ، وترادلز وبتسى تروتوود ومستر ديك ، وأوريا هيب وأمه . إنها شخصيات من خلق خيال ديكنز المبدع ، ولكنها قوية للغاية منطقية مع نفسها . كما أنها تحظى من الواقعية بنصيب كبير ، ويصورها الكاتب بإيمان كبير لدرجة أنك تؤمن بوجودها . وهى شخصيات مبالغ فيها ، ولكنها ليست غير واقعية ، وما إن تعرفهم حتى يستحيل عليك أن تنساهم ، وأبرز هؤلاء مستر ميكوبر بالطبع ، إنه لايخيب أملك فيه أبداً ، وأرى أنهم لاموا ديكنز بغير وجه حق ، لأنه جعله فى النهاية قاضياً محترماً فى أستراليا ، فقد رأى بعض النقاد أنه كان ينبغى أن يظل طائشا وغافلا حتى آخر صفحة . لقد كانت أستراليا بلداً يعانى من قلة السكان ، وكان مستر ميكوبر رجلا جذاباً على شيء من العلم ومتحذلقاً فى حديثه ، لذا لا أستغرب فى ظل ظروف كهذه ، ومع وجود هذه المزايا ، أن يشغل هذا المنصب الرسمى ، ولست متحمساً مثلهم للاعتقاد بأنه كان ذكياً ولبقاً لدرجة تجعله يكتشف أن أوريا هيب شخص شرير .

لم يتردد ديكنز على الإطلاق فى استغلال عنصر المصادفة ، إذا كانت تتناسب مع القصة ، ولم يأبه كثيراً لعنصر الضرورة ، الذى يحاول به الروائى الحديث أن يجعل الحوادث ليست محتملة الوقوع فحسب ، بل حوادث لايمكن تجنبها بقدر الإمكان . وقد سلم القراء حينذاك بعدة حوادث أبعد ما تكون عن الاحتمال ، دون أن يهتزوا لذلك ، وفى ذلك تبدو قوة ديكنز ، وبفضل مهارته الفائقة فى سرد الرواية فإن المرء على استعداد لأن يسلم بها حتى يومنا هذا .

و « ديفيد كوبرفيلد » تزخر بهذه المصادفات . فعندما يعود ستيرفورت إلى إنجلترا ، وتتحطم سفينته على رمال يارموث ، فمنذا سوى ديفيد يذهب إلى هناك ،

وفى هذا الوقت بالذات ، لكى يرى بعض الأصدقاء ؟ لقد كان ديكنز ماهراً بالقدر الذى يستطيع أن يتجنب به غرابة وقوع مثل هذا الحدث إذا أراد ذلك . ولكنه لم يفعل، وقد أتاح له أن يصور مشهداً مؤثراً للغاية .

وبالرغم من أن رواية « ديفيد كوبرفيلد » تحوى قدراً من الحوادث الميلودرامية أقل مما اعتاد استخدامه فى رواياته ، فإن من الواجب أن نعترف أن بعض الشخصيات لها مذاق ما يسمى بالعاطفية الميلودرامية . مثال ذلك أوريا هيب، ولكن هذه الشخصية قد صورت بحيث تبدو قوية ومرعبة ، إلى درجة تدعو للإعجاب . وهناك شخصية أخرى أقل إبداعاً وهى خادم ستيرفورث ، فهى تتصف بالغموض والبشاعة بدرجة يرتجف لها المرءهلعاً . أما أكثر الشخصيات مدعاة لخيبة الأمل فهى شخصية روزا دارتل ، إذ ينظر إليها دائماً باعتبارها فشلا . وإنى لأعلم أن ديكنز كان يهدف إلى استخدامها على نحو أكبر مما فعل فى قصته ، وإنى لأشك (دون أن تكون لدى أية أدلة على ذلك) فى أنه إذا لم يكن قد فعل ذلك ، فإن السبب هو خشيته من إغضاب الجمهور . ولقد سألت نفسى عما إذا كان ستيرفورث لم يكن عشيقها ، وعما إذا لم يكن كرهها له ممزوجاً بحب جائع غيور . فليس هناك أى مبرر آخر لمعاملة إميلى الصغيرة (وهى شخصية مسرحية تحصل فى — رأيى — على كل ما تطلبه) بمثل هذه الغلظة .

وقد كتب ديكنز يقول : « إننى أحب هذه الرواية من دون كتبى جميعاً ، ومثل كثير من الآباء الذين يحبون أبناءهم ، فإن لدى طفلا أثيراً واسمه « ديفيد كوبر فيلد » . إن الكاتب ليس دائماً على صواب فى الحكم على أعماله ، ولكن حكم ديكنز فى هذه الحالة صائب . وقد اعتبرها كل من ماثيو أرنولد وراسكين أحسن رواياته ، وأعتقد أننا قد نوافقهما على ذلك . فإذا كان الأمر كذلك ، فنحن إذن مقدمون على صحبة طيبة وجميلة .

فيودور دستويفسكى

و

الإخوة كرامازوف

ولد فيودور دستويفسكى عام ١٨٢١ ، وكان والده الجراح بمستشفى «سانت مارى» فى موسكو من النبلاء ، الأمر الذى كان له أهميته عند الكاتب فيما يبدو ، فقد تألم لتجريده من رتبته عندما أدين . ولم يكد يخرج من السجن حتى دفع بأصدقاء له من ذوى النفوذ لكى يستعيدوا له رتبته ، غير أن طبقة النبلاء فى روسيا كانت تختلف عما كانت عليه فى الدول الأوربية الأخرى ، مثال هذا ، أن الوصول إليها كان ممكناً عند بلوغ رتبه معينة متواضعة فى سلك الحكومة ، ويبدو أنها لم تكن تعنى كثيراً سوى أنها تميزك عن الفلاح والتاجر ، كما تتيح لك أن تنظر إلى نفسك «كچنتلمان » . والواقع أن عائلة «دستويفسكى» كانت تنتمى إلى طبقة الموظفين الفقراء من ذوى الياقات البيضاء . وكان أبوه رجلا صارماً . ذلك أنه لم يحرم نفسه من الترف فحسب ، بل حرم نفسه من الراحة أيضاً ، كى يوفر لأبنائه السبعة تربية حسنة . وقد علمهم منذ سنيهم الأولى أن يتعودوا قسوة الحياة ومصائبها ، ليعدوا أنفسهم للقيام بواجباتهم والتزاماتهم فى الحياة ، وعاشوا حياتهم مكدسين فى حجرتين أو ثلاث فى المستشفى الذى كان مقر عمل الطبيب ، ولم يسمح لهم أبداً بالخروج وحدهم ، كذلك لم يكن يمنحهم مصروفاً . ولم يكن لهم أصدقاء . وكان الطبيب يعمل لحسابه بعض الوقت إلى جانب ما يتقاضاه من المستشفى ، وبمرور الوقت استطاع أن يقتنى ملكية صغيرة تبعد عن موسكو بضع مئات من الأميال ، ومنذ ذلك الحين تعودت الأم والأطفال ، أن يقضوا الصيف هناك . كانت تلك هى المرة الأولى التى يذوقون فيها طعم الحرية .

وعندما بلغ دستويفسكى السادسة عشرة ماتت أمه ، وأخذ الأب ولديه الكبيرين ميشيل وفيودور إلى سان بطرسبرج لإدخالهما أكاديمية الهندسة العسكرية . ولم تقبل الأكاديمية أخاه الأكبر لضعف بنيته . وبذلك حرم فيودور من صحبة الشخص الوحيد الذى كان يهمه . وأصبح وحيداً تعساً ، وكان أبوه لا يريد أو لا يستطيع أن يرسل إليه المال . وكان لا يملك شراء ضرورات الحياة ، كالكتب والأحذية أو حتى مصروفات المعهد بانتظام . أما عن الطبيب فما إن انتهى من أمر ولديه الكبيرين ، وأودع أبناءه الثلاثة الآخرين لدى عمة لهم فى موسكو حتى كف عن مزاولة مهنته ، وتقاعد فى أملاكه بالريف مع ابنتيه الصغيرتين ، وأدمن الشراب ، وكان قاسياً مع أطفاله وحشياً فى معاملته للعبيد إلى أن جاء يوم قتلوه فيه .

حدث هذا عام ١٨٣٩ وسار فيودور فى دراسته سيراً حسناً وإن خلا من الحماس وعين فى القسم الهندسى بوزارة الحربية ، بعد أن أكمل دراسته بالأكاديمية ، وبلغ إيراده من ضيعة والده إلى جانب مرتبه الخاص خمسة آلاف روبل فى السنة . واستأجر شقة ، وكان حبه الجامح للعب البلياردو يكلفه الكثير ، وبعثر المال يميناً ويساراً ، وما إن مر عام حتى استقال من مهمته ، لأنه وجد العمل فى القسم الهندسى « سخيفاً ومملا » وأثقلته الديون . وقد ظل مديناً حتى السنوات الأخيرة من حياته ، وكان متلافاً لا أمل فيه ، ودفعه هذا إلى اليأس ، ولكنه لم يتعلم قط ضبط النفس لمقاومة نزواته ، وقد أشار أحد الذين كتبوا عن حياته ، إلى أن افتقاره إلى الثقة بنفسه تسببت إلى حد ما فى اعتياده على بعثرة المال ، إذ كانت تمنحه إحساساً عابراً بالقوة ، وبذلك تشبع غروره . وسنرى فيما بعد كيف أودت به نقطة الضعف التعسة هذه إلى مآزق مؤلمة ، وكان دستويفسكى قد بدأ أثناء وجوده فى الأكاديمية كتابة رواية ، والآن وقد اعتزم كسب قوته من الكتابة انتهى بالفعل من تأليفها . كان عنوانها « المساكين » ولم يكن يعرف أحداً فى عالم الأدب ، ولكن أحد أصدقائه ويدعى جريجوروفيتش ، كان يعرف رجلا اسمه نيكراسوف الذى اعتزم إصدار مجلة ، وعرض عليه أن يطلعه على القصة . وذات يوم حضر دستويفسكى إلى بيته متأخراً . كان قد أمضى الأمسية فى قراءة الرواية لأحد أصدقائه ومناقشتها وعاد إلى بيته فى الرابعة صباحاً وأحس أنه لن يستطيع النوم ، فجلس إلى

النافذة المفتوحة ، يتأمل الليل ، وإذ برنين الجرس يفزعه : « كانا جريجوروڤتش ونيكراسوف ! ، وإذ اندفعا إلى الحجرة ، فى انتشاء والدمع يكاد يطفر من عيونهما ، عانقانى المرة بعد الأخرى » ، وكانا قد بدآ فى قراءة الكتاب بالتناوب بينهما بصوت مرتفع ، وما إن انتهيا من قراءته حتى قررا — وإن كان الوقت متأخراً — البحث عن دستويفسكى ، وقال كل منهما للآخر « لا يهم إن كان نائماً فلنوقظه ، فهذا أهم من النوم » ، وفى اليوم التالى أخذ نيكراسوف المخطوط إلى بلينسكى ، وكان أهم ناقد فى تلك الأيام ، وكان متحمساً مثلهما تماماً ، ونشرت الرواية ، وألفى دستويفسكى نفسه مشهوراً .

غير أنه لم يحسن الاستفادة من هذا النجاح ، وقد وصفت امرأة تدعى بانايڤ جولوفاتشيڤ الانطباع الذى تركه عندما قدم إليها فى شقتها : « كان من اليسير أن يدرك المرء منذ الرحلة الأولى أن القادم شاب عصبي للغاية ذو مزاج انطباعى. كان قصيراً ونحيلا ، وكان أشقر الشعر ، ويبدو على ملامحه الاعتلال ، وله عينان رماديتان ، وضيقتان ، تنتقلان فى قلق من شىء إلى آخر ، وكانت شفتاه شاحبتين ، تختلجـــان فى حركة عصبية . وكان كل الحاضرين تقريباً معروفين لديه ومع ذلك بدا خجولا ، ولم يشارك فى الحديث العام ، رغم أن بعض الحاضرين حاولوا الواحد بعد الآخر أن يخرجوه من عزلته ، ويبددوا تحفظه ، ويشعروه بأنه عضو فى دائرتنا . وعلى كل ، فقد كثر تردده علينا بعد هذه الأمسية ، وبدأ تحفظه يزول . بل لقد اعتاد ... الانشغال فى مشاحنات وخلافات بدا منها أن مجرد الرغبة فى المعارضة يجبره على تكذيب أى شخص . والواقع أن شبابه ومزاجه العصبي مجتمعين سلباه ضبط النفس تماماً ، ودفعا به إلى المغالاة فى استعراض كبريائه وزهوه ككاتب . وبعبارة أخرى انبهر لدخوله البرّاق حلبة الأدب فجأة ، وغمره مديح كبار رجال الأدب . لذا عجز — شأنه شأن معظم النفوس المغرقة فى الانطباعية — عن إخفاء انتصاره على الأدباء الشبان الذين كان دخولهم ميدان الأدب ذا طابع أكثر تواضعاً . . . وعن طريق تسقط الهفوات ، ومن نغمة الكبرياء الزائد ، أظهر أنه يعتبر نفسه شخصاً يفوق زملاءه بصورة لا تبارى . وكان دستويفسكى يرتاب فى الكل بلا استثناء ، فى أنهم يحاولون أن ينالوا من موهبته ، لأنه كان يرى فى كل

كلمة بريئة رغبة فى الإقلال من قيمة عمله ، ومضايقته شخصيًا . كان يأتى لزيارتنا وقد انتابته حالة من الحنق الهائج ، الذى يجعله يتحرق شوقاً إلى الدخول فى شجار، وأن يصب كل حقده على أولئك الذين يتوهم أنهم يحطون من قدره » *.

لم يكن ضيفاً مريحاً ، ولم يكن بالشخصية الجذابة . واستناداً إلى نجاحه وقعّ عقوداً لكتابة رواية وعدد من القصص ، واعتماداً على المبالغ التى تقاضاها مقدماً بدأ يمارس حياة متلافة، لدرجة أن احتج عليه أصدقاؤه ،ودب النزاع بينه وبينهم بل ونشب مع بلينسكى الذى فعل الكثير من أجله ، لأنه لم يقتنع « بصدق إعجابه» فقد أقنع نفسه بأنه عبقرى ، وأنه أعظم كتاب روسيا ، وزادت ديونه ، وأصبح مضطراً لأن يكتب على عجل وقد مضى به زمن طويل وهو يعانى من اضطراب عصبى غامض ، أما وقد دهمه المرض الآن ، فإنه خشى أن يصاب بالجنون أو يمرض بالتدرن. وكانت القصص التى كتبها فى ظل هذه الظروف فاشلة ، وأثبتت الرواية أنها غير صالحة للقراءة. والذين كانوا قد بالغوا فى مدحه أصبحوا الآن يهاجمونه ، واعتقد الجميع أنه قد كتب كل ما عنده .

ولكن حياته الأدبية انتهت فجأة ، فقد اتصل بجماعة من الشباب ، تؤمن بالأفكار الاشتراكية الشائعة فى أوربا الغربية آنذاك ، وكانوا يميلون إلى اتخاذ إجراءات معينة فى الإصلاح وخاصة لتحرير العبيد وإلغاء الرقابة . ولم يكونوا خطرين بالمرة ، ويبدو أن نشاطهم لم يكن يزيد عن الاجتماع مرة كل أسبوع لمناقشة أفكارهم . ولكنهم وقعوا تحت رقابة البوليس . وألقى القبض عليهم ذات يوم وزج بهم فى قلعة بطرس — بولس . وقدموا للمحاكمة وحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص . وفى صباح أحد أيام الشتاء نقلوا إلى ساحة التنفيذ ، ولكن ما إن استعد الجنود لتنفيذ الحكم ، حتى وصل رسول يعلن أن العقوبة قد استبدلت بالأشغال الشاقة فى سيبيريا. وحكم على دستويفسكى بالسجن أربع سنوات فى أومسك على أن يصبح بعدها جنديًا عاديًا ، وعندما عادوا به إلى قلعة بطرس — بولس كتب الخطاب التالى لأخيه ميشيل :

« اليوم هو الثانى والعشرون من ديسمبر ، وقد أحضرنا جميعاً إلى ميدان

---

* وردت فى كتاب سولوفيف : « دستويفسكى . حياته ونشاطه الأدبى » ترجمه (للإنجليزية) س. ج. هوجارث .

سيمينوفسكى . وهناك تلوا علينا الحكم بالإعدام . وقدموا لنا الصليب لنقبله . وكسروا فوق رؤوسنا الخنجر ، وأعدوا زينتنا الجنائزية (قمصاناً بيضاء) ثم أوقفوا ثلاثة منا أمام المقصلة لتنفيذ حكم الإعدام . وكنت أنا السادس فى الصف ، وكانوا ينادون على كل ثلاثة منا ، وهكذا كنت فى المجموعة الثانية ، ولم يبق لى إلا لحظة أعيشها . وفكرت فيك يا أخى ، وفيك فقط ، كنت أنت الوحيد الذى أفكر فيه فى هذه اللحظة الأخيرة ، ولأول مرة عرفت مدى حبي الشديد لك يا أخى الحبيب ،وسمح لى الوقت بمعانقة بلستشيف ودوروف اللذين وقفا بجانبي وأن أودعهما ، وفى النهاية صدرت الأوامر بالتراجع ، وأعادوا من كان مقيداً بالمقصلة . وتلوا علينا أن جلالة الإمبراطور قد حفظ لنا حياتنا . ثم تلوا الأحكام الأخيرة وكان بالمهو الشخص الوحيد الذى حصل على العفو الشامل . فقد نقل إلى الصف بنفس رتبته » .

وقد وصف دستويفسكى فى كتاب من أحسن كتبه ،مالقيه من أهوال أثناء حياته فى السجن . وهناك نقطة تستحق الاهتمام فهو يذكر أن المذنب الجديد يجد نفسه خلال ساعتين من وصوله متآلفاً مع غيره من المذنبين ، وتتوثق بينه وبينهم عرى التفاهم ، « ولكن الأمر يختلف إذا كان المذنب جنتلماناً نبيلا ، فمهما كان متواضعاً ومهذباً وذكياً ، فإنه يظل حتى النهاية مكروهاً ومنبوذاً من الجميع ، ولن يفهمه أحد وأكثر من هذا لن يوثق فيه أبداً ،ولن ينظر إليه أحد كصديق أو زميل ، وبالرغم من أنه قد يستطيع بمرور السنين حماية نفسه على الأقل من أن يكون هدفاً للسب والإهانة ، إلا أنه لن يستطيع أن يحيا حياته هو أو يتخلص من الفكرة التى تعذبه وهى أنه وحيد وغريب » .

لم يكن دستويفسكى بالجنتلمان كما يوحى هذا كله ، فهو من أصل متواضع كتواضع حياته ، ولكن نظراً لفترة مجده القصيرة فقد عانى آلام الفقر ، وكان دوروف صديقه وزميله فى السجن محبوباً من الجميع . ومن المؤكد أن شعور دستويفسكى بالوحدة ، وماسببته له من آلام كان يرجع إلى ما فى شخصيته من عيوب ،من غرور وأنانية ، وشكه وحبه للشجار ، ولكن وحدته وسط مئات من الرفاق ، جعلته يلوذ بنفسه ، فهو يقول : « من خلال هذه العزلة الروحية أتيحت لى

فرصة استعراض حياتى الماضية وأن أشرحها وأصل إلى أدق تفاصيلها ، وأتفحص وجودى الذى حققته حتى الآن وأحكم على نفسى بصرامة وبغير لين » . ولقد كان « العهد الجديد » من الكتاب المقدس هو الشيء الوحيد الذى سمح باقتنائه ، وقد ظل يقرأ فيه دون هوادة ، وكان له أثر كبير فى نفسه ، ومنذ ذلك الوقت وهو يعظ (وبقدرما كانت تسمح به طبيعته العنيدة) أخذ يدرب نفسه على التواضع ، وضرورة كبت رغبات الإنسان العادى . وقد كتب يقول : « يجب عليك قبل كل شيء أن تتواضع ، ولتنظر إلى ماضيك كيف كان . وإلى الأثر الذى تستطيع أن تتركه فى المستقبل ، ولتعرف كيف أن كتلة هائلة من الخسة والضعة والعار ترقد فى أعماق روحك » . إن السجن قد روض روحه الأنانية المتعالية ، فترك السجن ولم يعد بالرجل الثورى وإنما مؤيد كبير لسلطة التاج والنظام القائم . كما خرج منه وقد أصيب بالصرع .

وما إن انتهت فترة السجن حتى أرسل لاستكمال الحكم بالعمل كجندى بسيط فى حامية صغيرة ، فى سيبيريا . وكانت حياة شاقة ، ولكنه تقبل آلامها كجزء من العقاب الذى استحقه من أجل جريمته ، فلقد بات يعتقد أن نشاطه المتواضع من أجل الإصلاح كان خطيئة . وكتب إلى أخيه يقول : « إننى لا أتذمر ، فهذا هو صليبى الذى يتعين على أن أحمله ، وإنى لمستحق هذا العقاب » . وفى عام ١٨٥٦ استطاع بواسطة أحد زملائه القدامى فى الدراسة أن يترقى فى صفوف الجيش ، وأصبحت حياته أكثر احتمالا . وعقد صداقات ، ووقع فى الحب ، أما المحبوبة فقد كانت تدعى ماريا ديمتريفنا ايساييفا وهى زوجة لأحد السياسيين المبعدين الذى أشرف على الموت بسبب الخمر ومرض السل ، وهى أم لابن صغير ، وقد وصفت بأنها شقراء وجميلة نوعاً ما ، متوسطة الطول ونحيلة جداً ، جياشة العواطف نشوانة . ويبدو أن المعلومات الخاصة بها قليلة ، ولا يعرف عنها سوى أنها كانت ذات طبيعة متشككة وغيورة ، وتحب تعذيب النفس مثل دستويفسكى نفسه . وأصبح دستويفسكى عشيقها . ولكن حدث بعد فترة أن نقل ايسايف زوجها من البلدة التى يعمل فيها دستويفسكى إلى وظيفة أخرى على الحدود على بعد أربعمائة ميل تقريباً ، وهناك لفظ أنفاسه . وكتب دستويفسكى إليها يطلب الزواج . فترددت الأرملة لأن

كليهما كان معوزاً من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت قد أسلمت قلبها لمدس شاب «عاقل سامى التفكير ومتعاطف » يدعى ڤرجونوڤ وأصبحت عشيقته . أما دستويڤسكى الذى كان يحبها بعمق فقد جن جنونه من الغيرة . ولكنه أقدم على شئ لايقدم عليه غيره ، بدافع حبه لتمزيق نفسه ، وربما بدافع تعطشه كروائى ، إلى رؤية نفسه كأحد الأبطال الروائيين ، وأعلن أن ڤرجونوڤ أحب إليه من أخيه ، وتوسل لأحد أصدقائه أن يرسل إليه بعض المال حتى يتيح لماريا ايسايڤنا فرصة الزواج بعشيقها .

غير أنه استطاع أن يلعب دور الرجل المحطم القلب الذى يقدم نفسه قرباناً من أجل سعادة من يحب ، دون أن تحدث نتائج خطيرة . ذلك أن الأرملة كانت تسعى وراء الفرصة المواتية . وكان ڤرجونوڤ رغم سمو تفكيره وتعاطفه « مفلساً » بينما أصبح دستويڤسكى ضابطاً ، ولم يكن من الممكن تأخير العفو عنه أكثر من ذلك ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى عدم العودة إلى تأليف كتب ناجحة . وتزوج الاثنان فى عام ١٨٥٧ . ولم يكن لديهما مال . وكان دستويڤسكى قد استدان إلى الحد الذى لم يعد بعده يستطيع الاستدانة ، ومرة أخرى عاد للأدب . كان لابد له من الحصول على إذن بالنشر ، ولم يكن هذا ميسوراً ، كذلك لم تكن الحياة الزوجية . والواقع أنها كانت غير مرضية إلى حد كبير ، وقد عزا دستويڤسكى هذا إلى زوجته المتشككة ذات الطبيعة الواهمة . ونسى أنه هو نفسه كان نافد الصبر سريع الغضب ، عصبياً ، غير واثق بنفسه كما كان حاله عند أول عهده بالنجاح . وقد أخذ يكتب عدداً من القطع الروائية سرعان ما ألقى بها جانباً ، ثم يكتب غيرها ، وفى النهاية أنتج القليل ، غير أن هذا القليل كان تافهاً .

وفى عام ١٨٥٩ نجح فى العودة إلى سان بطرسبورج نتيجة لالتماساته ، ولما قام به أصدقاؤه من ذوى النفوذ . ولقد أصاب ارنست سيمونز فى كتابه عن دستويڤسكى حين ذكر أن الأساليب التى استخدمها لاستعادة حريته كانت وضيعة «لقد كتب الأشعار الوطنية ومن بينها قصيدة احتفالا بميلاد الإمبراطورة الأرملة الكسندرا ، وأخرى بمناسبة تتويج الكسندر الثانى ، ومرثية بمناسبة وفاة نيقولا الأول ، كما أرسل خطابات استعطاف ، واستجداء لأصحاب السلطة وللقيصر الجديد نفسه ، وفيها يؤكد محتجاً أن

يعبد العاهل الشاب الذى وصفه بأنه كالشمس تسطع على العادل والظالم على السواء ، ويعلن استعداده لأن يهب حياته له . أما عن الجريمة التى أدين بها فقد اعترف بها فوراً ، ولكنه أكد توبته ، وأنه يتعذب الآن بسبب الآراء التى نبذها » .

واستقر به المقام فى العاصمة مع زوجته وابنها ، واشترك مع أخيه ميشيل فى إصدار جريدة أدبية ، وكان اسمها « الزمان » وكتب لها « بيت المرتى » و « المستذلون والمهانون » ولاقت المجلة نجاحاً باهراً ، وظلت أحواله فى السنتين التاليتين تسير سيراً حسناً . وفى عام ١٨٦٢ ترك المجلة لإشراف أخيه ، وزار غربى أوربا. لم ترق له ، فقد وجد باريس « من كثر المدن إزعاجاً و إثارة للملل » وأهلها لايبحثون إلا عن المال ،وهم ضيقو الأفق ، وصدمه بؤس الفقراء فى لندن ، وما يحيط بالأثرياء من الاحترام الكاذب ، وذهب إلى إيطاليا ، ولكنه لم يكن شغوفا بالفن ، وأمضى أسبوعاً فى فلورنسا يقرأ الأجزاء الأربعة لرواية «البؤساء» لفكتور هيجو . وعاد إلى روسيا دون أن يرى روما أو فينسيا. وقد أصيبت زوجته بالتدرن ، وأزمن معها .

كان دستويفسكى قبل رحيله للخارج بعدة شهور وفى سن الأربعين قد تعرف على فتاة صغيرة ، تقدمت إليه بقصة قصيرة لنشرها فى مجلته. كان اسمها بولينا سوسلوفا ، كانت فى العشرين من عمرها عذراء ووسيمة ، ولكى تظهر أن آراءها تقدمية قصت شعرها وارتدت نظارة داكنة . وما إن عاد دستويفسكى إلى سان بطرسبورج حتى صارا عاشقين . وقد حدث فيما بعد أن منعت المجلة من الصدور بسبب مقال مشئوم نشره أحد كتاب المجلة ، فقرر السفر إلى الخارج مرة أخرى . وكان السبب الذى أبداه هو العلاج من الصرع ،الذى كان قد أخذ يشتد منذ فترة من الزمن ، ولكن هذا كان مجرد عذر ، فقد كان يرغب فى الذهاب إلى فيزبادن للمغامرة ، إذ كان قد ابتكر طريقة يفلس بها البنك ، وحدد موعداً مع بولينا سوسلوفا فى باريس. واقترض نقوداً من صندوق المؤلفين المحتاجين ورحل .

وفى فيزبادن أضاع الكثير من ماله ،وانتزع نفسه من موائد القمار لالشىء إلا لأن عاطفته نحو بولينا سوسلوفا كانت أقوى من عاطفته نحو القمار .وقد اتفقا على الذهاب معاً إلى روما ،ولكنها فى فترة انتظارها له أحبت الفتاة ، الشابة المتحررة ، شاباً أسبانياً

يدرس الطب حبًّا عابراً . فقد ضايقها أن يستهين هذا بها ، وهو إجراء لا تقبله النساء ، كما رفضت أن تستأنف علاقتها بدستويفسكى . وقد رضخ لهذا الموقف ، واقترح أن يذهبا إلى إيطاليا « كأخ وأخت » . وربما كان شعورها بالضياع هو الذى جعلها تلبي طلبه . ولم ينجح المشروع وزاد تعقيده إنهما قد اضطرا فى بعض الأحيان إلى رهن حليهما التافهة ، وبعد أسابيع قضياها فى «عذاب» انفصلا وعاد دستويفسكى إلى روسيا . ووجد زوجته تحتضر ، وماتت بعد ستة شهور ، وقد كتب لأحد أصدقائه يقول :

« إن زوجتى ، الكائن الذى أحبنى إلى حد العبادة ، والذى تعدى حبي لها كل حد ، لفظت أنفاسها الأخيرة فى موسكو ، التى انتقلت إليها منذ عام ، قبل وفاتها بالتدرن . وقد لحقت بها هناك ، وبقيت إلى جانب فراشها لم أغادره طيلة الشتاء . . . أى صديقى ، لقد فاق حبها لى كل حد ، وبادلتها الحب بدرجة تفوق كل تعبير ، ومع هذا لم تكن حياتنا المشتركة سعيدة . ويوما ما عندما ألتقى بك سأروى لك القصة كاملة . ولكن دعنى أكتف الآن بأن أقول ، إنه بصرف النظر عن أننا عشنا غير سعيدين معاً ، إلا أنه كان حريًّا ألا نفقد حبنا المتبادل ، وإنما نزداد ترابطاً مع ازدياد تعاستنا . وقد يبدو لك هذا غريباً ، ولكنها الحقيقة . لقد كانت أفضل وأنبل امرأة عرفتها على الإطلاق . . . »

وقد بالغ دستويفسكى بعض الشيء فى تصوير إخلاصه ، فقد حدث أن ذهب إلى سان بطرسبرج مرتين خلال ذلك الشتاء بشأن مجلة جديدة . بدأ فى إصدارها مع أخيه . ولم تكن متحررة فى اتجاهها كما كانت « الزمان » وقد فشلت . ومات ميشيل بعد مرض لم يمهله طويلا . وخلف وراءه ديوناً تبلغ ٢٥ ألف روبل ، ووجد دستويفسكى نفسه مضطراً لإعالة أرملة ميشيل وأطفالها وعشيقته وابنها ، واقترض عشرة آلاف روبل من عمة ثرية ، ولكنه اضطر فى عام ١٨٦٥ لأن يعلن إفلاسه . وكان مديناً بستة عشر ألف روبل بمقتضى إيصال مكتوب ، وخمسة آلاف أخرى بضمان الكلمة فقط . وكان دائنوه مزعجين ، ولكى يهرب منهم ، اقترض مرة أخرى من صندوق المؤلفين المحتاجين ، وحصل على مقدم لرواية كان قد تعاقد على تسليمها فى موعد معين . وإذ تزود بالمال ذهب إلى ڤيزبادن ليجرب حظه مرة

أخرى على الموائد ، ولكى يلتقى ببولينا سوسلوفا . وعرض عليها الزواج ، ولكن هذا الحب الذى كانت تكنه له تحول الآن إلى كراهية . وأظن أنها لم تصبح عشيقة له إلا لأنه كان مؤلفاً ذائع الصيت ، وقد تستفيد منه بوصفه صاحب مجلة . ولكن المجلة كانت قد ماتت . وكان مظهره دائماً لايلفت النظر ، وقد أصبح الآن فى الخامسة والأربعين ، أصلع الرأس ، مصاباً بالصرع . ومن الواضح أن تظاهره بالقوة الجنسية أثار فيها الحنق لدرجة لا تحتمل . فليس هناك ما يضايق المرأة مثل رجل يرغبها وهى لا تشعر نحوه بأى انجذاب جسدى . وتركته لتعود إلى باريس. وخسر كل نقوده على الموائد ، واضطر لرهن ساعته ، وكان عليه أن يلزم حجرته فى هدوء حتى لاتعتريه أى رغبة لا يملك إشباعها . وبدأ كتاباً آخر تحت ضربات السياط كما يقول ، وبدافع الضرورة وضد الزمن. وكان مفلساً ومريضاً وبائساً . أما الكتاب الذى أخذ فى كتابته تحت هذه الظروف فهو « الجريمة والعقاب » .

ولشدة حاجته للنقود لجأ إلى كل من يعرفه حتى ترجنيف الذى سبق أن تشاجر معه ، والذى كان يكرهه ويحتقره فى نفس الوقت ، غير أنه أخذ نقوده وعاد إلى روسيا. بيد أنه تذكر وهو لايزال يكتب فى الجريمة والعقاب أنه سبق أن تعاقد على تسليم كتاب فى موعد معين . وقد وقع بهذا الاتفاق الجائر ، على أنه إذا لم يفعل ذلك فإن للناشر الحق فى نشر كل ما يكتبه خلال التسع سنوات التالية ، دون أن يدفع له بنساً واحداً . وقد أشار عليه أحد الأذكياء أن يستخدم كاتبة اختزال ، وقد فعل ، وفى ستة وعشرين يوماً انتهى من رواية تسمى « المقامر » ، أما كاتبة الاختزال فكانت فى العشرين من عمرها ، ولكنها بسيطة ساذجة ، ومهما يكن الأمر فقد كانت نشطة ، وعملية ، وصبورة مخلصة ومعجبة به. وفى أوائل عام ١٨٦٧ تزوجها . وخشى أقاربه أن يكف عن مساعدتهم ، ولذلك أحسوا بالسخط ، وأساءوا معاملة زوجته الشابة لدرجة أنها أقنعته بمغادرة روسيا مرة أخرى . وأثقلته الديون من جديد . وفى هذه المرة استقر مقامه فى الخارج أربع سنوات ، ولأول وهلة وجدت أنّا جريجوريفنا ، وهو اسم زوجته ، أن الحياة مع المؤلف المشهور صعبة. وازداد صرعه سوءا . كان سريع الغضب ، طائشاً ، مغروراً ، واستأنف مراسلاته مع بولينا سوسلوفا ، الأمر الذى أقلق بال أنّا المسكينة ، ولكنها وهى المرأة الشابة ذات الإدراك السليم غير المعتاد ،

لم تفصح عن هذا القلق لأحد. وذهبا إلى بادن بادن ، وهناك بدأ يقامر مرة أخرى . ومرة أخرى أيضاً فقد كل ما كان يملكه . وبدأ يكتب كالمعتاد لكل شخص يمكن أن يعينه ، يطلب منه مالا ومزيداً من المال . وما إن يصل إليه حتى يتسرب إلى الموائد. ورهنا كل ماله قيمة ، وانتقلا من مسكن رخيص إلى مسكن أرخص . وفى بعض الأحيان كانا لا يملكان تقريباً ما يكفى لسد رمقهما . وكانت أنّا جريجوريڤنا حاملا. وهذا جزء من أحد خطاباته : كتبه وقد ربح لتوه أربعة آلاف فرنك .

« توسلت إلى أنّا جريجوريڤنا أن أقنع بالأربعة آلاف فرنك ،وأن نرحل على الفور ، ولكن كانت هناك فرصة سهلة للغاية ، يمكن أن تصلح كل شيء . والأمثلة ؟ إن المرء يرى –بجانب ربحه الشخصى – آخرين كل يوم يربحون ٢٠ ألفا و ٣٠ ألف فرنك (ولا يرى أولئك الذين يخسرون) . هل هناك قديسون فى هذا العالم ؟ إن المال ضرورى لى أكثر مما هو ضرورى لهم ، لقد جازفت بأكثر مما خسرت ، وبدأت أخسر آخر مواردى . وبلغ بى الغيظ أن أصبحت كالمحموم ، لقد خسرت ، ورهنت ملابسى ، ورهنت أنّا جريجوريڤنا كل ما كانت تملكه ، رهنت حليها الرخيصة (يالها من ملاك) كم كانت تحاول أن تخفف وتروح عنى ، ولكم لقيت من تعب فى هذه البادن الملعونة ، وفى الحجرتين الصغيرتين – حيث كنا نقيم – فوق (الحداد) فقد كان لزاماً علينا أن نلوذ بهما .

وأخيراً لم يعد هناك شيء ، فقد خسرنا كل شيء (آه ياللألمان الأشرار ، إنهم جميعاً بدون استثناء مرابون ، أوغاد وأشرار ، لقد رفع المالك أسعاره إذ عرف أنه لامكان نلجأ إليه حتى تصل إلينا النقود) . وكان لزاماً علينا أن نهرب فى النهاية ونترك بادن » .

ورزق دستويفسكى بأول طفل له فى چنيڤ ، لقد سعد به ، وابتهج كل الابتهاج . ولكنه واصل القمار . بيد أن الندم المرير انتابه ، لأنه بسبب ضعفه أضاع المال الذى كان كفيلا بأن يلبى ضرورات زوجه وطفله الملحة . غير أن هذا لم يمنعه من العودة إلى أماكن القمار ، كلما تجمعت فى جيبه بضعة فرنكات .وبعد ثلاثة شهور مات الطفل.واستبد به حزن عميق ، ومرة أخرى حملت أنّا جريجوريڤنا ،

ولكنه أحس أنه لن يستطيع قط أن يحب طفلا آخر بنفس العنف ، الذى أحب به الإبنة الصغيرة التى فقدها . وصادفت رواية « الجريمة والعقاب » نجاحا كبيراً ، وكان قد شرع فى تأليف كتاب آخر . اسمه (العبيط) وكان الناشر يرسل إليه مائتى روبل كل شهر ، ولكن هذا لم يمنعه من الوقوع دائماً فى ضائقة . وكان يطالب باستمرار بمزيد من المال يدفع له مقدماً . وفشلت رواية العبيط فى إرضاء القراء ، وبدأ فى كتابة رواية أخرى قصيرة « الزوج الخالد » كما بدأ بعد ذلك فى رواية طويلة اسمها « الممسوسون » وأثناء ذلك كان دستويفسكى وزوجه وطفله ينتقلون من مكان لمكان تبعاً للظروف ، وأنا أعتبر أن الظروف هنا : نفاد ما لديهم من مال استدانوه ، غير أن الحنين إلى الوطن كان يستبد بهم. ولم يستطع إطلاقاً أن يتغلب على كراهيته لأوربا . فلم تمس شغاف قلبه حضارة باريس وتميزها أو الراحة والموسيقى فى ألمانيا ، وروعة جبال الألب وعمق بحيرات سويسرا وجمالها الباسم وجمال توسكانى الساحر ، وذلك الكنز من الفنون الذى يسمونه فلورنسا . لقد وجد المدنية الغربية مدنية بورجوازية منهارة وفاسدة ، وأقنع نفسه أنها تدنو نحو التفكك والانحلال . وقد كتب من ميلانو يقول : « إننى أوشك هنا أن أصبح غبياً ضيق الأفق ، كما أننى أفقد صلتى بروسيا ، إننى أفتقر إلى الهواء الروسى وإلى الشعب الروسى ». وأحس أنه لن يستطيع أن ينتهى من رواية « الممسوسين » إلا إذا عاد إلى روسيا ، وكان الحنين إلى الوطن يضنى أنّا . ولكن المال يعوزهم ، وكان الناشر قد دفع لدستويفسكى أكثر مما يتوقع للكتاب من ربح ، وفى يأس لجأ إليه دستويفسكى ثانية . ونُشر له بالفعل فصلان فى إحدى المجلات وخوفاً من ألا يحصل على أقساط أخرى ، سارع بإرسال أجرة السفر وعادت أسرة دستويفسكى إلى سان بطرسبورج.

كان ذلك فى عام ١٨٧١ ، وكان دستويفسكى فى الخمسين وأمامه عشر سنوات أخرى يعيشها . وقد أصبح متعصباً للنزعة السلافية ، وتطلع إلى روسيا كى تنقذ العالم. وقد استقبلت رواية «الممسوسين» باستحسان ، وكان هجومها على الشباب المتطرف فى ذلك الوقت قد جعل للمؤلف أصدقاء فى الدوائر الرجعية ، واعتقدوا أن من الممكن الاستفادة منه فى معركة الحكومة ضد الإصلاح ، وعرضوا عليه تحرير صحيفة « المواطن » التى تؤيدها الدولة رسمياً ، وذلك لقاء أجر كبير ، وتسلم مهام

المنصب لمدة عام، ثم استقال بسبب خلاف بينه وبين رئيسه بشأن اقتراح لم يستطع استساغته، بالرغم من أنه هو أيضاً كان قد أصبح رجعياً. وفى ذلك الحين كانت أنّا الطيبة الواقعية قد بدأت فى مشروع دار نشر خاصة بها، وأخرجت طبعات لمؤلفات زوجها وكانت مربحة لدرجة أنها حررته من الحاجة والفاقة بقية حياته. وأما ماتبقى من سنى عمره، فنستطيع أن نمر عليها بإيجاز شديد. فقد كتب عدداً من المقالات العابرة تحت عنوان «يوميات مؤلف» وكانت ناجحة جداً، وأصبح ينظر إلى نفسه باعتبار أنه معلم ونبى. وهو دور قلما أنف الكتاب من القيام به. وكتب رواية «الشباب الفج». وأخيراً رواية «الأخوة كرامازوف»، وقد ازدادت شهرته، وعندما مات فجأة فى عام ١٨٨١ اعتبره الكثيرون، أعظم كاتب فى عصره، ويقال إن جنازته كانت من أكبر المناسبات التى أظهر فيها الجمهور مشاعره الفياضة، وعبر عنها بطريقة فريدة لم تشهدها العاصمة الروسية.

لقد حاولت أن أحكى الوقائع الأساسية لحياة دستويفسكى دون ما تعليق، ويخرج المرء منها بانطباع بشخصية غير مستحبة بشكل غريب. إن الزهو هو أحد أمراض المهنة التى تصيب الفنانين سواء كانوا كتاباً أورسامين أو موسيقيين أو ممثلين، ولكن دستويفسكى فاقهم جميعاً، ويبدو أنه لم يخطر بباله أبداً، أن حديثه عن نفسه وعن مؤلفاته أكثر من أن يحتمله أى شخص يستمع إليه. يضاف إلى هذا ربما بالضرورة، ذلك الافتقار إلى الثقة بالنفس وهو ما نسميه الآن بمركب النقص، وربما احتقر لهذا السبب زملاءه الكتاب فى غير مواربة. إن رجل المبادئ قلما ينحدر إلى هذا الخضوع البائس بعد تجربته للسجن. ورغم أنه تقبل الحكم الذى صدر ضده كعقاب يستحقه لمقاومة السلطات، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يعمل كل ما فى مقدوره ليحصل على هذا العفو. إن هذا لايبدو منطقياً، وقد سبق أن بينت إلى أى حد أذل نفسه فى التماساته التى قدمها لذوى السلطة والنفوذ، إذ كان يفتقر تماماً إلى القدرة على ضبط النفس، ولكن ربما كان هذا بسبب الصرع الذى عانى من قسوته. وفى هذه الحالة لايمكن أن نعده مسئولا عنه. ولم يجد التعقل أو الدماثة فى كبح جماحه عندما يقع فريسة لعواطفه، لذلك عندما كانت زوجته تحتضر، هجرها ليلحق ببولينا سوسلوفا إلى باريس، ولم يعد إليها إلا عندما لفظته هذه الشابة المتحررة. غير أن ضعفه

يظهر أكثر ما يظهر فى حبه الجنونى للقمار . وقد أوقعه هذا القمار ، فى العوز مرة بعد الأخرى ، وفى چنيف كان «مضطراً» لاقتراض «خمسة أو عشرة فرنكات» لشراء الطعام له ولزوجته .

ولعل القارئ يذكر أنه كتب رواية قصيدة اسمها « المقامر » وفاء لعقد ، وهى ليست رواية جيدة ، ولكنها تثير الاهتمام ، والسبب فى هذا أن البطلة بولينا الكسندروڤنا ، ربما تكون مستوحاة من شخصية بولينا سوسلوڤا ، وهى تعرض لنا تخطيطاً أولياً لنموذج المرأة التى يختلط عندها الحب بالكراهية ؛ وهو ما قام بتصويره على نحو أدق فى مؤلفات لاحقة ، ومما يجعلها تثير الاهتمام أيضاً ، أن دستويفسكى وصف فيها بدقة فائقة تلك الأحاسيس التى عرفها جيداً ، الأحاسيس التى تنتاب الضحية المسكينة لعاطفة القمار . وإنه ليتضح لك بعد قراءتها أنه بالرغم من المذلة التى تعرض لها بسبب القمار ، وما جلبه عليه وعلى من أحب من بؤس ، واضطراره إلى إجراءات غير شريفة (عندما اقترض من صندوق مساعدة المؤلفين المحتاجين ، وكان القصد منها مساعدته على الكتابة ، وليس على لعب القمار) وحاجته الدائمة إلى الالتجاء لأصدقائه الذين سئموا تزويده بالمال ، وبالرغم من كل شىء ، فإنه لم يستطع مقاومة إغراء القمار . كان استعراضياً ، كما هو حال — ربما بدرجة زادت أو قلت — أولئك الذين يتميزون بملكة الإبداع ، أياً كان نوع الفن الذى يمارسونه ، وقد استطاع أن يصف فى حيوية كيف أن ضربة من ضربات الحظ قد تشبع . هذه النزعة الاستعراضية غير المستحبة . إن المتفرجين يتجمعون حول المائدة ، ويحملقون فى المقامر المحظوظ ، كما لو كان يتفوق عليهم ، إنهم يحسون بالدهشة وبالإعجاب . إنه محط الأنظار ، وطوبى للرجل التعس الذى نكب بالخجل الشاذ ، فعندما يربح ، ينتشى بإحساس القوة ويشعر بأنه سيد مصيره ، إن ذكاءه وحرصه لا يخطئان ، حتى إنه يستطيع أن يتحكم فى الصدفة .

إنه يجعل بطله المقامر يقول : « حسبى أن أظهر إرادة قوية مرة واحدة ، وعندئذ أستطيع فى ساعة واحدة أن أغير مصيرى » . إن الإرادة القوية شىء عظيم ، يكفى أنه تذكر ما حدث منذ سبعة شهور فى روليتنبرج قبل خسارتى الأخيرة مباشرة ، لقد كانت لحظة تصميم فريدة : كنت قد فقدت كل شىء حينئذ ، كل شىء . .

وكنت خارجاً من الكازينو ، ونظرت فى جيب الصديرى ، لايزال هناك « جلدن » واحد ، وفكرت « إذن هناك ما أتعشى به » ولكن بعد أن قطعت مائة خطوة غيرت رأيى وعدت وقامرت بهذا الجلدن . الواقع أنه إحساس غريب ، ذلك الذى تستشعره وأنت وحدك فى أرض غريبة بعيد عن الوطن والأصدقاء ، ولا تعرف هل هناك ما تأكله فى هذا اليوم ، ثم بعد ذلك نقامر بآخر جلدن معك ، آخر جلدن بالفعل . وربحت ، وبعد عشرين دقيقة خرجت من الكازينو ، ومعى مائة وسبعون جلدن فى جيبى : إنها حقيقة ، وهذا ما يمكن أن يفعله جلدن واحد فى بعض الأحيان . وماذا كان سيحدث لو كنت قد فقدت شجاعتى حينئذ ؟ ماذا كان يحدث لو لم أكن قد جازفت ؟ » .

ولقد كتب سيرة دستويفسكى شخص يدعى ستراخوف ، وهو أحد أصدقائه القدامى ، وفى هذا الشأن كتب خطاباً لتولستوى نشره ايلمر مود فى كتابه عن حياة دستويفسكى وهذه ترجمة للخطاب بعد حذف بعض فقراته :

« كان على طوال الوقت الذى أكتب فيه ، أن أقاوم إحساساً بالاشمئزاز ، كما حاولت كبت مشاعرى السيئة . . إننى لا أستطيع أن أعتبر دستويفسكى خيّراً أو سعيداً . فقد كان شريراً مفسداً يملؤه الحقد . كان طوال حياته ضحية لانفعالاته ، التى كانت خليقة بأن تجعله مدعاة للسخرية وبائساً ، لو كان أقل ذكاء أو أقل شراً . لقد كنت أدرك كل هذه المشاعر أثناء كتابتى لقصة حياته . وفى سويسرا عامل أمامى خادمه معاملة سيئة للغاية . لدرجة أن الرجل تمرد وقال : « ولكننى بشر أنا الآخر » . وإنى لأذكر كيف صفعتنى هذه الكلمات ، التى كانت تعكس الأفكار السائدة فى سويسرا الحرة عن حقوق الإنسان ، والتى كانت موجهة إلى رجل يعظ دائماً الآخرين عن المشاعر الإنسانية . مثل هذه المشاهد كانت تحدث باستمرار ، فلم يمكن فى مقدوره التحكم فى مزاجه . . (أسوأ ما فى الأمر أنه كان يفاخر بأنه لم يندم قط على أعماله القذرة . وكان يمجد هذه الحقيقة . وقد أخبرنى ڤيسكوڤاتوڤ (وهو أستاذ) كيف تباهى دستويفسكى ، لأنه اغتصب فتاة صغيرة فى حمام عام ، وكانت قد أحضرتها له مربيتها . . ومع هذا كله كانت تنتابه عاطفة مزيفة مريضة ، وفيض من الأحلام الإنسانية ، إن هذه الأحلام ورسالته الأدبية واتجاهات

كتاباته هى التى حببته إلينا . وبالاختصار إن كل هذه الروايات تحاول جاهدة أن تبرئ مؤلفها ، إذ ترينا كيف أن أعمق الشر يمكن أن يوجد جنباً إلى جنب مع أنبل المشاعر . . . ».

صحيح أن مشاعره العاطفية كانت مريضة ، وإنسانية لاجدوى فيها ، وقد كان اتصاله « بالشعب » ضئيلا ، وهو الشعب الذى كان يتطلع إليه دستويفسكى ، وليس إلى الطبقة المثقفة ، لبعث روسيا . وقلما كان يتعاطف مع مصيرهم المرير الشاق ، ولقد هاجم بعنف المتطرفين الذين كانوا ينادون بتخفيف حدة هذا المصير . أما العلاج الذى قدمه لبؤس الفقراء المروع ، فيتلخص فى الارتقاء بآلامهم إلى مرتبة المثل العليا والخروج من هذه الآلام بأسلوب للحياة . وبدلا من أن يعرض عليهم إصلاحات عملية ، قدم لهم عزاء دينيًّا صوفيًّا »* .

وقد تألم المعجبون بدستويفسكى من قصة اغتصابه للفتاة الصغيرة ، ولم يصدقوها ، ومن الواضح أن حديث ستراخوف قائم على إشاعات ، ولكن ما يثبت صحتها ذلك النبأ ، الذى يقول إن دستويفسكى قد غلبه الندم ، فأفضى بالقصة لصديق قديم نصحه بأن يعترف بها ، كنوع من التكفير ، للرجل الذى يكرهه أكثر من غيره فى هذا العالم ، وبناء عليه قص قصته على تورجنيف . ولكن قد يكون هذا كله غير صحيح. حقيقة أن هذا الموضوع يقفز فجأة وبإلحاح فى أعماله ، ويقال إن هناك فصلا محذوفاً فى رواية « الممسوسين » له علاقة به . ولكن ليس هذا برهاناً على أنه ارتكب فعلا هذا العمل المشين . وربما كان هذا وهماً سببه الصرع ، وهماً بلغ من القوة ، أن غمره بالإحساس بالذنب . أو ربما كان كأى روائى آخر قد ابتكر شخصية ترتكب جريمة ، هى لسوء الحظ جريمة يميل إليها ، ولكنه لايرتضى أن يرتكبها بنفسه** .

كان دستويفسكى مغروراً ، كثير الشك ، محبًّا للشغب ، متذللا ، أنانيًّا ، مفاخراً بنفسه ، لا يعتمد عليه ، متهوراً ، متعصباً ، غير متسامح ، ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر ، فقد تعلم فى السجن ، أن الناس قد يرتكبون جرائم القتل أو هتك العرض أو السرقة . ومع ذلك فهم يتصفون بالشجاعة والكرم والحب والتعاطف نحو الآخرين. لقد تعلم أنه لا يوجد إنسان ذو طابع موحد ، بل هو خليط من النبل ، والانحطاط ،

---

* سيمونز : دستويفسكى .

** يارمولينسكى : دستويفسكى أو حياة .

من الفضيلة ، والرذيلة ، وكان دستويفسكى أقل الناس حباً للانتقاد ، كان محسناً ، لم يحدث مطلقاً أن رفض أن يعطى من ماله لمتسول أو صديق . وفى الأوقات التى كان هو نفسه فيها معدماً ، كان يقتصد بعض المال ليرسله إلى شقيقة زوجته وعشيقة أخيه وابنها التافه ، وشقيقه الأصغر أندرو السكير الذى لانفع له . كانوا يمتصونه مثلما كان يمتص هو الآخرين ، وبدلا من أن يستاء لذلك ، يبدو أنه كان يأسف لعدم استطاعته أن يقدم إليهم أكثر مما فعل . كان يحب زوجته أنا ، ويعجب بها ويحترمها ، وكان ينظر إليها على أنها تتفوق عليه فى كل شيء ، لعل من الأمور التى تؤثر فى النفس أن تعلم ، أنه خلال الأربع سنوات التى غابها فى رحلته إلى الخارج ، كان الخوف يمزقه من أن تضيق بالحياة معه بمفردها . كان له قلب مفعم بالحب ، وكان يتشوق إلى حب الآخرين له . وكان من الصعب أن يقنع نفسه أنه وجد أخيراً من يحبه بإخلاص ، رغم عيوبه التى كان يدركها تماماً ، وقد منحته أنا أسعد سنوات حياته .

هذا ما كان من أمر دستويفسكى الإنسان ، الإنسان فقط ، فهناك انقسام بين الإنسان والكاتب ، ولا أعتقد أن هناك أحداً يبدو فيه هذا الانقسام واضحاً أكثر مما بدا فى دستويفسكى ، وربما كان لدى كل الفنانين المبدعين مثل هذا الانقسام ، ولكنه أشد وضوحاً لدى المؤلفين عنه لدى غيرهم ، لأن وسيلتهم هى الكلمة . كما أن التناقض بين سلوكهم وما يقدمونه للقارئ أشد فظاعة . قارن مثلا مثالية شيللى الجميلة ، وحبه للحرية وكرهه للظلم ، وبين أنانيته المجردة من الإحساس ، وعدم اكتراثه الشديد بمايسببه من آلام . ولست أشك فى أن هناك أكثر من مؤلف موسيقى ، وأكثر من رسام ، له نفس الأنانية والقسوة التى كانت لشيللى . ولكن جمال الموسيقى وجمال اللوحات تملك علينا حواسنا ، ولايضايقنا أن يكون هناك انشقاق بين الإنتاج والسلوك . ويبدو أن الموهبة الإبداعية تكون موهبة طبيعية فى الطفولة والشباب المبكر ، أما إذا استمرت لما بعد البلوغ فهى تصبح كالجرثومة لا تعيش إلا على حساب السجايا الإنسانية العادية ، مثل البطيخ فهو أطيب مذاقاً إذا نما فى سماد طبيعى ، كذلك المبدع يترعرع بشكل أفضل فى تربة مختلطة وممزوجة بخواص شريرة .

كان دستويفسكى أشياء أخرى غير الرجل المغرور ، السريع الغضب والأنانى الضعيف الذى صوره كتاب سيرته ، كان هناك الرجل الذى استطاع أن يبدع شخصية أليوشا ، التى ربما كانت أكثر مخلوقات الفن الروائى سحراً وعذوبة ورقة . كان هناك الرجل الذى استطاع أن يبدع الأب زوسيما الذى يشبه القديس . ولقد كان دستويفسكى يعتزم أن يكون أليوشا هو الشخصية الرئيسية فى رواية الأخوة كرامازوف كما هو واضح من العبارة الأولى فى الكتاب . « كان الكسى فيودوروفيتش كرامازوف هو الابن الثالث لفيودور باڤلوفيتش كرامازوف أحد ملاك الأراضى المعروفين فى المقاطعة فى عصره . ولا يزال ذكره يتردد بيننا لوفاته التى حدثت فى ظروف كئيبة وبطريقة مفجعة ، تلك الوفاة التى حدثت منذ ثلاث عشرة سنة ، والتى سوف أصفها فى الموضع المناسب » ، كان دستويفسكى — بغير تعمد — روائياً محنكاً ، بحيث يستعبد أن يبدأ كتابه بعبارة معينة محددة تسلط الضوء على أليوشا وذلك أن اليوشا ، فى الكتاب الذى بين أيدينا ، يلعب دوراً ثانوياً بالنسبة لأخويه ديمترى وإيڤان . فهو يدخل فى القصة ويخرج منها ، ويبدو كأن تأثيره ضعيف على أشخاصها . إن نشاطه يتعلق بمجموعة صبيان المدارس وأفعالهم وتصرفاتهم التى لا تتعدى إظهار سحر أليوشا ورقته المحببة ، ولكنهم لايسهمون فى تطوير موضوع الرواية .

وتفسير ذلك أن « الإخوة كرامازوف » التى تبلغ ٨٣٨ صفحة فى ترجمة مسترجارنت ، ليست إلا قطعة من رواية ، كان دستويفسكى يزمع كتابتها ، وقد عزم على تطوير شخصية أليوشا فى أجزاء أخرى ، ماراً به بعدد من الطفرات ، يمر خلالها بتجربة الخطيئة الكبرى ، إلى أن يصل فى النهاية إلى الخلاص عن طريق العذاب . ولكن موت دستويفسكى منعه من تحقيق غرضه ، وظلت الإخوة كرامازوف قطعة من رواية . ومع هذا فهى واحدة من أعظم الروايات التى كتبت على الإطلاق ، وتقف فى مقدمة مجموعة صغيرة ورائعة من الفن الروائى التى تختلف عن غيرها من الروايات رغم عظمة تلك الروايات ، وهناك مثلان مثيران هما « ويذرنج هايتس » « وموبى ديك » . إنه كتاب خصب للغاية ، ولن أكون منصفاً إذا حاولت مناقشة الرواية فى إيجاز . ولقد انشغل بها دستويفسكى مدة طويلة ، وبذل فيها جهداً

لم تسمح له حالته المالية ببذله فى رواياته السابقة . لقد وضع فيها كل شكوكه الممضة ، ورغبته الحارة فى أن يؤمن بما كان يرفضه عقله، وبحثه القلق عن معنى الحياة . وسوف أذكر للقارئ فقط الأشياء التى يجب ألا يتوقعها ، فليس من حقه أن يطالب المؤلف بما لا يستطيع أو بما لا ينوى أن يعطيه إياه . وليس هذا كتاباً واقعياً. فوهبة دستويفسكى فى الملاحظة كانت ضئيلة ، ولم يكن يهتم بالمطابقة . فتصرفات شخصياته لايمكن الحكم عليها بمعايير الحياة العادية . فأفعالها محالة بشكل واضح ، ودوافعها هوجاء لدرجة الجنون . إنك لاتلمس فى هذه الشخصيات ما تلمسه فى مخلوقات چين أوستن ، أو الشخصيات التى أبدعها فلوبير . بل هى تجسيد للعواطف الجامحة والكبرياء والشهوة والنزعة الحسية والكراهية . وهى ليست نسخة طبق الأصل من الحياة ، نسخة حولتها مهارة المؤلف إلى شخصيات أكثر دلالة ، مما هى عليه فى الواقع . ولكنها فيض فاضت به حساسية المؤلف المعذبة الملتوية المريضة . وهى مع ذلك إذا لم تكن تشبه الحياة فهى تنبض بها .

ورواية الإخوة كرامازوف تعانى من الإسهاب ، الذى أدرك دستويفسكى ، أنه خطأ يشوب كثيراً من أعماله الأخرى ، ولكنه لم يستطع التخلص منه ، وحتى فى الترجمة لايكاد المرء أن يفوته الإحساس بأن الكتابة فضفاضة . كان دستويفسكى روائياً عظيماً، ولكنه كان فناناً ضعيفاً . وكان إحساسه بالفكاهة بدائياً ، ومدام هولاكوف التى تقوم بدور الترويح الكوميدى ، إنما هى شخصية تبعث على الملل. والفروق التى رسمت لتمييز كل شخصية من شخصيات الفئات الثلاث ليز ، وكاترينا إيفانوفنا ، وجروشنكا فروق ضئيلة ، فهن جميعاً عصبيات المزاج ، حقودات ويكدن لغيرهن ، وهن يحاولن دائماً السيطرة وتعذيب الرجل الذى يحببنه ، وفى نفس الوقت يرضخن له ويتعذبن على يديه ، فسلوكهن لا يمكن تعليله . وفى حديثى المختصر عن حياة دستويفسكى لم أتكلم عن امرأتين أخريين كانت له علاقة بهما من قريب أو بعيد ، لأن تأثيرهما على حياته يمكن إغفاله رغم ما أمداه من مادة أفادمنها. كان حسياً وجنسياً للغاية ، ولكننى لا أستطيع إقناع نفسى بأنه عرف الكثير عن النساء. ويبدو أنه قسمهن دون ترو إلى فئتين : المرأة الوديعة المضحية ، التى ينهرونها ويسيئون معاملتها ويخدعونها . والمرأة المتكبرة المسيطرة العاطفية ، القاسية المحبة للانتقام . والمرجح

أن فى ذهنه بولينا سوسلوفا التى أحبها ، فإن ماعاناه منها ، وإهاناتها له، كانت بمثابة المثير الذى تعطش إليه ليشبع رغبته فى تعذيب نفسه .

أما شخصيات الرجال، فكانت يده أكثر ثباتاً فى رسمها . كان تقديمه للعجوز كرامازوف المهرج الذى سيطرت عليه الخمر ، جميلا ، أما ابنه غير الشرعى سمر دياكوف فإنه يعد مثلا رائعاً للشخصية الشريرة ، أما أليوشا فقد سبق أن تحدثت عنه بإيجاز، وللعجوز الوغد ولدان آخران : ديمترى وهو رجل جدير بأن يصفه المتسامح بأنه ألد أعدائه ، فهو سوقى سكير مشاكس ،متبجح،مسرف لدرجة الطيش ، ولا يهمه من أى طريق يأتى بالمال لينفقه بحماقة ، ونظرته إلى المجون صبيانية إلى حد يثير الإشفاق . ووصفه لعربدته مع جروشنكا ساذج إلى حد السخافة . وجعجعته عن الشرف تبعث على الازدراء . وهو بصورة ما يعد الشخصية الرئيسية فى الكتاب ، وهذا فى رأيى عيب . فهو مخلوق بلغ من تفاهته أنك لاتعبأ بما يحدث له. ومن المفروض أنه جذاب للنساء ، كما هو الغالب بالنسبة لأمثاله من الرجال ، ولكن دستويفسكى لا يوضح لنا مقومات جاذبيته . وهناك نقطة فى سلوكه طالما استرعتنى كشىء له دلالته . فهو يأخذ المال، والمال الذى سرقه، لكى يعطيه لجروشنكا التى أحبها بكل عواطفه، عسى أن تتزوج الذى كان أول من انتهك عرضها ، وهذا يذكرنا بقصة دستويفسكى، حين حاول اقتراض المال، لتتزوج ماريا إيسايفا، التى كانت مخطوبة له، من المدرس المثقف العطوف والذى كان عشيقها . أما ديمترى الذى كان مثله أنانياً فى قسوة، فقد أضفى عليه ماسوشيته هو، ترى هل تكون الماسوشية تأكيداً نهائياً للذات ؟

لقد ذهبت فى الانتقاد والذم إلى أبعد حد ، وقد يسأل القارئ إذا كانت لى كل هذه الاعتراضات ، لماذا إذن أدعى ، أن الإخوة كرامازوف واحدة من أعظم روايات العالم ، نعم إنها فى المحل الأول تستغرق كل الاهتمام ، فدستويفسكى لم يكن روائياً عظيماً فحسب ، وإنما كان روائياً كفؤاً للغاية ، وقلما تجتمع هاتان الصفتان على الدوام ، وكانت له موهبة ملحوظة فى تحويل الموقف إلى دراما مؤثرة . وقد يحسن أن نشير إلى طريقة أثيرة لديه لتثير فى القارى حساسية نابضة . فهو يجمع الشخصيات الرئيسية فى قصته لكى يتحدثوا عن فعلة مشينة لدرجة لا تعقل ، ثم يقودك إلى

إدراكها بمهارة، كمهارة جابوريو، حينما يكشف عن لغز جريمة ، إن لهذه المحاورات الطويلة جاذبية أخاذة ، وهو يضاعف من حدتها بطريقة ذكية . وشخصياته نابضة بأشياء لاتستطيع الكلمات التى نلفظ بها أن تصورها . فهو يصفها وهى ترتجف من العاطفة ، مخضرة الوجه ، أوشاحبة اللون بشكل مخيف، بحيث يسبغ على الملاحظات العادية جداً دلالة لا يستطيع القارئ تعليلها. وينشغل القارئ بهذه الحركات المبالغ فيها لدرجة تشد أعصابه ، ويعده لاستقبال الصدمة الحقيقية، عندما تقع بعض الحوادث التى كان من الممكن أن تمر، دون أن يتأثر بها القارئ لولا براعة دستويفسكى .

غير أن هذا لايعدو أن يكون مسألة تكنيك . فإن عظمة الإخوة كرامازوف هى عظمة الموضوع ، وقد قال كثير من النقاد أنها تمثل البحث عن الله ، أما أنا فأقول إنها مشكلة الشر . وهنا يحضرنى إيفان الابن الثانى لكرامازوف العجوز، وهو أكثر الشخصيات لفتاً للنظر ، وإن كان أقلهم تحريكاً للعواطف، وربما كان — كما سبق أن قيل — الناطق بمعتقدات دستويفسكى الأساسية، وقد نوقش الموضوع فى الفصلين « ماله وما عليه » «والراهب الروسى » . وهما الفصلان اللذان يعدهما دستويفسكى أوج الرواية ، ويعتبر فصل « ماله وما عليه » ، أقوى الفصلين ، إذ يتناول أيضاً إيفان فيه، مشكلة الشر الذى يرى الذهن البشرى أنها تتعارض مع وجود الله، وهوالقادر على كل شيء ، وهو الخير المحض . مثال هذا أنه يعرض ما يعانيه الأطفال دون ذنب جنوه . ذلك أن من المعقول أن يعانى الكبار جزاء خطاياهم أما أن يعانى الأطفال الأبرياء ، فأمر يمض القلب والعقل معاً . ولايهم إيفان ما إذا كان الله هو الذى خلق الإنسان أم الإنسان هو الذى خلق الله ، فهو يريد أن يعتقد فى وجود الله ، لكنه لا يستطيع أن يقبل قسوة العالم الذى خلقه ، ويصر إيفان على أنه لا مبرر لأن يتحمل الأبرياء أوزار المذنبين، وإذا كان الأمر كذلك، وهو ما يحدث بالفعل ، فإن الله إما أنه شر وإما لا وجود له . ولن أقول أكثر من هذا، فهناك فصل « ماله وما عليه » وللقارئ أن يقرأه . فلم يكتب دستويفسكى فى أى مكان آخر بمثل هذه القوة . غير أنه بعد أن كتبه كان يخشى ما قد فعل . فالبرهان كان مقنعاً ، ولكن النتيجة كانت تتعارض مع عقيدته بأن العالم، بما فيه من شر وآلام،

هو عالم جميل لأنه من صنع الله . « إذا أحب المرء كل الأحياء فى العالم ، فإن هذا الحب سيبرر ما نعانيه ، ويتقاسم كل منا ذنوب الآخرين . وعندئذ يصبح الألم من أجل خطيئة الآخرين ، هو الواجب الأخلاقى لكل مسيحى » . هذا ما كان دستويفسكى يود أن يؤمن به . أما وقد كتب « ماله وما عليه » فقد سارع إلى كتابة تكذيب له . وليس هناك من أدرك ـــ خيراً منه ـــ أنه لم ينجح فى ذلك ، فقد جاء الجزء الذى كتبه مملا ، ولم يكن التكذيب مقنعاً .

إن مسألة الشر لا تزال تنتظر الحل ، ولم تجد دعوى إيڤان كرامازوف الإجابة عليها بعد .

هرمان ملڤيل
و
موبى ديك

قرأت كتاب « هرمان ملڤيل ، ملاحاً وصوفياً » لريموند ويڤر ، وكتاب «هرمان ملڤيل» للويس ممفورد ، و«ملڤيل فى البحار الجنوبية » لتشارلز روبرتس آندرسون ، و « هرمان ملڤيل : مأساة العقل» ، لويليام إليرى سدجويك . مع ذلك أعتقد أن معرفتى بهرمان ملڤيل لم تزد كثيراً عما كانت من قبل .

وقد كتب ريموند ويڤر « وهو ناقد غير حصيف ، عند الاحتفال بمرور قرن على ملڤيل فى ١٩١٩ »، يقول : « إن أسلوبه فى الكتابة ونظرته إلى الحياة، تعرضتا لتغيير شامل بسبب تجربة نفسية غريبة ، تجربة لم تفسر أبداً على وجه التحديد». ولا أدرى تماماً لماذا يوصف هذا الناقد المجهول بأنه غير حصيف . لقد وضع يده على المشكله التى لابد أن تحير كل من يهتم بملڤيل . وبناء على ما ذكره يتفحص المرء كل تفاصيل حياته المعروفة، ويقرأ خطاباته وكتبه، تلك الكتب التى لا يُقرأ بعضها إلا بإرادة وتصميم ، وذلك حتى يكتشف أية إشارة، قد تسهم فى كشف الغموض .

ولكن دعنا أولا نتناول الحقائق كما عرفناها من كتّاب سيرته . وهى تبدو فى الظاهر — وفى الظاهر فقط — أنها بسيطة للغاية .

ولد هرمان ملڤيل عام ١٨١٩ . وكان أبوه «آلان ملفيل»، وأمه «ماريا جنزڤورت » من علية القوم . وكان آلان مثقفاً كثير الأسفار ، أما ماريا فكانت امرأة تتمتع بذوق سليم ، كما كانت حسنة التربية متدينة . وقد عاشا فى ألبانى فى السنوات الخمس الأولى من زواجهما ، ثم استقر بهما المقام فى نيويورك حيث ازدهرت أعمال آلان لفترة من الوقت، وكان يعمل إذ ذاك فى استيراد البضائع الفرنسية . وهناك ولد هرمان .

وكان ثالث أطفاله الثمانية . ولكن حدث فى عام ١٨٣٠ أن مرت بآلان ملفيل أيام سود. فعاد إلى ألبانى، حيث مات مفلساً بعد سنتين ، ويقال إنه أصيب بلوثة وقد ترك عائلته بلا مال . والتحق هرمان بمعهد ألبانى الكلاسيكى للبنين ، وعندما ترك المدرسة عام ١٨٣٤ عين كاتباً فى بنك ولاية نيويورك . وفى عام ١٨٣٥ اشتغل فى محل جنزڤورت للفراء ، وكان يملكه أخوه، وفى السنة التالية اشتغل فى مزرعة خاله فى بيتسفيلد . وقد قام بالتدريس خلال فصل دراسى واحد فى مدرسة عامةفى مقاطعة سايكس . وعندما بلغ السابعة عشرة ذهب إلى البحر . وقد كتب الكثيرون تعليلات لهذا الحادث ، ولكنى لا أرى أى داع للبحث عن أسباب أخرى غير السبب الذى ذكره بنفسه : « إنها خيبة الأمل المرة فى عدد من المشروعات التى أعددتها لمستقبل حياتى ، والحاجة إلى أن أفعل لنفسى شيئاً، بالإضافة إلى ميل طبيعى للتجوال ، كل هذه العوامل تآمرت داخل نفسى ، كى تدفع بى إلى البحر كبحار » . لقد جرب نفسه فى عدة أعمال دون أن ينجح ، وبناء على ما نعرفه عن أمه نستطيع أن نستخلص أنها لم تتردد فى التعبير عن استيائها . وقد ذهب إلى البحر — مثلما فعل كثيرون من الصبية من قبله ومن بعده — لأنه كان تعيساً فى البيت . وكان ملڤيل رجلا غريباً جداً ، ولكن ليس من الضرورى أن نبحث عن الغرابة فى عمل يعد طبيعياً تماماً .

لقد وصل إلى نيويورك معتلا تماماً، يرتدى بنطلوناً تعلوه الرقع وسترة صيد، وليس فى جيبه بنس واحد ، ولكن كانت معه بندقية صيد أعطاها له أخوه جنزڤورت ليبيعها ، وسار فى المدينة متجهاً نحو منزل أحدأصدقاء أخيه حيث أمضى الليل ، وفى اليوم التالى ، توجه مع هذا الصديق إلى الميناء . وبعد بحث ، صادفا سفينة مبحرة إلى ليڤربول ، وأُلحق ملڤيل بالسفينة كـ«صبى» بأجر قدره ثلاثة دولارات فى الشهر . وقد كتب فى ردبورن بعد اثنى عشر عاماً وصفاً للرحلة ، عن ذهابه وإيابه، وإقامته فى ليڤربول . وقد نظر إلى ما كتبه باعتباره إنتاجاً أدبياً رديئاً، غير أنه يتميز بالحيوية والطرافة ، كما أنه مكتوب بإنجليزية قديمة، لكنها بسيطة ومباشرة وسهلة وخالية من الافتعال . وهى من أكثر مؤلفاته قابلية للقراءة .

وليس هناك ما نعرفه كثيراً، عن الطريقة التى قضى بها السنوات الثلاث التالية .

وطبقا للخطابات المعتمدة ، فقد قام بالتدريس فى أماكن مختلفة ، وفى إحدى هذه المدارس » فى جرينبوش فى نيويورك» تقاضى ستة دولارات وربع دولار ، إلى جانب الإقامة . وكتب عدة مقالات فى جرائد إقليمية . وقد اكتشف منها مقال أو مقالتان . وليس فيهما ما يلفت النظر ، ولكنهما تدلان على أنه قد قام بالكثير من القراءات المتفرقة التى لا تخضع لنظام ، وتتسمان بالافتعال والتصنع فى الأسلوب ، وهو ما لم يستطع أن يتخلص منه على الإطلاق حتى مماته ، وأعنى بها إشارته دون ما سبب منطقى إلى آلهة الأساطير وإلى شخصيات تاريخية وررومانسية ، وإلى أنواع شتى من الكتاب . وكما كتب ريموند ويفر بصراحة : « لقد ذكر بيرتون وشكسبير وبايرون وميلتون ، وكولريدج وتشسترفيلد ، وكذلك بروميثيوس وسندريلا ومحمد وكليوباترا والعذراء وحوريس والميدتشى وموسلمان ، ونثر هذه الأسماء فوق صفحاته بلا مبالاة » .

ولكنه كان يتميز بروح محبة للمغامرة ، ويخيل إلينا أنه لم يعد آخر الأمر قادراً على احتمال الحياة ، والتى يبدو أن الظروف قد حكمت عليه بها . ورغم أنه كره الحياة تحت صارى المركب» إلا أنه قرر الذهاب إلى البحر مرة أخرى ، وفى عام ١٨٤١ أبحر من نيوبدفورد على مركب لصيد الحيتان اسمها آكوشنت ، كانت فى طريقها إلى الباسفيك ، وباستثناء شخص واحد فقط ، كان جميع البحارة خشنين ومتوحشين وغير متعلمين ، أما الاستثناء فكان صبياً فى السابعة عشرة من عمره ، يدعى ريتشارد توبياس جرين . وإلى القارئ ما كتبه ملفيل وهو يصفه : « وهب توبى مظهراً أخاذاً يلفت النظر ، كان وسيما أنيقا فى سترته الزرقاء ، وبنطلونه المتسع كما لم يبد بحار آخر من قبل . كما كان صغير الحجم خفيف الحركة . وقد زاد من سمرة بشرته السمراء تعرضه للشمس فى المناطق الحارة ، وكانت كتلة من الخصلات السوداء ، المنسدلة على صدغيه ، تلقى بظلال داكنة على عينيه السوداوين الواسعتين» .

وبعد خمسة عشر شهراً من التجوال ، رست السفينة آكوشنت عند نوكاهيڤا ، وهى إحدى جزر ماركويساس ، وكان الصبيان قد كرها عناء الحياة على سفينة الصيد كما كرها فظاظة القبطان ، فقررا الهرب واستوليا على كميات كبيرة من التبغ والبسكويت والأقمشة القطنية (لإهدائها للمواطنين) لقد أخذا كميات منها يمكن

إخفاؤها تحت ملابسهما ، وهربا إلى داخل الجزيرة . وبعد عدة أيام قاما خلالها بمغامرات متفرقة ، وصلا إلى الوادى، الذى يقطنه أهالى تيبى ، وهناك استقبلا بترحاب كبير . وبعد فترة قصيرة من وصولهما خرج توبى ، بحجة الحصول على معونة طبية . فقد جرح ملفيل ساقه وهو فى الطريق ، وكان الجرح يسبب له آلاماً أثناء السير . لكنهما فى الواقع كانا يعدان العدة للهرب . فقد عرف عن أهالى تيبى أنهم من أكلة لحوم البشر، وقد هداهما تفكيرهما إلى أنه ليس من الحكمة فى شىء، أن يتوقعا باستمرار هذا الكرم الذى صادفاه . لكن توبى لم يعد أبداً ، واتضح بعد مضى فترة طويلة أنه ما إن وصل توبى إلى الميناء حتى اُختطف فى سفينة لصيد الحيتان ، أما ملفيل فقد أمضى فى الوادى أربعة أشهر ، على حد قوله . وقد أحسنوا معاملته ، وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين فتاة تدعى فاياواى وكان يسبح معها ويركب معها الزوارق، وكان سعيداً لاينغصه إلا خوفه من أن يأكلوه . وحدث أن عرف قبطان إحدى سفن صيد الحيتان الراسية فى ميناء نوكاهيفا ، أن هناك بحاراً وقع فى أيدى أهالى تيبى . ونظراً لأن كثيراً من بحارته كانوا قد هجروا السفينة ، فقد أرسل قارباً يحمل شحنة من الرجال المحرم الاقتراب منهم أو الاختلاط بهم ، لإطلاق سراح الرجل . ويقول ملفيل إنه حاول أن يقنع الأهالى بتركه يذهب إلى الشاطئ ، وبعد مناوشة قتل فيها رجلا بالمجداف استطاع الهرب.

غير أن الحياة فى السفينة (چوليا) التى التحق بها الآن ، كانت أشد بشاعة من الحياة فى آكوشنت ، وما إن وصلت چوليا إلى بابيتى حتى تمرد طاقم الباخرة . ولقد قيدوا بالسلاسل خمسة أيام فى مركب بالأسطول الفرنسى ، وبعدمحاكمتهم فى بابيتى أرسلوا إلى السجن المحلى . وأبحرت السفينة چوليا بطاقم جديد، أما المسجونون فقد أطلق سراحهم بعد فترة قصيرة . ولقد أبحر ملفيل مع بحار آخر من الطاقم القديم وهو طبيب دخل معترك الحياة . ولقد أسماه ملفيل الدكتور (لونج جوست) وأبحرا إلى الجزيرة المجاورة ايميو، وهناك أجر الأثنان نفسيهما لاثنين من المزارعين لكى يزرعا البطاطس ، ولم يكن ملفيل يحب الزراعة عندما كان يعمل لحساب خاله فى ماساتشوسيتس، وكان أقل حباً لها تحت شمس بولينزيا المحرقة. وأخذ يهيم على وجهه مع دكتور لونج جوست ويتعيشان على حساب الأهالى : وفى النهاية ترك ملفيل

الطبيب ، وأقنع قبطان سفينة لصيد الحيتان أسماها (التنين) لكى يلحقه بالعمل عليها . وعلى هذه السفينة وصل إلى هونولولو . ولانعرف على وجه التحديد ما فعله هناك . والمفروض أنه عمل هناك كاتباً ثم أبحر على ظهر إحدى البوراج الأمريكية (يونيتدستيتس) كبحار عادى ، وبعد عام فصل من الخدمة بعد وصول السفينة إلى أرض الوطن .

وصلنا الآن إلى عام ١٨٤٤ . لقد بلغ ملفيل الخامسة والعشرين ، ولاتوجد صورة له وهو شاب ، ولكننا نستطيع أن نتصوره من صوره التى أخذت له وهو فى أواسط عمره ، إنه كان طويلا وهو فى العشرينات متسق الأجزاء، قوياً نشيطاً، له عينان ضيقتان إلى حدما ، وله أنف مستقيم ، وبشرة ناضرة ، وله رأس جميل وشعر متهدل .

لقد عاد إلى وطنه ليجد أن أمه وشقيقاته قد استقر بهن المقام فى لانزنجبرج وهى إحدى ضواحى ألبانى . أما أخوه الأكبر جنزڤورت فقد أغلق محل الفراء وأصبح محامياً وسياسياً ، كذلك أصبح أخوه الثانى الآن محامياً واستقر به المقام فى نيويورك ، أما أخوه الأصغر توم الذى ذهب إلى البحر فيما بعد مثل هرمان ، فكان لايزال صغيراً . وجد هرمان نفسه موضع الاهتمام باعتباره « الرجل الذى عاش بين أكلة لحوم البشر » وقد قص مغامراته على جمهور جد مشوق لسماع حكاياته ، وحثوه على أن يؤلف كتاباً ، وقد شرع فى ذلك على الفور .

لقد سبق أن جرب قلمه فى الكتابه ، وإن كان لم يصب نجاحاً كبيراً ، ولكن كان عليه أن يتكسب . وعندما انتهى من كتابه « تيبى » الذى وصف فيه إقامته فى جزيرة نوكاهيڤا ، عرض أخوه جنزڤورت – وكان قد ذهب إلى لندن كسكرتير الوزير الأمريكى – الكتاب على چون مورى الذى قبله ، وبعد مضى فترة نشرته داروپلى وپوتنم فى أمريكا . وقوبل الكتاب أحسن استقبال مما شجع ملفيل على الكتابة ، فاستكمل الحديث عن مغامراته فى جنوب الباسفيك فى كتاب أسماه(أمو).

وقد ظهر الكتاب عام ١٨٤٧ وفى ذلك العام تزوج إليزابيث الابنة الوحيدة لكبير القضاة شو ، وكانت هذه الأسرة معروفة لدى آل ملفيل منذ عهد طويل ،

وانتقل الزوجان الشابان إلى نيويورك ، حيث عاشا فى بيت آلان ملفيل رقم ١٠٣ فى « الفورث آفنيو » مع شقيقات هرمان والان : أوجستا وفانى وهيلين ، ولانعرف لماذا تركت الفتيات الثلاث أمهن فى لانزنجبرج . واستقر هرمان ليكتب . وفى عام ١٨٤٩ بعد سنتين من زواجه ، وبعد أشهر قلائل من مولد أول طفل له سماه ما لكولم ، عبر الأطلنطى مرة أخرى ، وقد عبره فى هذه المرة كمسافر ، ليقابل الناشرين ، ويمهد لنشر كتابه « السترة البيضاء » وهو الكتاب الذى يصف فيه تجاربه فى البارجة « يونيتدستيتس » ومن لندن ذهب إلى باريس وبروكسل ، حتى نهر الراين . وكتبت زوجته ما يلى فى مذكراتها الجافة الجدباء : «صيف عام ١٨٤٩. بقينا فى نيويورك . وكتب « ردبورن » و « السترة البيضاء » . فى خريف نفس العام ذهب إلى إنجلترا ، ونشر المذكور أعلاه . لم تعجبه إنجلترا كثيراً لحنينه إلى الوطن ، وعاد مسرعاً تاركاً دعوات مغرية لزيارة بعض ذوى الشأن — إحداها دعوة ديوك روتلاند لقضاء أسبوع فى قلعة بلفوار — يرجع فى ذلك إلى مذكراته . ذهبنا إلى بتسفيلد وقضينا صيف عام ١٨٥٠ وتحركنا إلى آروهيد فى الخريف — أكتوبر عام ١٨٥٠ » .

وآروهيد هو الاسم الذى أطلقه ملفيل على مزرعة بتسفيلد ، لقد اشتراها بمال قدمه إليه كبير القضاة ، وفيها استقر مقامه مع زوجته وطفله وشقيقاته ، وتقول مسز ملفيل فى يومياتها بطريقتها العملية الواقعية : « كتب « الحوت الأبيض » أو «موبى ديك » فى ظروف غير مواتية — كان يجلس إلى مكتبه طوال اليوم ولا يكتب شيئاً حتى الرابعة أو الخامسة — ثم يذهب إلى القرية بعد هبوط الظلام — ويستيقظ مبكراً ويتجول قبل تناول الإفطار — وفى بعض الأحيان ينشر الأخشاب من قبيل الرياضة. لقد أحسسنا جميعاً بالقلق إزاء هذا الضغط على صحته فى ربيع عام ١٨٥٣ » .

وعندما استقر المقام بملفيل فى آروهيد، اكتشف أن هوثورن يعيش فى نفس الجيرة . ولقد حدث له ما يحدث لتلميذة حين يجن جنونها بكاتب كبير ، وربما تسبب هذا الجنون — إلى حدما — فى مضايقة هوثورن ، ذلك المتحفظ ، المنطوى، الذى لا يميل إلى المظاهر . وكانت الخطابات التى كتبها ملفيل ملتهبة : « إننى أحس أننى سأغادر هذا العالم وقد أخذت من السعادة جرعات إضافية لأننى

عرفتك » قال هذا فى أحد خطاباته ومضى يقول : « إن معرفتى لك لتقنعنى بحقيقة الخلود أكثر مما يقنعنى الإنجيل». وفى المساء كثيراً ما كان يذهب إلى ردهاوس فى لينوكس ليتحدث – حديثاً يضايق هوثورن قليلا فيما يبدو – ويتناول موضوعات « العناية الإلهية والمستقبل وكل شيء يقصر عن فهم الإنسان » وبينما كان المؤلفان يتناقشان كانت مسز هوثورن تقوم بأعمال الحياطة ، وقد كتبت فى خطاب أرسلته إلى أمها تصف ملفيل * : « لست متأكدة من أنه ليس برجل عظيم جداً . . إنه رجل له قلب دافئ وصادق وله روح وعقلية ، والحياة تغمره ، وهو متحمس ، ومخلص يحترم الناس ، وهو رقيق جداً ومتواضع . . . ولديه قدرة على الإدراك حادة للغاية ، لكن الذى يدهشنى هو أن عينيه ليستا واسعتين وعميقتين ، ويبدو أنه يرى كل شيء بكل دقة ، ولا أستطيع أن أعرف كيف يستطيع ذلك بعينيه الصغيرتين . إنها ليست عيون ثاقبة أيضاً ، فهى لاتستلفت النظر بأى حال . أما أنفه فمستقيم وجميل نوعاً، وفمه يعبر عن الحساسية، والعاطفة ، وهو طويل ممشوق ، فيه سماحة وشجاعة ورجولة . وعندما يتجاذب أطراف الحديث تكثر حركته، ويتكلم بقوة ويذوب فى موضوعه. لاتزويق ولاتنميق . وأحياناً تتحول حيويته إلى تعبير هادئ بشكل غريب . تعبير يرتسم فى عينيه اللتين اعترضت عليهما . وتطل نظرة عميقة معتمة ، ولكنها فى نفس الوقت تشعرك بأنه فى هذه اللحظة يلاحظ أمامه أدق وأعمق ملاحظة، إنها نظرة غريبة متراخية ، ولكنها تتميز بقوة فريدة تماماً، إنها لاتبدو وكأنها تخترقك، بل تستوعبك استيعابا ** . »

وغادر آل هوثورن لينوكس ، وانتهت الصداقة التى كان ملفيل متحمساً لها والتى كان يحس بها فى أعماق نفسه ، بينما كانت هادئة ، وربما محرجة بالنسبة لهوثورن. وقد أهدى له ملفيل « موبى ديك » . ولا نجد بين أيدينا الخطاب الذى أرسله إليه بعد قراءة الكتاب ، ولكن يبدو من ردملفيل كما لو أنه استشف أن الرواية لم تعجب هوثورن ، كذلك لم تعجب الجمهور ولم تعجب النقاد ، حتى رواية « بيير » التى أعقبتها ، لقيت مصيراً أسوأ ، واستقبلت باحتقار وازدراء . ولم يجن من

---

* الكلمات التى تحتها خط من عمل مسز هوثورن .

** اقتبسها ريموندويفرفى كتابه « هرمان ملفيل ملاحا وصوفيا » .

كتاباته إلا قليلا جداً من المال ، وكان ملفيل يعول إلى جانب زوجته ولدين وابنتين وربما ثلاث شقيقات أيضاً . ونستطيع أن نحكم من خطابات ملفيل أنه كان يرى فى زراعة أرضه الخاصة أمراً لا يناسب ذوقه ، نفس الشعور الذى كان يخالجه وهو يحصد محاصيل خاله فى بتسفيلد . أو يزرع البطاطس فى إميو . والواقع أنه لم يكن يهتم بالعمل اليدوى على الاطلاق : « أنظر إلى يدى ! أربعة فقاقيع فى راحتى هذه ، سببتها الفؤوس والمطارق التى استخدمتها خلال الأيام القليلة الأخيرة . إنه صباح ممطر ، ولذلك فأنا ملازم البيت ، والعمل كله معطل ، أشعر بأننى مبتهج وفى حالة طيبة . . . » ومزارع له مثل هاتان اليدان الناعمتان لا يمكن أن ينجح ويكسب من زراعته ، ويبدو أن حماه رئيس القضاة كان يقدم مساعدات مالية للعائلة من حين لآخر ، ونستطيع أن نفترض لما تميز به من رجاحة العقل ، إلى جانب عطفه الشديد ، كما هو واضح ، أن هذا الرجل هو الذى اقترح على ملفيل أن ينشد طريقاً آخر لكسب العيش. ولقد كانت هناك محاولات عديدة للحصول على وظيفة فى قنصلية ، ولكن دون نجاح ، فكان لزاماً عليه أن يستمر فى الكتابة ، ولتى المتاعب ، ولكن رئيس القضاة عاد لإنقاذه مرة أخرى : ففى عام ١٨٥٦ سافر إلى الخارج مرة ثانية إلى القسطنطينية وفلسطين واليونان وإيطاليا ، وعندما عاد إلى الوطن سعى إلى كسب شيء من المال بإلقاء محاضرات . وفى عام ١٨٦٠ قام بآخر رحلة له . فقد كان أخوه الأصغر توم قبطانا لسفينة سريعة تعمل فى تجارة الصين (متيور) وعلى ظهرها أبحر ملفيل إلى سان فرنسسكو ، وقد نتوقع أن تدفعه روح المغامرة إلى أن ينتهز فرصة كهذه للذهاب إلى الشرق الأقصى ، ولكن لسبب ما نجهله ، إما لأنه ضاق ذرعا بأخيه أو لأن أخاه أصبح لا يحتمله ؟ فقد غادر السفينة فى سان فرنسسكو وعاد لبلده ؛ ومات رئيس القضاة . وعاش آل ملفيل فى فقر شديد عدة سنوات ، وفى عام ١٨٦٣ قرروا مغادرة آروهيد . واشتروا منزلا فى نيويورك من آلان ، وهو الشقيق الموسر لملفيل وأعطوه ما يملكونه فى آروهيد كجزء من ثمن هذا المنزل الجديد . أما المبلغ المتبقى عليهم فدفعوه من قيمة رهن المنزل . وفى هذا المنزل الذى يقع فى الشارع السادس والعشرين رقم ١٠٤ عاش ملفيل بقية حياته .

وفى ذلك الوقت كما يقول ريموند ويفر . كان يرضيه أن يربح مائة دولار فى

العام من حصصه فى كتبه، وفى عام ١٨٦٦ استطاع أن يحصل على وظيفة مفتش فى الجمارك ، وأخذت أحوال الأسرة تتحسن . وفى العام التالى أطلق مالكولم ابنه الأكبر الرصاص على نفسه فى حجرته . ولم يعرف ما إذا كان الحادث مدبراً أو قضاء وقدراً ، أما ابنه الثانى ستانويك فقد هرب من البلدة ولم يعرف عنه شئ بعد ذلك . وظل ملڤيل فى وظيفته المتواضعة بالجمارك مدة عشرين عاماً ، ثم ورثت زوجته أموالا من أخيها صمويل، فكان أن استقال . وفى عام ١٨٧٨ نشر على حساب خاله جنزڤورت قصيدة من الشعر من عشرين ألف بيت واسمها «كلاريل» وقبل موته بوقت قصير كتب أو أعاد كتابة رواية صغيرة اسمها « بيللى بد » ومات عام ١٨٩١ منسيًّا ، وكان آنئذ فى الثانية والسبعين .

تلك هى قصة حياة ملڤيل موجزة كما رواها كتاب سيرته ، ولكن من الواضح أن هناك الكثير الذى لم يذكروه . فقد مروا مر الكرام على موت مالكولم وهروب ستانويك من البلدة كما لو كان هذان الحادثان لا أهمية لهما . ليس من شك فى أن رسائل تبودلت بين مسز ملڤيل وأخوتها عندما أطلق الفتى وهو فى سن الثامنة عشرة من عمره الرصاص على نفسه ، وكل ما نستطيع أن نخمنه أن ستاراً من التكتم قد أسدل على هذه الرسائل ، وصحيح أن شهرة ملڤيل كانت قد تضاءلت بحلول عام ١٨٦٧ ، ولكننا نتوقع أن يذكر هذا الحادث الصحافة بوجوده ، وأنه سيرد ذكره فى بعض الصحف . والظروف التى أحاطت بموت الفتى ، ألم يدر بشأنها تحقيق ؟ إذا كان قد انتحر فما الذى دفعه إلى ذلك ؟ ولم هرب ستانويك ؟ كيف كانت ظروف حياته فى البيت التى دفعته للإقدام على هذه الخطوة ، وكيف أن شيئاً لم يعرف عنه بعد هذا الهرب ؟ إننا نستطيع أن نفترض أنه قد مات أيضاً ، إذ قد قيل لنا إن مسز ملڤيل وابنتيها هن اللائى حضرن جنازة ملڤيل، وهن أقرب أعضاء الأسرة الأحياء . ومبلغ علمنا أن مسز ملڤيل كانت أمًّا صالحة وعطوفة ، وبقدر ما نعلم أيضاً فإن من الغريب أنها لم تتخذ أية خطوة للاتصال بالابن الوحيد الذى بقى حيًّا . والشواهد ترينا أن ملڤيل كان مغرماً فى شيخوخته بأحفاده ، أما شعوره نحو أولاده هو فكان غامضاً . أما لويس ممفورد الذى تتسم سيرته عن ملڤيل بالتعقل ، والتى توحى كل الشواهد بأنها معتمدة ، فيعطينا صورة كئيبة

لعلاقة ملفيل بأبنائه . إذ يبدو أنه كان أباً خشناً نافد الصبر ، يسبب لهم المتاعب بلارحمة : « إن بنتاً من بناته لم تكن تستعيد صورة والدها إلا بشيء من الامتعاض المؤلم . . كان يشترى عملا فنياً ، كتاباً أو تمثالا لقاء عشرة دولارات ، بينما لايكاد يتوافر الخبز الذى يقتاتون به ، إذن فمن ذا الذى تدهشه ذكرياتهن السوداء؟» . ويبدو أنه كانت لديه قدرة على المزاح لا يستسيغونها كثيراً ، وإذا استطعت أن تقرأ ما بين السطور ، فإنك لاتملك إلا أن تشك فى أنه كان يعود للبيت فى بعض الأحيان وهو مخمور . لكننى أسارع إلى القول بأنه ليس هناك دليل مباشر يثبت صحة ذلك . ولكن ليست هناك أيضاً دلائل كثيرة لأى شيء يؤكد أى رأى قد يصل إليه المرء فيما يتعلق بشخصية ملفيل ، ولايسع المرء إلا أن يظل فى مجال التكهن حين يقرر بأنه كان أنانياً . كارهاً للعمل ، غير كفء .

ما الذى جعل الرجل الذى كتب « تيبى » و « أمو » يتحول إلى الرجل الذى كتب « موبى ديك » و « بيير » ، وما الذى جعله خامل الذكر ولما يتعد الثلاثين ؟ لقد وجدت أن «أمو » أصلح للقراءة من « تيبى » . فهى سرد مباشر لتجارب ملفيل فى جزيرة إيميو ، ويمكن التسليم بها بوجه عام على أنها حقيقة واقعة : أما « تيبى » فهى تبدو خليطاً من الحقيقة والخيال . وكما يرى تشارلز روبرتز آندرسون فإن ملفيل قد أمضى شهراً واحداً فقط فى جزيرة نوكاهيفا ، وليس أربعة أشهر كما ادعى ، ولم تكن المغامرات التى صادفته فى الطريق إلى وادى قبيلة « تيبى » مثيرة ومرعبة إلى هذا الحد الذى يصوره . وينطبق هذا أيضاً على الأخطار التى تعرض لها بسبب ما ادعاه من حب هذه القبيلة للحوم البشر ، أما قصة هروبه كما يصورها فتبدو بعيدة الاحتمال « إلى حد كبير » . . . إن مشهد الهروب بأكمله رومانسى وغير مقنع ويبدو أنه كتب فى عجلة ، وبهدف الظهور بمظهر البطل أكثر من الاهتمام اللائق بالمنطق أو الدقة الدرامية » . ولا ينبغى أن نلوم ملفيل على هذا ، فنحن نعرف أنه كثيراً ما كان يكرر وصف مغامراته لمن يريد الاستماع إليه ، والكل يعرف كيف أنه من الصعب أن يقاوم المرء الإغراء لكى يجعل قصته أحسن قليلا ، وأكثر تشويقاً فى كل مرة يحكيها . ولقد كان من الممكن أن يحس بحرج وهو يكتبها عندما يضطر إلى كتابتها فيذكر الحقائق المعقولة ، ولايذكر الحقائق المثيرة ، وهو الذى تعود فى أحاديثه مرات ومرات

أن ينمقها ويضيف إليها كما يشاء. والواقع أن « تيبى » تبدو بمثابة تجميع لمواد وجدها ملفيل فى كتب الرحلات المعاصرة له ، وكان أن أضفى عليها صبغة جد خلابة من واقع تجاربه هو. ولقد ذكر لنا مستر آندرسون الدءوب ، أنه لم يكن يكرر فقط الأخطاء التى حوتها كتب الرحلات هذه ، بل كان يستخدم فى كثير من الحالات نفس كلمات المؤلفين. وأعتقد أن هذا يفسر بعض ما يجده القارئ من ثقل فيها. ولكن « تيبى » و « أمو » مكتوبتان باغة عصره. وكان ملفيل يميل إلى الكلمة الأدبية أكثر مما يميل إلى الكلمة السهلة : وعلى سبيل المثال كان يفضل أن يختار لكلمة البناء edifice بدلا من building ، كذلك لايقول إن كوخ فلان « قريب » من كوخ الآخر مستخدماً كلمة near ، إنما يستخدم كلمة in the vicinity أى « فى الجيرة » وهو يختلف عن معظم الناس ، فهم يحسون بأنهم تعبون tired أما هو ف fatigued ، وهو يفضل أن يظهر شعوره مستخدماً كلمة evince بدلا من show feeling .

ولكن صورة مؤلف هذين الكتابين تتبدى واضحة ، ولا تحتاج إلى إعمال الخيال لكى تدرك أنه كان رجلا صعب المراس ، شجاعاً ، ذا عزم وتصميم ، وروحه عالية ، وكان لايحب العمل ، ولكنه لم يكن كسولا وهو مرح ، لطيف المعشر ، ودود ، لايحمل هما. وكان معجباً للغاية بجمال الفتيات البولنديات ، مثله فى ذلك مثل أى فتى فى سنه ، وقد يكون غريباً إذا لم يستجب لتوددهن إليه. كان هناك شىء غير عادى فيه وهو حبه الشديد للجمال ، وهو أمر لا يأبه له الشباب عادة ، وهناك شىء من العمق فى وصفه المتحمس ، للبحر والسماء والجبال الخضراء. وربما كانت السمة الوحيدة التى تميزه عن غيره ، من البحارة لمن هم فى الثالثة والعشرين هى أنه كان ذا طبيعة تأملية ، وكان يدرك ذلك. وقد كتب بعد ذلك بفترة طويلة يقول : « إن مزاجى يتسم بطابع التأمل ، وكثيراً ما اعتدت وأنا فى البحر أن أصعد إلى أعلى المركب فى ظلام الليل ، وأن أجلس فى أحد الطوابق العليا وقد تدثرت بسترتى وأطلقت العنان لتأملاتى ».

كيف يستطيع المرء أن يفسر تحول هذا الشاب السوى إلى الشخص المتوحش المتشائم الذى كتب رواية « ببير » ؟ ما الذى أحال الكاتب العادى الذى لايتميز

بشيء والذى ألف « تيبى » إلى ذلك المؤلف ذى الخيال الغامض القوى ، الملهم البليغ ، الذى كتب « موبى ديك » ؟ حسنا ، فى هذه الأيام التى سادفيها الإحساس بالجنس ، فإننا نبحث عن الأسباب الجنسية لتفسير الظروف الغريبة .

لقد كتب ملفيل روايتى « تيبى » و « أمو » قبل أن يتزوج اليزابيث شو . وخلال السنة الأولى من زواجهما كتب « ماردى » . وهى تبدأ كما لو كانت تسلسلا مباشراً لمغامراته قبل عمله فى البحار ، ولكنها تتحول بعد ذلك فتصبح خيالية بصورة وحشية . إنهامتشعبة ومملة ومرهقة فى رأيى . ولا أستطيع أن أفسر موضوعها ، خيراً مما فعل ريموند ويفر : « إن ماردى ر اية تبحث عن الامتلاك الكامل الذى لا ينقسم لذلك الفرح الغامض المقدس ، الذى مس ملفيل خلال الفترة التى خطب فيها ود زوجته المستقبلة ، قد استشعر هذا الفرح عندما ضحى بحبه لأمه ، فى غمرة حبه لإليزابيث شو . . . كذلك تعتبر رواية « ماردى » رحلة للبحث عن بريق ضائع . . البحث عن « ييلا » ، وهى عذراء من جزيرة البهجة أوروليا . وثمة رحلة تمر بالعالم المتمدين بحثاً عن هذه الفتاة : وبالرغم من أن «أشخاص الرواية» ، يجد ون الفرصة التى يناقشون فيها السياسة الدولية ، وموضوعات أخرى شتى إلا أنهم لا يجدون « ييلا » .

لو أردنا أن ننساق إلى التخمين ، لاعتبرناهذه القصة الغريبة أول بادرة لخيبة أمله فى الحياة الزوجية ، ونستطيع أن نخمن ماذا كانت عليه اليزابيث شو ، مسز ملفيل ، من الخطابات القليلة التى بقيت . لم تكن تجيد كتابة الخطابات ، وربما كان فى شخصيتها الكثير لم تكشف عنه هذه الخطابات ، ولكنهاترينا على الأقل أنها كانت تحب زوجها ، وأنها كانت امرأة عاقلة عطوفة وعملية ، بالرغم من أنها قد تكون ضيقة الأفق وتقليدية ، لقد احتملت الفقر دون شكوى ، ولاشك أنها احتارت إزاء التطورات التى طرأت على زوجها ، وربما أسفت لأنه بدا وكأنه قد أفسد الشهرة والشعبية اللتين اكتسبهما بفضل « تيبى » و« أمو » ، ولكنها ظلت تؤمن به وتعجب به حتى النهاية . لم تكن بالمرأة المثقفة ، ولكنها كانت زوجة صالحة ، ومتسامحة ، ومحبة .

ترى هل أحبها ؟ إن الخطابات التى ربما كان قد كتبها خلال فترة خطبته لم تصل إلينا . لقد تزوجها . ولكن الرجال لا يتزوجون للحب فقط . ربما كان قد

شبع من حياة التجوال، وأراد أخيراً أن يستقر : ومن بين الأمور الغريبة فى هذا الرجل الغريب أنه بالرغم من أنه على حد قوله « من طبيعة محبة للتجوال » نجد أن تعطشه للمغامرة قد خمد بعد أول رحلة له وهو صبى إلى ليفربول ، وقضاء ثلاث سنوات فى بحار الجنوب . أما عن تلك الرحلات التى قام بها فيما بعد، فكانت مجرد رحلات سياحية قصيرة . وربما تزوج ملفيل لأن عائلته وأصدقاءه رأوا أن الوقت قد حان لكى يتزوج ، ربما تزوج لكى يصارع ويتغلب على تلك الميول التى أحزنته ، من يدرى ؟ يقول لويس ممفورد « إنه لم يكن سعيداً على الإطلاق وهو فى صحبة اليزابيث، كما لم يكن سعيداً أبداً فى بعده عنها » ويبدو أنه لم يحس نحوها بميل فحسب، بل «كان طوال غيابه هذه الفترات الطويلة ، تتجمع فى قلبه العاطفة » ولكنها سرعان ماترتوى . ولم يكن أول رجل يكتشف أنه يحب زوجته عند فراقه لها أكثر مما يحبها وهو معها ، وإن ما يتوقعه من المعاشرة الجنسية أكثر إثارة من هذه المعاشرة نفسها ، وأعتقد أن من المحتمل أن ملفيل كان يضجر من قيد الزواج ، وربما منحته زوجته أقل مما كان يأمل ، ولكنه ظل مستمراً فى علاقته الزوجية وقتاً طويلا إلى حد أنه أنجب أربعة أطفال . ومبلغ علمنا أنه ظل وفياً لها .

ولست بحاجة فى هذه المقالة إلى أن أتحدث عن روايته « بيير ». إنه كتاب لايقبله العقل . لاشك أن فيه أشياء دسمة : كان ملفيل يكتب بدافع من ألم ومرارة ، وكانت عواطفه من حين لآخر تدفعه إلى كتابة فقرات قوية وبليغة ، ولكن الحوادث غير معقولة والدوافع غير مقنعة ، والحوار متحذلق . إن رواية«بيير» جديرة بأن تكون من خيال تلميذة فى الرابعة عشرة، غذت عقلها المعتل بأردأ أنواع الروايات الخيالية الرومانسية . والواقع أنها توحى للمرء أنها كتبت تحت ظروف حالة مبكرة من الوسوسة « النوراستينيا ». ومع ذلك فالكتاب يعد ذخيرة للمحللين النفسانيين ، ويسرنى أن أدعه لهم .

ومع ذلك فأنا أتساءل ، ترى ماذا يقول المحللون النفسانيون عما فعله ملفيل عندما كان يلقى محاضرة عن النحت بعد عودته من رحلة إلى فلسطين وإيطاليا ، حيث علق تعليقاً خاصاً على التمثال اليونانى الرومانى المسمى أبوللو بلفدير . لقد قال عنه إنه إنتاج بليد يفتقر إلى الإلهام ، وكل ميزاته أنه يصور شاباً وسيما جداً . إن لملفيل عيناً تبصر جمال الرجال . وقد سبق أن وصفت الانطباع الذى أحس به تجاه توبى ،

ذلك الفتى الذى هرب معه من « آكوشنت » ، وفى رواية « تيبى » أبدى أكثر من ملاحظة عن الكمال الجسمانى للشبان الذين يرافقهم . ولعل القارئ يذكر أنه فى سن السابعة عشرة أبحر فى سفينة متجهة إلى ليفربول . وهناك صادق صبياً يسميه هارى بولتون . وفيما يلى طريقة وصفه له فى رواية « ردبورن »: « كان واحداً من أولئك الصغار ، ولكنه مكتمل التكوين ذو شعر متموج ، وله عضلات ناعمة ، ويبدو وكأنه ولد داخل غلالة حريرية وبشرته سمراء ناعمة، كما لو كانت بشرة فتاة، وكانت ، قدماه دقيقتين، ويداه شديدتى البياض، وعيناه واسعتين سوداوين ومثل عيون النساء، وصوته كصوت القيثارة إلى جانب شاعريته » .

وهناك شك فى النزهة السريعة التى قام بها الصبيان إلى لندن ، وهى النزهة التى لاتبدو مقنعة بالمرة عند قراءتها، حتى إذا كان هناك وجود لشخص مثل هارى بولتون. ولكن إذا كان ملفيل قد ابتدعه ليضيف حادثة مثيرة إلى كتابه، فإنه من الغريب أن يبتدع شخص فى رجولة ملفيل شخصية، من الواضح أنها شاذة جنسياً .

كان أعظم صديق لملفيل فى البارجة « يونيتدستيتس » بحاراً إنجليزياً يدعى جاك تشيز « طويل القامة متسق البنيان ، ذو عينين واسعتين صافيتين ، وجبهة عريضة وجميلة ، ولحية كثة ، بنية اللون » . وكتب فى « السترة البيضاء » يقول: « كان هذا الرجل يفيض برجاحة العقل والمشاعر الطيبة لدرجة أن الذى لايحبه كان يحكم على نفسه بأنه شرير » وأكثر من هذا أن ملفيل كتب يقول : « وأيا كان المكان الذى تمخر فيه عباب الأمواج الزرقاء ياعزيزى جاك فليصحبك حبى العميق ، وليباركك الله حيث ذهبت » يالها من لمسة رقة ندر أن نجدها فى ملفيل ! لقد ترك هذا البحار أثراً عميقاً فى ملفيل ، لدرجة أنه خصص له روايته الصغيرة« بيلى بد» والتى أكملها قبل وفاته بثلاثة أشهر وبعد مضى خمسين عاما على معرفته بتشيز . والقصة تعتمد على جمال البطل الأخاذ وهذا هو السبب فى أن كل من كان على السفينة أحبه ، وهو الأمر الذى أدى به بطريقة غير مباشرة إلى نهايته المحزنة .

لقد أطلت الوقوف عن هذه الصفة الشخصية لملفيل ، لأنها من الممكن أن تفسر عدم رضائه عن الحياة الزوجية ، وربما أيضاً كان فشله فى الجنس هو السبب فى التغير الذى حدث له والذى حير كل من اهتم بحياته . أعتقد أن

الاحتمالات تشير إلى أنه كان رجلا أخلاقياً جداً ، ولكن أنّى للإنسان أن يعرف الغرائز التي قد لايعترف صاحبها بها ، وحتى إذا اعترف فإنه يكبتها بغضب ، ولايستسلم لها أبداً ، اللهم إلا فى الخيال ، أقول أنّى للإنسان أن يعرف الغرائز التى قد تستقر فى كيان المرء ، والتى قد لاينصاع إليها أبداً ، ومع ذلك قد تؤثر على مزاجه تأثيراً ساحقاً ؟

وقد قيل إن التغير الذى حدث فى شخصية ملفيل وحوّله من مؤلف « تيبى » إلى مؤلف « موبى ديك » كان بسبب نوبة من الجنون . أما أنه فقد عقله فى يوم من الأيام فشىء أنكره المعجبون به بحماس بالغ ، وكأنه أمر مخجل ، لكنه ليس أدعى إلى الخجل من الإصابة بأى مرض آخر من الأمراض . مهما يكن الأمر ، فإنه لو كان هناك دليل يثبت هذا ، فإن هذا الدليل لم يقدمه أحد على ما أظن . وقد قيل أيضاً إن السبب فى تغيير ملفيل إلى هذا الحد الهائل ، بحيث أصبح رجلا مختلفاً ، انصرافه إلى القراءات الكثيرة عندما انتقل من لا نزنجبرج إلى نيويورك ، وهناك الفكرة القائلة بأنه جن بسير توماس براون مثلما جن دون كيشوت بمغامرات الفروسية ، غير أنها فكرة غير مقنعة . بل هى ساذجة . وقد يتضح السر إذا عثر الباحثون على مزيد من الوثائق ، أما فى الوقت الحاضر فإن السر سيبقى دون تفسير . لقد تحول الكاتب ، بطريقة غير معلومة من كاتب عادى إلى كاتب يكاد يكون عبقرياً .

وبالرغم من أن قراءات ملفيل لم تسر على نظام ، إلا أنه قرأ الكثير . وكان واضحاً أنه انجذب ، بصفة خاصة ، إلى شعراء وكتاب القرن السابع عشر ، ويتعين علينا أن نفترض أنه وجد فيهم شيئاً ، يتمشى بصفة خاصة مع ميوله المضطربة . فهل كان تأثيرهم عليه ضاراً أم محموداً ، فهذا رأى شخصى . فهو لم يهضم تماما الثقافة التى حصل عليها فيما بعد . فالثقافة ليست شيئاً ترتديه وكأنك ترتدى حلة جاهزة ، وإنما هى غذاء تهضمه وتبنى به شخصيتك ، تماماً مثلما يبنى الطعام جسم الصبى الآخذ فى النمو . ليست الثقافة حلية ترصع بها عبارة ، وليست بالمرة شيئاً تستعرض به معلوماتك وإنما هى وسيلة ، يتم الوصول إليها بشق الأنفس ، لإثراء الروح .

ولقد ادعى روبرت لويس ستيفنسون أن ملفيل يفتقر إلى الأذن الحساسة : لكنى

أعارضه، وأقول إن أذنه كانت حساسة للغاية . وبالرغم من أنه كان يخطئ فى الهجاء أحياناً فى قواعد اللغة، إلا أنه كان يتمتع بإحساس رائع بالإيقاع . وقد تطول جمله إلا أنه يحقق بينها توازناً رائعاً . كان يحب العبارة الرنانة، وكانت الألفاظ الفخمة التى يستخدمها فى كثير من الأحيان، تساعده على إحداث تأثيرات جمالية عميقة. وفى بعض الأحيان كان هذا الميل يقوده إلى الإطناب ، كأن يتحدث عن « الظل الوارف » بدلا من أن يقول الظل الظليل. لكن لاأحد ينكر أن إيقاع اللفظ ثرى . وأحياناً يفاجأ القارئ بإطناب مثل « السرعة العجلى » كى يكتشف بشىء من الرهبه أن ملتون كتب يقول « وأسرعوا إلى هناك فى عجلة ، وهم فرحون » . وفى بعض الأحيان يستخدم ملڤيل كلمات عادية ، ولكن بطريقة غير متوقعة ، وكثيراً مايُحدث بهذا إحساساً جديداً ممتعاً ، وحتى لو بدا لك أنه استخدم هذه الكلمات فى معنى لايحتملها ، فمن التهور أن تلومه « بسرعة عجلى» ، ذلك أن الوضع قد يخول له الحق فى ذلك. وعندما يتحدث عن الشعر « الزائد » redundant فقد يتراءى لك أن هذا النوع من الشعر قد يوجد على شفة فتاة ، ولا يمكن أن يوجد على رأس شاب ، ولكنك إذا بحثت عن الكلمة فى القاموس فستجد أن المعنى الثانى لكلمة redundant هو وافر وغزير . وقد تحدث ملتون (ملتون مرة أخرى) عن « الغدائر الزائدة redundant »

لكنى لا أتعاطف مع إعجاب ملڤيل بالكلمات العتيقة ، والكلمات التى لا تستخدم إلا فى سياق شعرى ، كأن يستخدم o'er بدلا من over و nigh و neer و ere بدلا من before . كما أن anon و eftsoons تضفى نغمة قوية أكثر من اللازم ، واستعراضية كاذبة لنثر متين قوى . وأعتقد أن من الممكن الدفاع عن تحيزه لاستخدام ضمير المخاطب المفرد . إنها طريقة شاذة للكلام، وربما لم تعد تستخدم لهذا السبب ، لكنى أعتقد أن ميلڤيل استخدمها لكى يحقق بها هدفاً، وضعه عن عمد نصب عينيه . ربما أحس أن ضمير المخاطب يضفى قدسية على الحوار الذى ينقله ، ويعطى نكهة شعرية للكلمات التى يستخدمها .

لكنها ، كلها ، أمور تافهة . وبالرغم من التحفظات التى قد يسوقها المرء ، إلا أن ملڤيل كتب إنجليزية ممتازة بشكل غير عادى . ووصل أسلوبه ذروته فى « موبى ديك » . وفى بعض الأحيان كانت الطريقة التى يسير عليها تؤدى به إلى

المبالغة البلاغية ، وإلى الأسلوب الضخم الفصيح الذى لم يصل إليه – فيما أعلم – أى كاتب محدث . والواقع أن هذا الأسلوب كثيراً ما يذكر المرء بالعبارات الطنانة لسير توماس براون ، وطريقة ملتون ، الفخمة ، فى الكتابة . ولا أستطيع أن أترك هذا العنصر من عناصر موضوعى دون أن ألفت نظر القارئ إلى البراعة التى حاك بها ملفيل ، فى نثره الدقيق ، المصطلحات البحرية العادية التى يستخدمها البحارة فى عملهم اليومى ، ومن شأن هذا أن يضفى نغمة واقعية وإحساساً بمذاق البحر الطازج ، فى تلك السيمفونية القاتمة ، تلك الرواية الفريدة « موبى ديك » .

وأى قارئ قرأ لى يوماً لن يتوقع أن أتحدث عن « موبى ديك » – قمة أعمال ملفيل ، والعمل الوحيد الذى يجعله يحتل مكانه مع كبار كتاب الرواية – لن يتوقع أن أتحدث عنها من زاوية غموضها ورمزها . على القراء أن يذهبوا فى هذا الصدد ، إلى كتاب غيرى . فأنا لا أستطيع أن أتناولها إلا من زاويتى ، زاوية روائى لا يفتقر إلى الخبرة. ولكن نظراً لأن بعض القراء الأذكياء قد اعتبروا « موبى ديك » موعظة ترمز إلى شىء ، فمن المناسب أن أناقش هذه النقطة. لقد رأوا أن ملاحظة ملفيل نفسه إنما هى ملاحظة ساخرة ، فقد كتب ملفيل يقول . إنه خشى أن ينظر إلى عمله كما لو كان «حكاية وحشية مخيفة» أو ما هو أسوأ من ذلك – وكريه على النفس – أن ينظر إليها على أنها قصة رمزية مخيفة لا تحتمل » . هل من الطيش أن نفترض أنه عندما يقول كاتب محترف «شيئاً ما ، فهو على الأرجح يعنى ما يقوله هو أكثر مما يظن المفسرون أنه يعنيه» ؟ صحيح أنه فى أحد الخطابات لمسز هوثورن كتب ملاحظة يقول فيها إنه بينما كان يكتب « طرأت لديه فكرة غامضة بأن بناء الكتاب يوشك أن يكون رمزياً . ولكن هذا دليل واه على أنه كانت لديه النية لكتابة قصة رمزية » . أليس من الجائز ، إذا كان الكتاب يقبل مثل هذا التفسير ، أن يكون قد جاء مصادفة ، ولدهشته البالغة ، كما يبدو من كلماته لمسز هوثورن ؟ إننى لا أعرف كيف يكتب النقاد الروايات ، ولكن لدى فكرة كيف يكتبها الروائيون . إنهم لا يأخذون حكمة عامة مثل «الأمانة هى أفضل شىء» ، أو « ليس كل ما يلمع ذهب » ثم يقول : لأكتب قصة رمزية عنها . إن مجموعة الشخصيات يوحى بها عادة أشخاص عرفوهم ، فأثاروا خيالهم ، أو توحى – ربما فى نفس الوقت أو بعده – حادثة معينة أو سلسلة من الحوادث عاشوها أو سمعوا بها أو

تخيلوها، حيث تبرز لهم فجأة ليستخدموها فى تطوير الموضوع الذى طرأ على فكرهم، وذلك بشيء من التعاون بين الشخصيات والحوادث. وملفيل لم يكن خياليًّا أو على الأقل، عندما حاول تجربة الرواية الخيالية مثل « ماردى » فإنه فشل فشلا ذريعاً . فلكى يتخيل، وكان خياله قويًّا، كان لابد له من أساس متين من الواقع . فعندما أطلق لخياله العنان كما هو الحال فى « بيير » دون هذا الأساس ، كتب كلاما فارغاً . حقيقة أن لديه نزعة « تأملية» وكلما تقدمت به السن انهمك فى الميتافيزيقا التى يقول عنها ريموندويفر، «إنها البؤس وقد ذاب فى فكرة » وهذا تفسير محدود: لا يوجد موضوع يمكن أن يمنحه المرء اهتماماً دقيقاً أكثر ، لأنه يتعلق بالمشاكل الكبرى التى تواجه روحه، والقيم والله والخلود ومعنى الحياة، ومعالجة ملفيل لهذه الأمور لم تكن ذهنية ، بل عاطفية: لقد فكر كذلك لأن إحساسه كان كذلك. ولكن هذا لا يمنع من أن بعض تأملاته كانت عميقة «إن للقلب بواعثه التى لا يعرفها العقل إطلاقاً ». إنى لأقول إنه لكى تكتب قصة رمزية عن عمد، فالأمر يحتاج إلى تجرد عقلى لم يكن يقدر عليه ملفيل .

ليس هناك أبعد مما ذهب إليه إليرى سيد جويك فى تفسيره الرمزى « لموبى ديك» فقد ذهب بعيداً إلى حد أنه ادعى أن رمزيتها هو سر عظمتها . فكما يقول إن إهاب هو « الإنسان - الإنسان الحساس ، المتأمل ، الذى له أهداف ، المتدين ، يقف بقامته ضد سر الخَلْق العظيم، وخصمه - موبى ديك - هو هذا السر العظيم . وهو ليس خالق هذا، ولكنه مطابق لذلك التجرد المزعج الذى تتصف به قوانين العالم وفوضويته على السواء وهو ما أضفاه أشعيا على الخالق». وأعتقد أن هذا صعب التصديق، وهناك تفسير معقول أكثر ، كتبه لويس ممفورد فى كتابه عن ملفيل ، و إذا كنت قد فهمت فهماً صحيحاً فهو يرى أن موبى ديك رمز الشر، وأن صراع إهاب معه، أى صراع الخير والشر ينتهى بانهزام الخير . وهذا يتفق تماماً مع مزاج ملفيل المتشائم . ولكن المجازات هى حيوانات عجيبة من الصعب الإمساك بها ، فيمكنك أن تمسكها من رأسها أو من ذيلها، وأقترح أن تفسيراً آخر مساوياً لهذا يمكن أن يكون مقبولا . لماذا زعم النقاد أن موبى ديك هو رمز الشر؟ إن « الحقد الأجوف » الذى يتحدث عنه البروفسور ممفورد، إنما يكمن فى محاولات الدفاع عن نفسه عندما يهاجم :

إن هذا الحيوان شرير للغاية بلا داع

فعندما يُهاجم ينهض للدفاع عن نفسه

لنتذكر أن « تيبي » ليست إلا تمجيداً للوحشية النبيلة التى لم تفسدها رذائل الحضارة . وملفيل ينظر إلى الرجل الطبيعى على أنه رجل طيب . فلماذا لا يمثل الحوت الأبيض الخير بدلا من الشر ؟ إن جماله رائع ، وحجمه ضخم ، وقوته عظيمة ، وهو يسبح فى البحار بحرية ، وكاتبه إهاب بكبريائه المريض الذى لاشفقة فيه ، خشن ، قاس ، ومحب للانتقام ، إنه الشر ، وعندما يلتقيان فى الصراع النهائى ، ينهزم كابتن إهاب وبحارته « المارقون ، أكلة لحوم البشر ، الضالون المنبوذون » بينما الحوت الأبيض ثابت الجأش ، حيث تحققت العدالة ، ويمضى فى طريقة الغامض لقد هزم الشر وانتصر أخيراً الخير . أو إذا شئنا تفسيراً آخر على نفس المنهاج ، فربما كان إهاب وحقده الأسود هو الشيطان ، والحوت الأبيض هو الخالق . فعندما يحطم الإله ، بالرغم من جروحه التى يكاد يقتله الشر ، يترك جلا واحداً هو إسماعيل طافياً فوق « بلجة البحر الناعمة ذات الأصوات الحزينة » ، ولاشيء يأمل فيه أو يخافه ، وحيداً مع روحه التى لاتهزم .

ولحسن الحظ يمكن قراءة «موبى ديك» وأن تقرأ ها باهتمام بالغ ، دون النظر إلى ما تحمله أو مالاتحمله من مجازات ، ولا أستطيع أن أكرر مرات ومرات ، أن رواية مالاتقرأ للتعليم أو التربية ، ولكن للمتعة والتسلية العقلية ، وإذا وجدت أنك لاتحصل منها على هذه المتعة ، فالأجدر بك ألا تقرأها على الإطلاق . ولكن يجب أن تسلم أن ملفيل قد عمل كل ما فى وسعه لكى يعرقل متعة القارئ . فقد كتب يقول فى أحد خطاباته «إنما أحس بأننى مندفع إلى كتابته اندفاعاً ، أمتنع عنه ، لأنه لايفيد ، ومع ذلك أكتب بالطريقة الأخرى التى لا أستطيعها » . لقد كان صاحب مزاج عنيد ، وربما كان إهمال الجمهور ، هجوم النقاد القاسى وعدم فهم المقربين له ، كل هذا أجبره على أن يصمم على كتابة ما يختاره هو تماماً . وفى مقدمة دقيقة كتبها مونتجمرى بلجيون لطبعة حديثة لموبى ديك ، افترض أنه بما أنها قصة مطاردة ، وأن نهاية هذه المطاردة لابد أن تؤجل باستمرار ، لذلك كتب ملفيل الفصول التى تتعلق بالتاريخ الطبيعى للموت ، وحجمه ، وهيكله .. إلخ . إننى لا أعتقد ذلك . إذا كان لديه مثل هذا الهدف خلال الثلاث سنوات التى قضاها فى المحيط الهادى ، فلا بد أنه شاهد حوادث أو حكيت له قصص ، كان يمكنه استخدامها ليصل

إلى هدفه . وأرى أن ملفيل كتب هذه الفصول الغريبة بالذات لسبب بسيط ، وهو أنه لم يكن يستطيع أن يقاوم حشو كتاباته بأية معلومات تهمه . ومن جانبي أستطيع أن أقرأها جميعاً بشغف إلا ما يتعلق ببياض الحوت . فى رأيى أن هذا كلام فارغ ، ولكن لايمكن أن ننكر أن هذا استطراد يعرقل تسلسل الرواية . ثمة نقطة أخرى قد تشعر القارئ بشيء من خيبة الأمل ، ألا وهى طريقة ملفيل فى وصف شخصية ما بإسهاب ثم تركها : لقد سحرتك هذه الشخصية ، وإنك لتريد أن تعرف عنها المزيد ، ، غير أنه يتركه فى منتصف الطريق . الحقيقة أن ملفيل لا يتمتع بمايسميه الفرنسيون l'esprit de suite أى روح التسلسل . ومن الحمق أن نؤكد أن روايته ذات بناء جيد . وإذا كان قد ألف « موبى ديك » على النحو الذى ظهرت به فلأنه أرادها أن تكون على هذا النحو . وعليك إما أن تتقبلها كما هى أو تدعها جانباً . ولن يكون ملفيل أول روائى يقول « نعم ، كان من الممكن أن يرضيك كتابى على نحو أفضل لو أنى حققت هذا الاقتراح الذى تقترحه أو ذلك، وأؤكد لك أنك على صواب تماماً ، لكنى أحب كتابى عل هذا النحو، وسأظهره بحالته الراهنة، فإذا لم يعجب الناس فلا حيلة لى فى الأمر ، بل أكثر من هذا إننى لا أكترث بإعجابهم » .

ولقد اتهم بعض النقاد ملفيل بافتقاره إلى الابتكار ، غير أنى أعتقد أن اتهامهم لاأساس له . صحيح أن ابتكاره كان يبدو أكثر إقناعاً عندما كان يسنده إلى أساس من التجربة يدعم هذا الابتكار ، غير أن هذا شأن الروائيين كافة ، وعندما كان يتوفر لديه هذا الأساس من التجربة ، كان خياله يحلق بحرية وبقوة . ولم يبق لدى الكثير لكى أضيفه . ولا أكاد أجدنى بحاجة إلى أن أشير (فهذه ملاحظة لاتغيب عن بال أكثر القراء شروداً) إلى أنه عندما يصف ملفيل الحركة فإنه يصفها على نحو رائع ، وبقوة هائلة ، والغريب أن طريقته شبه الرسمية فى الكتابة تضاعف من الإثارة . فالفصول الأولى — ومسرحها نيوبدفورد — واقعية للغاية ، كما أنها — فى نفس الوقت — رومانسية بشكل ساحر . إنها تعد الذهن ، وبطريقة جميلة ، لما سيحدث بعد ذلك . لكن من الطبيعى أن شخصية كابتن إهاب الرهيبة العملاقة هى التى تكتسح الكتاب ، وتضفى عليه طابعه العاطفى . ولاأجد فى ذهنى شخصية روائية

تدانيه فى الضخامة . وعليك أن ترجع إلى كتاب المسرح من الإغريق لتجد مثل هذا الإحساس بالقدَر المحتوم فى كل ما تسمعه عنه، وعليك أن ترجع إلى شيكسبير لتعثر على مخلوقات لها مثل هذه القدرة الرهيبة . ورغم كل التحفظات التى يبديها المرء فإن « موبى ديك » كتاب عظيم ، بل عظيم جداً، لأن هرمان ملفيل هو الذى كتبه .

تذييل

كتبت كل مقال فى هذا الكتاب بهدف واحد ، وهو أن أقص للقارئ شيئاً عن القصة المعينة التى أدعوه إلى قراءتها .ونظراً لأنه من الطبيعى أن يريد القارئ الإلمام بشيء عن طراز الأشخاص الذين ألفوا هذه الكتب، فقد أضفت نبذاً عن مؤلفيها ، ولم يكن بمقدورى إلا أن أسمح لنفسى بمساحة محدودة للغاية ، لهذا عندما تناولت حياة وشخصية كل روائى فيهم ، قصرت معالجتى على الحقائق التى بدت هامة فى نظرى ، وقد أشرت إلى مختلف الكتب التى استقيت منها هذه الحقائق ، وأنا أقدم شكرى لمن بقى حياً من مؤلفى هذه المراجع لقاء الإفادة والمتعة اللتين وفراها لى .

ولقد قضيت ما يزيد على عام، وأنا أقرأ مرة أخرى تلك الروايات التى تتضمنها السلسلة التى كتبت لها هذه المقدمات ، ودرست حياة مؤلفيها ، وخلال ذلك كانت الخواطر تراودنى من حين لآخر بصدد السمات العامة للمؤلفين وكتبهم ، ولم يكن بوسعى إلا أن أسائل نفسى : ما الذى كان يتمتع به هؤلاء الكتاب الكبار فجعلهم على ما هم عليه ، وما هو السر فى بقاء هذه الكتب مصدراً للمتعة الدائمة لمواكب متلاحقة من القراء؟ غير أن الاستنتاجات التى توصلت إليها ، والإجابات التى جاءت رداً على أسئلتى ، ماهى إلا شيء تقريبى . وأنا أتوسل إلى القارئ أن ينظر إليها على هذا النحو، لم يكن بوسعى إلا أن أعمم، والتعميم لايعدو أن يكون حقيقة جزئية غير كاملة، وأكثر من هذا أننى أعمم فى هذه الحالة ، على عدد ضئيل من الأمثلة .

والملاحظ فى هذه الكتب جميعاً أنها كانت من الكتب الرائجة . صحيح أن ثلاثاً منها — « الأحمر والأسود » و « ويذرنج هايتس » و« موبى ديك » — منيت بفشل ذريع عندما نشرت لأول مرة . أما النقاد الذين التفتوا إلى هذه الروايات الثلاث فلم يجدوا شيئاً كبيراً يقولونه عنها ، وقد تجاهلها الجمهور . ومن السهل معرفة السبب . كانت هذه الروايات تتمتع بقدر كبير من الأصالة . والعالم الآن .

بصفة عامة ، لايعرف كيف يتصرف حيال الأصالة ، إن الأصالة تزعجه وتخرجه من عاداته الفكرية المريحة ، فيكون غضبه هو رد الفعل الأول ، ولن يتخلى العالم عن تهيبه الغريزى ، ويعوّد نفسه على ما هو جديد ، إلا بعد مضى وقت طويل ، وبإرشادمن المفسرين الذين يتمتعون بملكة الإدراك . خذ مثلا المدرسة الانطباعية فى الرسم ، تلك المدرسة التى برز فيها « مونيه » ، « ومانيه » « ورينوار » : إننا لانكاد نصدق أن لوحاتهم ، عندما ظهرت لأول مرة قوبلت بسيل من اللعنات . أما اليوم فإننا لانرى فيها ما يصدمنا . ونحن ندهش كيف أن الذين رأوها لأول مرة . لم يدركوا على الفور جوانب الجمال التى تبدو لنا الآن واضحة جلية . وقد عرفنا أن هؤلاء الرسامين تعرضوا لمشاق وهم يبيعون — لقاء مئات معدودة من الفرنكات — أعمالا قيمة تباع اليوم لقاء آلاف عديدة من الدولارات . ونحن ننعى ضياع الفرصة : معتقدين أننا لو كنا أحياء فى عصرهم لاشترينا بأبخس الثمن صوراً نفخر بامتلاكها . لكنا لو كنا عشنا فى ذلك العصر لما فعلنا شيئاً من هذا . كنا سنظنهم شاذين ، مثلنا فى ذلك مثل أى شخص آخر . لقد احتاج الأمر أعواماً طوالا من الألفة كى نستطيع أن نتذوق جانب الطبيعة الجديد . الذى أدركه هؤلاء الرسامون وسجلوه على لوحاتهم .

هذا ما حدث للكتب الثلاث التى أشرت إليها ، وعلينا ألا ننسى أنه عندما أراد ستندال إعادة طبع مؤلفاته . رجاه أخلص أصدقائه ، وهو رجل عالم يتمتع بثقافة كبيرة : رجاه أن يستبعد « الأحمر والأسود » ؛ أما شارلوت برونتى فعندما طالبوها بطبعة جديدة من رواية أختها « ويذرنج هايتس » — ولم يكن هذا إلا للشهرة التى حققتها شارلوت — اضطرت إلى الاعتذار . أما هوثورن فواضح أن « موبى ديك » لم ترق له ، بالرغم من صداقته لملفيل وإعجابه بشخصيته .

غير أن الزمن غيّر من هذا كله . لقد تأكدت منذ زمن طويل المزايا الماثلة التى تتمتع بها هذه الروايات الثلاث . لقد أصبحت فى قائمة الكتب الرائجة . أما بالنسبة للروايات الأخرى التى تناولتها فى كتابى فقد اجتذبت الجمهور لتوها وراجت هذه الروايات منذ اليوم الأول لنشرها ، وظلت على هذا منذ ذلك الحين .

لقد وقفت عند هذه النقطة فترة لأوضح مدى غباء فئة معينة من النقاد ،

وكذلك لسوء الحظ نسبة من الجمهور أيضاً الذى يعتبر نفسه من زمرة المثقفين ، حين تندد بكتاب لالشىء إلا لأنه رائج . ومن العبث أن نفترض أن الكتاب الذى تتوق جماهير غفيرة إلى قراءته ، ومن ثم تشتريه هو بالضرورة أسوأ من كتاب لاتريد قراءته سوى القلة ومن ثم لايشتريه الكثيرون . هناك « لوجان بيرسال سميث » الذى كان ينعم بدخل كبير مصدره مصنع للزجاجات ومدافن تابعة لأسرته ، والذى كتب يقول : « إن الكاتب الذى يكتب من أجل المال لايكتب لى » ، يالها من ملاحظة جد غبية ، ملاحظة لم تكشف إلا عن جهل بتاريخ الأدب. لقد قال دكتور چونسون : « ليس هناك رجل لايكتب للحصول على المال ، اللهم إلا إذا كان غبياً » . إن دكتور چونسون الذى قال هذا ، كتب أحد روائعه الثانوية فى الأدب الإنجليزى لكى يحصل على مال يكفى لدفع نفقات جنازة أمه . لقد كتب بلزاك وديكنز من أجل الحصول على المال بلا خجل . ومهمة الناقد أن يحكم على الكتاب الذى يتناوله على ضوء قيمته ومميزاته . أما البواعث التى حدت بالكاتب إلى التأليف فلا شأن للناقد بها ، ولاشأن له أيضاً بعدد النسخ التى بيعت من الكتاب. لكن إذا كان ناقداً عميقاً ، فقد يلذ له أن يتتبع مختلف البواعث التى أدت إلى إنتاج عمل فنى معين وأن يبحث فى السمات الخاصة التى تجعل الكتاب يجتذب أعداداً غفيرة من الناس . على مختلف تربيتهم وثقافاتهم . وهنا يصبح من المفيد أن يقارن بين ديفيد كوبرفيلد » و « ذهب مع الريح » وبين « الحرب والسلام » و « كوخ العم توم » .

أنا لا أعنى بالطبع أن الكتاب الرائج هو كتاب جيد بالضرورة . ذلك أنه قد يكون بالغ السوء . فقد يروج الكتاب لأنه يتناول موضوعاً يتصادف فى ذلك الحين أنه يهم الجمهور ، ومن ثم يقرأه الكثيرون بالرغم من بشاعة الأخطاء التى قد تكون فيه . وعندما يكف الجمهور عن الاهتمام بهذا الموضوع الطارئ ، ويسدل على الكتاب ستار النسيان . قد يروج الكتاب لأنه من نوع الأدب المبتذل ، ذلك أن هناك دائماً جمهور للقذارة ، فإذا أسعد الحظ الناشر والمؤلف ، فاستطاعا أن يعلنا عن وقوع الكتاب تحت طائلة القانون ، فإن مبيعاته قد تزيد إلى حد كبير . وقد يروج الكتاب لأنه يشبع الرغبة فى المغامرة « والرومانس» فى نفوس الكثيرين ، ممن حرمتهم

الظروف من المغامرة والرومانس . وليس من السخاء فى شىء حرمانهم من وسيلة الهرب الوحيدة ، من رتابة حياتهم وعزلتها . وفى أمريكا فى السنوات الأخيرة ، أدت الإعلانات الضخمة إلى مضاعفة مبيعات الكتب إلى حد هائل ، سواء الكتب الخيالية أو غير الخيالية وكثيراً ما حققت أرقاماً كبيرة فى كتب ليست بذات قيمة كبيرة ، لكنى أعتقد أن كل الناشرين سيوافقون على أنه مهما كانت المبالغ التى سينفقونها على الدعاية عن طيب خاطر ، فلن ينجحوا فى جذب الكثرة إلى قراءة الكتاب ، إلا إذا كان هناك ما يغرى الجمهور على قراءته . وأما دور إعلاناتهم فهو تعريف الجمهور بالكتاب الذى سيستمتعون بقراءته ليس إلا .

وحتى يكون فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك يجب أن يتضمن الكتاب شيئاً يجعله قابلا للقراءة ، بصرف النظر عن رداءة الطريقة التى كتب بها ، وسطحيته ، وتظاهره الوهمى ، وعاطفته المزيفة ، وعجزه عن الإقناع . يجب أن يخاطب الكتاب شيئاً مشتركاً من الغالبية العظمى من الناس . ومعنى هذا أن الكتاب يتمتع ببعض المزايا على الأقل ، ومن العبث أن تقول يجب على الناس ألا يعجبوا بكتاب به هذه الأخطاء الكبيرة . والواقع أنهم يحبون هذا الكتاب ، وهم لا يكترثون بالأخطاء لأنهم مأخوذون بذلك الشىء الذى يهمهم ، والذى وجدوه فى الكتاب وقد نستفيد إذا حدد لنا النقاد ما هو هذا الشىء . بهذه الطريقة يستطيعون تعليمنا وإفادتنا .

وعندما أفكر فى السمات التى جعلت هذه الروايات العشر التى تناولتها تجتذب الناس على الدوام ، أجد نفسى فى مواجهة الحقيقة التالية : إن كل واحدة منها مختلفة عن الأخريات . ولكل هذه الروايات مزاياها ، ولكل منها عيوبها . بعضها كتب بطريقة رديئة ، وبعضها يفتقر إلى البناء السليم ، وبعضها نجده بالكاد مقبولا أو معقولا ، وبعضها متشعب ، وهناك على الأقل واحدة مغرقة فى العاطفية المزيفة ، وأخرى متوحشة . ولكننا نجد أن هذه الروايات العشر تشترك فى خاصية : إن فيها حكايات تستوعب القارئ . إنك متشوق لأن تعرف ما الذى ستتمخض عنه الأحداث ، وأنت متشوق إلى معرفة هذا لأنك مهتم بالشخصيات التى اخترعها الكتاب ، وأنت مهتم بها لأنك تسلم بوجودها كما لو كانوا أناسا حقيقيين ، بالرغم من أنهم يختلفون عن الناس الذين تعرفهم ، وأنت تقبلهم على حالهم هذا — حتى « مستر ميكوبر » —

لأن صانعيهم عالجوهم بحيوية وأسبغوا عليهم سمات شاذة مميزة . لقد سكب فيهم الكتاب حيويتهم .

والموضوعات التى يعالجها الكتاب هنا موضوعات تهم الجنس البشرى على الدوام : موضوعات عن الرب ، والحب والكراهية والموت ، والمال ، والطموح ، والحسد، والكبرياء ، والخير ، والشر. موجز القول أن المؤلفين تناولوا العواطف والغرائز والرغبات التى تشترك فيها جميعاً . وهم قد حاولوا مخلصين ، أن يقولوا الحقيقة ، غير أنهم نظروا إلى الحقيقة بالمنظار المشوه ، منظار شخصياتهم الشاذة . ولأن هؤلاء الكتاب تناولوا موضوعات تهم الناس من عصر لعصر. لقد وجد الناس من جيل لجيل فى كتبهم شيئاً ما ينشدونه، ولأن هؤلاء الكتاب رأوا الحياة ، وحكموا عليها ووصفوها بالصورة التى تكشفت بها أمام شخصياتهم غير المعتادة، فإن كتبهم تحمل هذا الطابع الخاص والسمة المتفردة ، اللذين يظلان يجتذباننا بشدة ، ونحن نجد آخر الأمر أن كل ما يستطيع الكتاب أن يمنحه لك هو أن يمنحك نفسه ، ونظراً لأن هؤلاء الكتّاب على مختلف أساليبهم كانوا يتمتعون بشخصيات ذات قوة من نوع خاص منفرد، فإن كتبهم تحتفظ بسحرها، بالرغم من مرور الزمن الذى تتغير معه عادات الحياة وظهور أساليب جديدة فى التفكير .

ثمة نقطة أخرى تشترك فيها هذه الروايات ، نقطة أعتقد أنها تستحق الذكر ، لقد حكى هؤلاء الكتاب حكاياتهم بطريقة مباشرة، إن أمامهم أحداثاً صبوها فى قالب قصص، وقد تغلغلوا إلى البواعث، كما وصفوا الأحاسيس والانفعالات دون الاستعانة أو اللجوء إلى الحيل الأدبية التى تجعل الكثير من الروايات المعاصرة مملة . ولا يبدو أنهم استخدموا مهاراتهم للتأثير على القارئ ، أو مفاجأته باستعراض أصالتهم ، إنهم كبشر جد معقدين ، غير أنهم ككتاب ، يتميزون ببساطة مذهلة . إن حنكتهم وأصالتهم تلقائية، كتلقائية مسيو جوردان عندما يتكلم النثر .

ولقد كنت تواقاً إلى أن أكتشف إذا استطعت، ما إذا كانت هناك خاصية مشتركة بين هؤلاء الكتاب أستطيع بها أن أعرف السمات التى ساعدتهم على تأليف كتب أجمع أصحاب الرأى على عظمتها . نحن لا نعرف الكثير عن فيلدنج وچين أوستن وإميلى برونتيه ، أما فيما يتعلق بالآخرين فإن المادة الخاصة بهم هائلة .

لقد كتب ستندال وتولستوى المجلد بعد المجلد يتحدثون عن أنفسهم، وهناك مراسلات فلوبير الضخمة وهو يميط فيها اللثام عن نفسه ، أما بالنسبة للآخرين فقد كتب الأهل والأصدقاء ذكريات عنهم ، وعرض كتاب السيرة لحياتهم بطريقة تفصيلية مستفيضة .

وفى كل شخص بالطبع يوجد شيء من الغريزة الإبداعية . من الطبيعى أن يلعب الطفل بالأقلام الملونة ، ويرسم لوحات صغيرة بالألوان المائية . ومن الطبيعى أنه عندما يتعلم كيف يقرأ ويكتب أن يكتب أشعاراً وقصصاً قصيرة . ونظراً لأنه يبدو من الوهلة الأولى أن الكتابة أيسر من الرسم فإن الطفل عندما يكبر يكون أكثر استعداداً للكتابة . وواضح أن الابتكار أكثر إمتاعاً من النقل، وإنى أومن بأن الغريزة الإبداعية تبلغ ذروتها من العقدالثانى من عمر الإنسان وبعد ذلك تضمر وتموت ، أحياناً لأنها لم تكن إلا ثمرة من ثمار المراهقة ، وأحياناً بسبب مشاغل الحياة ، وضرورة كسب لقمة العيش مما لايدع وقتاً لتمرينها ، ولكن الغريزة الإبداعية تظل تثقل كاهل الكثيرين أو تسحرهم ، وهم أكثر مما يعرفه معظمنا . وهؤلاء يصبحون كتاباً بسبب الدافع الذى يدفعهم من الداخل ، لكن لسوء الحظ قد تتمتع بغريزة إبداعية ناضجة وظاهرة بشكل قوى، ومع ذلك لايكون لديك القدرة على خلق شيء ذات أهمية .

ما هو الشيء الذى يتعين مزجه بالغريزة الإبداعية حتى يستطيع الكاتب أن يقدم عملا قيماً، يخيل إلى أنها شخصية . إنها الفطرة والغريزة أو نوع من الشذوذ الكامن فيه والذى يساعده على أن يرى الأشياء بطريقة تخصه وحده . وقد تكون شخصيته لطيفة ، وقد تكون غير لطيفة . ولكن هذا لا يهم . ولايهم أيضاً إذا كان يرى بطريقة قد يراها الناس خاطئة أو غير حقيقية ، المهم أن يرى الكاتب بعينه هو ، وأن تريه عيناه عالماً خاصاً به هو . وقد لايروق لك العالم الذى يراه الكاتب ، العالم الذى رآه ستندال أو فلوبير ، وعندئذ ستكره عمله ، لكنك لن تسلم من الإحساس بالانبهار إزاء القوة التى قدم بها هذه الصورة ، أو قد يروق لك عالمه ، مثلما يروق لك عالم فيلدنج وچين أوستن ، وديكنز ، وعندئذ ستقرب المؤلف من قلبك . إن هذا كله يتوقف على مزاجك ولاصلة له بقيمة العمل نفسه .

وأعتقد أن كل من قرأ ما كتب عن هؤلاء المؤلفين العشرة، سيلاحظ أنهم جميعاً كانوا أناساً ذوى شخصية منفردة ذات طابع متميز وغير عادى. ولقد كانوا يتمتعون بالطبع، بغريزة إبداعية جد متطورة، ولقد كانوا جميعاً تواقين إلى الكتابة. وإذا كان لنا أن نحكم بناء على هذه الأمثلة، جاز لنا أن نقول دون خوف أن الذى يكره الكتابة لايعد كاتباً يذكر. ليس معنى هذا أنهم لم يجدوا الكتابة شيئاً عسيراً. فليس من السهل أن نكتب بطريقة جيدة، ولا أحد يكتب بالجودة التى ينشدها، وإنما يكتب المرء حسبما تسمح به قدرته. وسيذكر القارئ كيف أن فلوبير وجد أن إرضاء نفسه مهمة مرعبة، أما تولستوى وبلزاك فكانا يكتبان ويعيدان ما كتبا ويصححانه بشكل لايكاد ينتهى، وعلى ذلك ظلت الكتابة عاطفتهم المتأججة. لم تكن الكتابة مجرد وظيفة يمارسونها فى حياتهم وإنما كانت حاجة ملحة إلحاح الجوع أو العطش.

ولم يحظ أحد منهم بقدر كبير من التعليم. كان فلوبير وتولستوى قارئين ممتازين، غير أنهما كانا يقرآن لكى يعثرا على مادة لما يريدان كتابته، أما الباقون فلم يقرأوا أكثر مما يقرأه الشخص العادى المنتمى إلى طبقتهم. ويبدو أيضاً أنهم لم يهتموا كثيراً بالفنون الأخرى – صحيح أن تولستوى كان مغرماً بالموسيقى حيث كان يعزف على البيان وستندال كان يميل إلى الأوبرا، وهى الشكل الموسيقى الذى يدخل السرور على من لا يحبون الموسيقى. لكنى لم أكتشف أن الموسيقى كانت تعنى الكثير لبقية الروائيين. وينطبق هذا على الفنون التشكيلية.

فإذا وجدت فى كتبهم إشارات إلى الرسم أو النحت دلت هذه الإشارات على أن أذواقهم كانت تقليدية بشكل مؤلم، لم يكونوا على جانب كبير من الذكاء، ولست أعنى بهذا أنهم كانوا أغبياء، ذلك أن كتابة رواية جيدة يحتاج إلى ذكاء لكن ليس ذكاء من الدرجة الأولى. وكانت سذاجتهم، عندما يعالجون أفكاراً عامة، تثير الانزعاج، إنهم يتقبلون الأفكار العادية التى ترددها فلسفة عصرهم، ولم يأت استغلالهم لهذه الفلسفة فى رواياتهم بنتيجة طيبة. الواقع أن الأفكار ليست من اختصاصهم، وعندما يحدث فعلا أن يهتموا بالأفكار، يكون اهتمامهم عاطفياً. وهم لم يوهبوا قدرة كبيرة على إدراك المفاهيم. وهم لايهتمون بالفروض، وإنما بالأمثلة،

ذلك أن الشيء الملموس هو الذى يستلفت انتباههم . قل لهم إن كل البشر سيفنون ، غير أنهم لن يهتزوا ، أما إذا مضيت فى حديثك وقلت إن سقراط رجل، فإنهم سيستيقظون من غفوتهم ويسجلون كلامك، لكن إذا لم يكن الذكاء ركيزتهم فإنهم يعوضونه بمواهب تعود عليهم بنفع أكبر. إنهم يحسون الأشياء بقوة ، بل بعاطفة جياشه ، وهم يتمتعون بالخيال ، وبقدرة على الملاحظة الدقيقة ، وبقدرة على تقمص الشخصيات التى صنعوها جميعاً ، ويبتهجون لنجاحها ويتألمون لآلامها ، وهم قد وهبوا القدرة على تجسيد الأشياء التى رأوها وأحسوها وتصوروها . وذلك أنهم رأوا وأحسوا وتصوروا بقوة وتمييز خارجين عن المألوف .

بيد أنه يتعين علىّ قبل المضى فى هذه الملاحظات أن أعرض لحالتين شاذتين هما إميلى برونتيه ودستويفسكى . إنه لمن الأمور الشاذة أن تستبد غريزة الإبداع بشخص بعد بلوغه الثلاثين ، وهنا نجد أن كل هؤلاء الكتاب كانوا شاذين فى بعض النواحى ، غير أن شذوذهم كان طبيعيًّا بالنسبة لمواهبهم . أما شذوذ إميلى برونتيه ودستويفسكى فكان وليد ظروف خارجية. كانت إميلى برونتيه تعانى من خجل عنيف بلغ حد المرض . ويخيل إلى أن خجلها كان مرجعه ميولاً جنسية لم تجد الإشباع ، أما دستويفسكى فكان مصاباً بالصرع ، كذلك عانى فلوبير نفس المرض ، غير أنه كان يبرأ منه لسنوات ، كما أن قوة إرادته وقدرته الفطرية على الإدراك السليم خففا من تأثير الصرع على شخصيته . وهنا نصل إلى الفكرة القائلة بأن العجز الجسمانى أو التجارب التعيسة فى سنوات الطفولة هى النبع الرئيسى لغريزة الإبداع . ومن هنا لم يكن بايرون ليصبح شاعراً لو لم يكن أعرج ، ولم يكن ديكنز ليصبح روائيًّا لو لم يقض بضعة أسابيع فى مصبغة لصباغة الجلود. وهذا هراء. فما أكثر الذين ولدوا ولهم أقدام مشوهة . وما أكثر الأطفال الذين اشتغلوا بأعمال كانوا يحسبونها بشعة ولكنهم لم يكتبوا سطراً من الشعر أو النثر . إن الغريزة الإبداعية مشاع لكل الناس ، ولكنها لدى القلة المحظوظة قوية وملحة ، لم يكن من الممكن أن يصبح بايرون كاتباً بقدمه العرجاء، ولا دستويفسكى بصرعه، ولا ديكنز بتجربته التعسة فى مصنع الجلود ، لولا وجود دافع قوى يحثهم ، دافع مركب فى طبيعته ، إنه نفس الدافع الذى استبد بهنرى فيلدنج الذى لم يكن يشكو من شذوذ ،

وچين أوستن السليمة، وتولستوى السليم ، ولست أشك فى أن العجز الجسمانى أو الروحى (يتمثل بالنسبة لديكنز فى تحذلق سوق) يؤثر على طبيعة أعمال الكاتب . فهو يعزله عن إخوانه إلى حد ما، كما يجعله خجولا بشكل مؤلم، ومتحيزاً متحاملا لدرجة أنه يرى العالم والحياة ، وإخوانه من البشر من وجهة نظر متشائمة دون مبرر ، وهى على كل حال ليست بوجهة النظر العادية الطبيعة . وأهم من هذا كله أنه يضيف عنصراً انطوائيًّا إلى عنصر الانبساط الذى ترتبط به غريزة الإبداع ارتباطاً وثيقاً . ولست أشك فى أن دستويفسكى لم يكن ليوفق فى كتاباته لو لم يكن مصاباً بالصرع ، لكنى لا أشك فى أنه كان سيكتب بكثرة وغزارة بدون هذا المرض .

فإذا وضعنا جانباً هذه المخلوقات المريضة كى نُقَيِّم الآخرين لوجدنا أن أهم ما يستلفت النظر أنهم جميعاً يتمتعون بحيوية دافقة .

ومن الخطأ أن تظن أن الفنان المبدع يجب أن يعيش فى بؤس . الواقع أنه لايجب ذلك . إن طبيعته تحب الفخفخة، مما يدفعه إلى الاستعراض . ومن هنا يعشق الترف . ويحب الاستمتاع بوقته . ولتذكر أيها القارئ — هنرى فيلدنج بصيده وقنصه وخدمه وحشمه بلباسهم الفاخر ، ولنتذكر ستندال بملابسه الفاخرة ، وعربته الضخمة ، وتابعه ، وبلزاك وحبه للتظاهر الأرعن ، وديكنز وولائم العشاء الفخمة ، والبيت الجميل، والعربة التى يجرها جوادان . لاشىء هناك ينم عن تصوفهم ، وكانت لديهم قدرة هائلة على الاستمتاع . كذلك كانوا يعشقون متع الحياة . وكانوا يطلبون المال ، لا لتكديسه وإنما لتبذيره ذات اليمين وذات اليسار . ولكن إذا كانوا مبذرين بشكل جنونى ، فإنهم كانوا أسخياء أيضاً ، إنهم يأخذون المال من أى مصدر متاح أمامهم . ويعطرنه لأى امرئ يحتاج إليه . كانت لديهم طاقة عصبية هائلة ، كما كانت صحبتهم طيبة ، كانوا محدثين لبقين ويبدو أن جاذبيتهم خلبت لب كل من اتصل بهم .

لقد مات بعضهم ولما يزل شابًّا ، ماتت إميل برونتيه من السل الذى شاع فى أسرتها كلها ، وماتت چين أوستن من مرض نسوى ربما كان من الممكن علاجه لو عاشت فى أيامنا هذه ، ومات فيلدنج من كثرة ما أفرط فى شبابه ، ومات

بلزاك بسبب الإجهاد فى العمل وطريقته غير السليمة فى الحياة ، لكن إذا أخذنا الفترة التى عاشوها فى الاعتبار ، لوجدنا أنهم أنتجوا كمية هائلة من الكتب باستثناء إميلى برونتيه التى ألفت كتاباً واحداً فقط وعدداً من القصائد . ويجب أن نتذكر أيضاً أن الفترة التى كتبت فيها چين أوستن كانت أقل من عشرة أعوام . كان هؤلاء الكتاب يعملون بجد ، ويبدو أنهم كانوا يسيرون وفقاً لروتين منظم ، وهذا ما تثيره الخطابات التى توصلنا إليها عن طريقتهم فى العمل .لم يكونوا يدينون بعقيدة البوهيمى الذى يقول إنه لايكتب إلاحين تواتيه « الحالة » ، أو حين تحركه الروح . وقد تكون حياتهم غير منظمة وغير تقليدية ،لكن ـ عند الكتابة — كانوا يهرعون إلى مكاتبهم بنفس الانتظام الذى يذهب به الموظف إلى مكتبه ، ولا يسعنا إلا أن نعجب بنشاطهم .

ولكن ، كانت لديهم سمات لا تثير إعجاباً كبيراً . كانوا أنانيين إلى حد بالغ . لم يكونوا يهتمون بشىء إلا بعملهم ، ولقد كانوا على استعداد للتضحية بكل شخص على صلة بهم فى سبيل هذا العمل دون أن تهتز لهم شعرة . وكانوا متهورين ، وأنا نيين وعنيدين ، ولم يكونوا يتمتعون بقدرة كبيرة على ضبط النفس ، ولم يفكروا لحظة فى كبت أهوائهم حتى لو كانت تسبب ضيقاً أو تشكل خطراً على الآخرين . ويبدو أنهم لم يكونوا يميلون كثيراً إلى الزواج . فإذا تزوجوا فإنهم يشقون زوجاتهم ، إما بسبب طباعهم الحادة وانفعالهم السريع ، أو بسبب تقلبهم ، وأعتقد أن زواجهم كان وسيلة إلى الهرب من غرائزهم الفوضوية المزعجة ، فظنوا أن الاستقرار سيحقق لهم السكينة والراحة ، كما ظنوا أن زواجهم سيكون بمثابة مرفأ يحتمون به من الأمواج العاصفة فى هذا العالم الأهوج . غير أن الهرب ، والسلام ، والراحة ، والأمان ، كل ذلك كان آخر شىء يمكن أن يرافق أمزجتهم . فالزواج ينطوى على تنازلات مستمرة ، وكيف يتوقع أن يتنازلوا والأنانية جوهر طبيعتهم ، وكثيراً ما وقعوا فى الحب ، لكن يبدو أن هذا الحب لم يشبعهم أو يشبع الشخصيات التى كانت موضع عواطفهم المتقلبة . وهذه الظاهرة ليست بالغريبة — فالحب الحقيقى ينطوى على استسلام . والحب الطبيعى ينطوى على الإيثار ، والحب الطبيعى شىء رقيق . غير أن الرقة والإيثار والاستسلام لم تكن بالفضائل التى يقدرون عليها .

ويبدو أن طاقتهم الجنسية لم تكن هائلة باستثناء فيلدنج السوى جداً ، وتولستوى الشبق . ويخيل إلى أنهم كانوا يمارسون الحب ، لا لأن العاطفة التى لا تقاوم قد جرفتهم ، وإنما لأن فى هذه العلاقة إشباعاً لغرورهم وإثباتاً لرجولتهم . وإننى لأخمن دون حرج أنهم كانوا يعودون إلى عملهم وهم يتنهدون ارتياحاً لانتهائهم من هذه الأغراض .

إنه مجرد كلام معقد وتقريبى ، فأنا لم أضع فى اعتبارى البيئة والمناخ الفكرى اللذين عاش فيهما هؤلاء الكتاب ، مع أنه قد أثر فيهم تأثيراً لا يستهان به ولا يمكن التغاضى عنه . لقد ظهرت الروايات التى عالجتها جميعاً ، باستثناء « توم جونز » ، فى القرن التاسع عشر . . وهو عصر ثورة . . ثورة اجتماعية ، وصناعية وسياسية . لقد نبذ الناس فيه أنماط حياتهم ، وغيروا فيه من طرق التفكير السائد . والتى لم تكن قد تغيرت تغيراً يذكر لأجيال طويلة مضت ، فالمعتقدات القديمة لم تعد تقبل دون مناقشة ، والجو أصبح مليئاً بالغليان ، وقد أصبحت الحياة نفسها مغامرة جديدة مثيرة . أعتقد أن مثل هذا العصر يبعث على خلق شخصيات نادرة وأعمال فريدة ، ولكنى أفتقر إلى المساحة والمعرفة اللازمة لمعالجة مثل هذا الموضوع المعقد .

لقد اخترت فى هذا الكتاب أشخاصاً قلائل عرفت عنهم شيئاً ، وفى حديثى عنهم أوردت تعميمات قد يسهل إثبات خطئها فى حالة أو أخرى . فنحن نعرف القليل عن جين أوستن ، ولكن ما نعرفه عنها يجعلنى أومن بأنها كانت تتمتع بكل الفضائل التى يمكن أن تتمتع بها امرأة دون أن تكون مثالا للكمال الذى لا يمكن للمرء أن يحتمله . وإنى لأدرك جيداً أننى عجزت عن أن أكشف فيها ، وفى زملائها عن الشىء الذى جعلهم كتاب عظماء ولقد كانوا جميعاً ينتمون إلى الطبقة الوسطى باستثناء تولستوى ، ولم أكتشف فى سلالاتهم أو فى الظروف المحيطة بهم شيئاً يفسر سر امتلاكهم لهذه الموهبة الثمينة من أين أتت هذه الموهبة ؟ ماهى مكوناتها ؟ وكيف تنشأ ؟ وعلى قدر معرفتى فإن هذه الأسئلة لا يوجد لها تفسير . إن هذه الموهبة هى لعبة الطبيعة . ويبدو أنها تتوقف على الشخصية . ويبدو أن الشخصية تتألف من مميزات لها وزنها ومن عيوب بشعة أيضاً . وبعد أن عشت مع هؤلاء الناس لفترة طويلة ، سواء من خلال كتبهم أو كتب السيرة ، والخطابات الخاصة بهم ،

وجدت نفسى مدفوعاً إلى الاعتراف بأن أحداً منهم لم يكن بالشخص اللطيف. ربما كان صحيحاً أن الالتقاء بهم يدخل السرور على النفس ، فإننى أكرر هنا أن صحبتهم كانت ممتعة ، باستثناء إميلى برونتى التى جعلها خجلها انطوائية . وعلى ذلك لابد أن الحياة معهم كانت ضرباً من الجحيم .

سأختم كتابى بعبارات قليلة متناثرة ، أخذتها من كتاب لوايتهيد تصادف أننى كنت أقرؤه للمرة الثانية خلال كتابتى لهذه الصفحات . ويبدو أنها جمعت كل التأملات التى أثرتها خلال هذا الكتاب . « يحتاج البشر لشىء يستوعبهم لفترة من الوقت ، شىء يخرجهم من هذه الرتابة ، شىء يستطيعون أن يتفرسوا فيه. والفن العظيم هو أكثر من مجرد إنعاش عابر . إنه شىء يعين الروح على تحقيق ذاتها . وهو يبرر وجوده بشيئين : المتعة العاجلة وتهذيبه لأعماق النفس . وهذا النظام الذى يحققه الفن لايفترق عن المتعة ، بل هو وليدها . إنه يجعل الروح تدرك دوماً القيم التى تتخطى الوضع الذى كانت عليه قبل الاستمتاع بهذا الفن » .

وفى النهاية أسوق إلى القارئ هذه العبارة التى تنطبق على مؤلفى هذه الكتب وعلى الكتب نفسها .

علينا ألا نتوقع أن نجد كل الفضائل . بل يتعين علينا أن نشعر بالرضا إذا وجدنا شيئاً بلغ من شذوذه أن نجده مسلياً » .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٦٠٥٩ / ١٩٧٠

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧١